LEE CHILD

PRESENTS

JACK REACHER

IN

GONE TOMORROW

رواية لي تشايلد

غدًا لن يأتي أبدًا

ترجمة: خالد أمين

دار دَوّن

ساحر الكتب

First published in Great Britain in 2009 by Bantam
Press an imprint of Transworld Publishers
Copyright © Lee Child 2009

لي تشايلد: غدًا لن يأتي أبدًا، رواية
الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠٢٤
رقم الإيداع: ٢٠٢٣١٢٨٣٥٢ - الترقيم الدولي: ٥-٤٠٢-٨٠٦-٩٧٧-٩٧٨

جَميـعُ حُـقـوقِ الطَبْـعِ والنَّشرِ محـْـفُوظةٌ للناشرْ
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأَي طريقة
بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

إن الآراء الـواردة فـي هـذا الكتـاب
لا تُعبـر عـن رؤيـة الناشـر بالضـرورة
وإنمـا تعبـر عـن رؤيـة الكـاتب.

© دار دَوِّنْ
عضو اتحاد الناشرين المصريين.
عضو اتحاد الناشرين العرب.
القاهرة - مصر
Mob +2 - 01020220053
info@dardawen.com
www.Dardawen.com

Gone Tomorrow

Lee Child

First published in Great Britain in 2009 by Bantam
Press an imprint of Transworld Publishers
Copyright © Lee Child 2009

مقدمة المترجم

هناك شيء أحبه بشدة في روايات الغموض والتشويق والإثارة، وهذا الشيء هو قدرة تلك الروايات في أخذك لعالم آخر تمامًا يختلف عن كل ما يحيط بك، ضوضاء مختلفة، هواء مختلف، مبانٍ لم ترَها من قبل، مدن جديدة، ستقابل شخصيات أخرى من عوالم بعيدة، وتعقد صداقات مع بعضهم وعداوات مع آخرين، ستكون حياتك مثل حياة جاك ريتشر بالضبط..

بطل روايتنا هو ضابط الشرطة العسكرية السابق جاك ريتشر، الذي وُلد بقاعدة عسكرية لأب عسكري وقضى نصف حياته في المؤسسة العسكرية، وظيفته كانت غريبة بعض الشيء، هو ضابط شرطة داخل الجيش، مسئول عن تعقب ومطاردة ومواجهة ضباط وجنود لا يجمعهم سوى شيء واحد مشترك وهو حقيقة أنهم جميعًا مدربون للقتل.. يستقيل ريتشر من الجيش لأنه يقرر فجأة أنه يريد تعويض كل ما فاته في حياته، ويصبح ترحاله وتجوله حرًّا بلا قيود، متنقلًا من بلد لأخرى، مغامر هذا العصر الحديث، قادمًا من سلالة شيرلوك هولمز وارسين لوبين وجيمس بوند، لكن هناك شيء آخر يجب أن نعرفه بشأن ريتشر، هو أنه لا يؤمن بالنظام القضائي ويمتلك حس عدالة خاص به، البعض يعتبره محققًا خاصًا وآخرون يرون أنه دومًا في المكان الخاطئ بالتوقيت الخاطئ، هو يعتقد أنه يجذب المشاكل بطاقة ما يمتلكها، لكن في نهاية الأمر فإن جاك ريتشر رجل

يطبق العدالة بطرقه الخاصة.. ويمتلك عقلًا متقدًا وطرقًا استنباطية مبهرة تساعده في حل القضايا الغامضة التي يقوده حظه إليها خلال ترحاله، والرواية الماثلة بين أيديكم الآن قد حازت على تقييمات عدة من نقاد وقراء تشيد بأنها أفضل رواية لجاك ريتشر.. أو من أفضل رواياته على الأقل..

أمامك رحلة خاصة جدًا من الأدرينالين والتشويق، لقد انتهيت للتو من تلك الرحلة فور قيامي بترجمة تلك الرواية والآن قد حان دورك، هل أنت مستعد؟

خالد أمين

الفصل الأول

المنتحرون بالقنابل لهم صفة مميزة جدًا، وهي أنه بإمكانك تمييزهم بسهولة، بعصبيتهم وتوترهم وحقيقة أن تلك مرتهم الأولى، نعم، يمكن التعرف بسهولة على شخصٍ يحمل قنبلة ويوشك على تفجير نفسه وكل من حوله، خصوصًا لو كان أحدهم يجلس أمامك في القطار، مثلما يجلس أمامي في اللحظة الراهنة.

لقد تعلمت الكثير عن المنتحرين بالقنابل إبان فترة تدريبي مع المخابرات، حيث لقّنوننا في فترة التدريب أن هناك علامات يجب أن نبحث عنها دومًا، لغة الجسد، الحركات النفسية، فكلها خطوات آلية رتيبة يمكن تتبُّعها، أشياء قابعة تحت مظلة "دلالات السلوك".. وخلال فترة عملي كمحقق جنائي في الجيش، بالأخص في مرحلة تنقلاتي لمناطق الحرب، لطالما كنت يقظًا وأبحث بعيني عن أي إشارة لمنتحر بالقنابل.. وها أنا ذا بعد مرور عشرين عامًا، لا زلت أمتلك تلك العادة التي أصبحت جزءًا من لاوعيي، كلما كنت في زحام تجدني أبحث بعيني تلقائيًا عن أي من الإشارات الخاصة بمفجري القنابل.. وأنا أطبق في الوقت ذاته قاعدة المخابرات القديمة "انظُر ولا ترَ، أصغِ ولا تسمع".. بمعنى آخر دع التفاصيل تظهر أمام عقلك من تلقاء نفسها.. وكلما طبقت تلك القاعدة كلما زادت فرصة نجاتك.

إن اللائحة التي تحتوي على علامات التعرف على من يفجرون أنفسهم بالقنابل تتكون من اثنتي عشرة علامة..

العلامة الأولى: لو كان المشتبه به رجلًا.. فيجب أن تبحث عن بشرة داكنة في نصف الوجه العلوي، هذا لو افترضنا أن المفجر من ذوي اللحية، فهو في الأغلب سيحلق لحيته ليندمج وسط ضحاياه قبل التفجير، لكني لم أكن مهتمًا بلحيات الوجه في تلك اللحظة، لأن الشك كان في امرأة.

كنت أجلس بعربة داخل قطار الأنفاق، في نيويورك، وهو القطار المتجه لضاحية ليكسيجنتون في أعلى المدينة، والساعة كانت في تمام الثانية صباحًا.. أما عربة القطار كانت شبه خالية عدا خمسة ركاب آخرين بخلافي.

عادة ما يشعر بالمرء بتقارب شخصي مع من حوله عندما تكون عربة القطار ممتلئة، أضف لهذا أنها تبدو أقل حجمًا، لكن العكس يكون في حالة قلة عدد الركاب، حينئذ تبدو عربة القطار وكأنها كبيرة وتشعرك بالوحدة، وأضواء العربة تبدو أكثر دفئًا وسطوعًا في الليل، رغم أنها نفس الأضواء المستخدمة بوضح النهار، رقم عربة القطار كان ٧٦٢٢، كيف عرفت ذلك؟ لأني سبق أن سافرت بنفس القطار والعربة بينما كان يجلس جواري رجل مهووس بالقطارات - يتحدث عنها بنفس الحماسة التي يتحدث بها المرء عن النساء أو الرياضة - وقد ظل يفعل ذلك لمدة ست محطات متتالية، فعرفت منه حينذاك رقم العربة، بل وعرفت نوعها أيضًا، وكونها العربة الأحدث في قطارات أنفاق نيويورك، فقد صنعتها شركة كواساكي اليابانية وشحنتها للولايات، حيث تم تخزينها في شارع ٢٠٧ قبل نقلها واختبار كفاءتها في شارع ١٨٠، كما أن

سرعتها قد تصل لمائتي ألف ميل دون إحداث صخب أو ضوضاء، ونظام صوتها الآلي يعطي التعليمات بصوت ذكوري ويدلي بأية معلومات أخرى بصوت أنثوي، بل عرفت أن الشركة اليابانية زعمت أن تلك مصادفة غير مقصودة، لكن حقيقة الأمر أن المصنعين شعروا أن التفرقة بين الأصوات بتلك الطريقة له تأثير نفسي مهم لجذب انتباه الركاب وضمان طاعتهم، علمت أيضًا أن حمولة كل عربة قد تصل لأربعين راكبًا جالسًا و١٤٨ شخصًا واقفًا، عرفت كل هذا من الشخص المخبول الجالس جواري في رحلة الست محطات من قبل، فقد كان ملمًّا حقًّا بالقطارات، أما ما عرفته بنفسي هو أن لون المقاعد البلاستيكية مائل للأزرق كلون السماء في نهاية موسم الصيف، أو كزي طاقم الطيران العسكري البريطاني، وعلى جدران العربة استقرت بعض رسومات "الجرافيتي "والملصقات الإعلانية.. بينما كان أحد تلك الملصقات خاصًّا بشرطة نيويورك ويقول:"لو رأيت شيئًا.. لا تسكت عنه".

كانت أقرب راكبة لي هي امرأة إسبانية تجلس وحيدة على أريكة فارغة، بينما تبدو مرهقة وتعاني من الحر، لها جسد ضئيل وعمرها يتراوح بين العقد الثالث والرابع، كما تحمل معها حقيبة بقالة، وتجلس شاردة وهي تحدق عبر النافذة الماثلة أمامها، أما الراكب التالي فقد كان رجلًا يجلس وحيدًا على أريكة أخرى على بُعد عدة أمتار، شعره أسود، أسمر البشرة، ويبدو كرجل مرهق من الطقس الحار والعمل، فهو رجل في نهاية يومه، يرفع قدميه وينحني بجسده للأمام، لم يكن نائمًا لكنه اقترب بشدة من أن يكون نائمًا، جسده

يهتز كل حين وآخر مع حركة القطار، وبينما يبدو وكأنه في الخمسين من العمر، إلا أن ملابسه لا تناسب عمره، فقد كان يرتدي سروال جينز وقميصًا صيفيًا واسعًا، عليه اسم لاعب كرة، لم أتعرف على اسم اللاعب، أما الراكب الثالث فقد كانت امرأة تبدو وكأنها من جنوب إفريقيا، تجلس على اليسار جوار باب العربة، وحالها كحال أول راكبين ؛ إذ تبدو مرهقة، وقد انعكست أضواء العربة على بشرتها السمراء لتصبح رمادية، ترتدي فستانًا مزدهرًا بالألوان وتجلس مغمضة العينين، الحقيقة أني أعرف نيويورك جيدًا، ودائمًا ما أقول إني مواطن ينتمي للعالم وعاصمة هذا العالم -بالنسبة لي- هي نيويورك، نعم أنا أعرفها مثلما يعرف البريطانيون لندن أو يألف الفرنسيون باريس ؛ ولذا بإمكاني تخمين أن هؤلاء الموظفين الثلاثة عائدون لشققهم بعد انتهاء نوبتهم، ربما يعملون في خدمة المطاعم أو مجلس المدينة، أو يعملون في التنظيف أو التوصيل، ربما يتجهون إلى برونكس أو خليج بيلهام، ويأملون في الحصول على قسط من النوم المريح قبل تكرار كل شيء في اليوم التالي.. لكن الأمر مختلف مع الراكب الرابع والخامس.

فقد كان الراكب الخامس رجلًا عمره يقارب عمري، يجلس أمامي مرتديًا ملابس ليست رخيصة، كان مستيقظًا وفي حالة تركيز تامة، وقد ذكرتني عيناه بعيني لاعب البيسبول وهو يراقب الكرة، ويحسب مكان وقوعها، ربما أنه رجل يفرط التفكير في شيء حدث له أو شرب الكثير من القهوة في ذلك اليوم.. لكن الراكب الذي كنت أتابعه كان رقم أربعة..

"لو رأيت شيئًا ما.. لا تسكت عنه".

فقد كانت امرأة تجلس في أقصى يمين العربة، وحيدة تمامًا، منعزلة، وعلى يسارها الرجل صاحب عيني لاعب البيسبول، امرأة بيضاء البشرة، في أوائل الأربعينيات لها شعر أسود ناعم داكن بطريقة جعلتني أشعر أنه مصبوغ وليس طبيعيًا، كانت ترتدي الأسود، ورغم أن الراكب الشبه نائم كان يحجب الرؤية بيني وبينها بشكل طفيف إثر جسده المائل، إلا أنني استطعت رؤيتها رغم ذلك بشكل واضح بما فيه الكفاية ليجعلني أرى كل العلامات التي تتضمنها لائحة المخابرات، وطبقًا لتلك اللائحة، فقد كانت هذه المرأة ممن ينتحرون بتفجير القنابل.

الفصل الثاني

قمت بإبعاد تلك الاحتمالية التي تدور داخل عقلي على الفور، ليس لأنها امرأة، كلا، بل لأن التوقيت كان خاطئًا للغاية، نعم، فإن قطار الأنفاق سيمثل هدفًا ممتازًا للإرهابيين، والقطار رقم ستة سيصلح كهدف مثل غيره من القطارات، ولكن دعك من كل هذا ومن حقيقة أنه يمر بالمحطة المركزية، فكما قلت سابقًا إن التوقيت خاطئ ؛ لأنه غير مزدحم، فلو كنتَ ستفجر قطارًا عليك بفعلها في الثامنة صباحًا أو السادسة مساء، في أوقات الزحام ؛ لأنه حينئذ ستجد مئات الموتى والجرحى، وسيعم الفزع المنشود، سيكون هناك حريق ضخم وحالة رعب وعربات إطفاء تتسبب في زحام مروري، لكنها الآن الثانية صباحًا وهذا توقيت خاطئ لمفجر انتحاري كي يقوم بعمله داخل عربة قطار بها ستة ركاب، مع حقيقة أن المحطة المركزية خالية تمامًا اللهم إلا عدد من المتشردين فحسب.

كنت مستغرقًا في أفكاري عندما توقف القطار عند محطة "آستور"، بينما انفتحت الأبواب ولم يدخل أو يخرج أحد، ثم انغلقت مرة أخرى ليواصل القطار رحلته، وحينها عدت لأفكاري.. وأن كل شيء متعلق بتلك المرأة يقودني لاستنتاج أنها مفجرة انتحارية، الشيء الأول البديهي هو ملابسها غير المتناسقة، فأنا أعلم بشأن تطور الأحزمة الناسفة وأنه يمكن ارتداؤها الآن أسفل السترات والقمصان دون ملاحظتها، فقط عليك أن تقوم بطيها جيدًا عدة مرات، ثم أحكم غلقها حول

خاصرك، وقم بوضع "الديناميت "بحرص مع التأكد من أن حامل الكتف مربوط جيدًا بالحزام، وارتداؤك لسترة ثقيلة لإخفاء الحزام الناسف، وهو ما يعيدني لمسألة الملابس غير المتناسقة، فنحن في سبتمبر أي أن الجو شديد الحرارة، فأنا مثلًا أجلس مرتديًا قميصًا صيفيًا، بينما هي - الراكبة رقم أربعة - ترتدي سترة سوداء كبيرة وثقيلة، مغلقة بإحكام حتى تكاد ياقتها أن تغطي ذقنها.. وحينها مر الملصق الحكومي في ذهني مرة أخرى "لو رأيت شيئًا، لا تسكت عنه".. فتلك كانت العلامة الأولى، الملابس الثقيلة لإخفاء الحزام الناسف، أما العلامة الثانية فلم تكن قابلة للمعاينة هنا، وهي "السير كإنسان آلي".. حيث إنه بإمكانك تمييز المفجر الانتحاري في المطارات ومحطات القطار من طريقة سيره في الأماكن المزدحمة عامة، ربما أمام كنيسة أو مسجد، فستجده يسير وسط الزحام بطريقة آلية، ليس لأن عقلهم محموم بفكرة الموت، ولكن لأنهم يحملون حزامًا حديديًا ثقيلًا محملًا بالديناميت حول خاصرهم، وهذا ما يثقل حركتهم ويؤلم كتفهم بسبب حامل الحزام، ولأنهم مخدرون أيضًا.. نعم.. أغلب المنتحرين بالقنابل يتناولون الأفيون على شكل علكة، نحن نعلم هذا لأنه عندما ينفجر الحزام الناسف فإن قوته التفجيرية تطيح بالجسد بشكل كامل ؛ مما يتسبب بانفصال الرأس عن الجسد، وقد تعلمنا إبان التفتيش في مسرح الجرائم بالبحث عن رأس مقطوع بشكل كامل وأنيق، لو وجدناه فهذا يزيد من احتمالية وجود مفجر انتحاري ويقلل من احتمالية أن التفجير كان بواسطة سيارة ملغمة أو

صاروخ جوي، وطبعًا وجود الأفيون داخل الفم يؤكد الشك ويحوله ليقين، فالمرء بحاجة لأن يخدر يعقله مهما كانت قناعاته وهو موشك على تفجير نفسه والمئات من حوله، تلك حقيقة نفسية أخرى.

توقف القطار عند محطة "يونيون "دون أن يترجل أحد منه، أو يدلف أحد إليه، بينما اندفع هواء ساخن للداخل مع انفتاح الأبواب التي انغلقت مرة أخرى قبل أن ينطلق القطار مسرعًا.. والآن مرورًا من العلامة الثالثة للسادسة - بعد الملابس الثقيلة والسير مثل الروبوت - سنجد أننا أمام علامات بديهية مثل التعرق، السلوك العصبي، نفاد الصبر الممزوج بالتشتت، وفي رأيي الخاص فإن التعرق ناجم عن ازدياد السخونة في الأعصاب بسبب الملابس الثقيلة والديناميت بالطبع، فلا يجب أن ننسى كون الديناميت عبارة عن خشب ممزوج بالنيتروجليسرين في هيئة قالب طويل يحك في معدتك، وأنه هناك عشرات من تلك القوالب تحيط بجسدك، وبناء عليه فإن التعرق عرض جانبي واضح للأمر السابق، لكن العصبية ونفاد الصبر هما المؤشرات الأكثر أهمية، فهؤلاء القوم يمرون بآخر لحظات حياتهم، وتلك اللحظات تكون شديدة الغرابة، فهم يخافون الألم القادم، والأفيون يسري بداخلهم، كما أن التوتر يحيط بهم، بعضهم يؤمن بشكل تام أو يتشكك قليلًا في الأسباب التي تدفعه للقيام بالأمر، بعضهم يفكر في عائلته، بعضهم يدرك أنه - كعادة المنتحرين - قد تورط أكثر من اللازم ولا يوجد سبيل للتراجع الآن، فالخطب الحماسية شيء والتنفيذ شيء آخر، وبالتالي فإن

تلك الأفكار المقلقة تسبب لهم ذعرًا داخليًا ينتج عنه العصبية ونفاد الصبر.. والراكبة رقم أربعة كانت تتوهج بالعصبية ونفاد الصبر والتعرق، أضف لهذا ملابسها الثقيلة، فهي لم تتحرك لكن وجهها يبدو آليًا كذلك، فقد كانت تبدو كامرأة في لحظات حياتها الأخيرة مع اقتراب القطار من نهاية الخط.. وهناك طبعًا النقطة السابعة، ألا وهي التنفس.. حيث كانت تتنفس بشكل بطيء، تزفر من فمها للأسفل بعد سحب نفس عميق من أنفها، كأنفاس امرأة تلد للمرة الأولى، أو أنفاس شخص يعاني من صدمة ويحاول تهدئة نفسه، أو كأن أنفاسها هي الشيء الوحيد الذي يحول بينها وبين الصراخ بخوف وذعر..

شهيق..

زفير..

بالنسبة للنقطة الثامنة فلا أحد يعلم سببها، لكن أشرطة المراقبة أوضحت أن المفجرين الانتحاريين في المعتاد يحدقون في الفراغ بشرود كبير، فهم ينظرون أمامهم دائمًا.. ربما تلك هي طريقتهم الخاصة في حجب أفكارهم عما يوشك أن يحدث، كطفل يغمض عينيه ليقنع نفسه أن المدرس لن يضربه وأن كل شيء على ما يرام، فهم لا يرون أحدًا من ضحاياهم المستقبليين ولا أحد يراهم، لا أحد يعلم سبب التحديق لكن كلهم يفعلون هذا.. والراكبة رقم أربعة كانت تحدق في الفراغ أمامها.. وتتجنب النظر إلينا جميعًا حتى كادت تتسبب بكسر في زجاج النافذة من كثرة التحديق به.. تبًا! إن كل العلامات تنطبق عليها حتى الآن ؛ لذا تحركت

في مقعدي، وغيّرت وضعيتي في الجلوس، ثم توقفت.. لكن كيف؟ فالتوقيت خاطئ.. وفكرة تفجير انتحاري في الثانية صباحًا لهو أمر شديد السخافة، لكني عاودت النظر إليها وتحركت.. لأن النقطة التاسعة ووصولًا للنقطة الحادية عشرة كانوا حاضرين وظاهرين، وواضحين بشدة.. وهم النقاط الأكثر خطورة..

الفصل الثالث

النقطة التاسعة هي التمتمة بصوت خافت، فكل الهجمات الانتحارية التي تم تسجيلها في أشرطة المراقبة أوضحت أن المفجر الانتحاري كان يتمتم بأدعية صامتة قبيلة التفجير، والراكبة رقم أربعة كانت تهمس لنفسها مرارًا وتكرارًا بصوت خفيض، بينما عيناها تحدقان أمامها، ربما تطمئن نفسها بوعد الحياة الأبدية، وقد حدث كل هذا بينما يتوقف القطار عند محطة شارع ٢٣، دون أن يأتي أو يذهب أحد، فقد طالعت عيناي الإشارات الجغرافية للمحطات، شارع ٢٢، المتنزه، الركن الشمالي، والجنوبي، وبدت لي طرق مانهاتن الفرعية أكثر جاذبية من قطار الأنفاق في تلك الآونة..

بقيت في مقعدي..

انغلقت الأبواب..

تحرك القطار..

النقطة العاشرة كانت تواجد حقيبة كبيرة.

إن الديناميت مفجر فعّال طالما أنه لا زال حديث العهد، وهو لا ينفجر عن طريق الخطأ، وإنما لا بد من استخدام وسيلة تفجير، زر تضغط عليه، وهذا الزر بحاجة لموصل كهرباء، تلك هي وسيلة تفجير الديناميت المعاصرة بدلًا من استخدام الضاغط الكبير في أفلام رعاة البقر القديمة، فلن يستخدم أحدهم جهاز تفجير أشبه بتليفون قديم كبير في مثل هذا التوقيت ؛ لذا فإن جهاز التفجير الصغير ذا الموصل

الكهربائي أكثر فاعلية، لكن جهاز التفجير هذا لا يزال في حاجة لحقيبة كبيرة بسبب الأسلاك التي ستصله بالحزام، والراكبة رقم أربعة كانت تحمل حقيبة سوداء كبيرة، تحملها أمام كتفها وتحتضنها بيدها الأخرى.

يتوقف القطار في محطة شارع ٢٨، لا أحد يخرج ولا أحد يدخل.. الأبواب تنغلق.. القطار يواصل رحلته.. النقطة الحادية عشرة كانت بعنوان"الأيدي في الحقيبة"، فمنذ قرابة العشرين عامًا كانت النقطة الحادية عشرة إضافة حديثة لعلامات التعرف على مفجر انتحاري، لكن الأشياء تتغير، الفعل ورد الفعل، وقد كان التغيير ناجمًا عن رد فعل بسبب ما فعله بعض من العامة الشجعان عند التعرف على مفجر انتحاري، فالطبيعي أنك لن تركض فور إدراكك أن هناك مفجرًا انتحاريًا يقف جوارك؛ لأن هذا لن يُجدي نفعًا، فلا يوجد شخص سريع بما يكفي للهروب من محيط انفجار قنبلة، وإنما ما فعله الناس من قبل هو الانقضاض على المفجر واحتضانه بطريقة "حضن الدب"، هل تعلم الطريقة التي يحضن بها الدب فريسته أليس كذلك؟ نعم، هي نفس الطريقة، بأن تكبل ذراعهم، تمنع أيديهم من الوصول لجهاز التفجير، والحقيقة أنه قد تم إيقاف عدد من الهجمات بتلك الطريقة، وإنقاذ عدد كبير من الحيوات، لكن المفجرين - الذين يمثلون رد الفعل - تعلموا كيفية اتقاء أنفسهم من تلك الوسيلة المانعة، ولذا ظهرت نقطة"وضع اليد داخل الحقيبة طيلة الوقت".. فتلك الطريقة تحبط من فاعلية "حضن الدب".. لأنك فور أن تحتضن الشخص الانتحاري سيفجر نفسه ومعه كل من

حوله.. والراكبة رقم أربعة كانت تضع يدها داخل حقيبتها طوال الوقت..

نظرت إليها وأخذت نفسًا عميقًا مع توقف القطار عند محطة الشارع ٣٣، بينما رأيت راكبة مترددة تدخل العربة المجاورة لنا، لم يأتِ أحد لعربتنا، ولم يخرج منها أحد، وحين التفت ونظرت عبر النافذة القابعة خلف رأسي رأيت الراكبة الجديدة تجلس في مقعد مقابل لمقعدي، أردت أن أشير إليها بالرحيل، لكن الفرصة لم تتسنَّ لي؛ لأنها لم تنظر باتجاهي، وفي الأغلب كانت ستتجاهل إشارتي لأنها لن تفهم مقصدي، نحن في نيويورك، والتلويح بجنون شيء معتاد هنا.

كانت الأبواب لا تزال مفتوحة، ولثانية فكرت أن أدفع بكل الركاب بجنون خارج العربة، لكني لم أفعل هذا، حيث سيمثل المشهد كوميديا سوداء بلا نفع، سيندهش الجميع ولن يفهموا، كما أنه ربما تكون هناك عوائق لغوية، فأنا لا أعرف مرادف كلمة قنبلة بالإسبانية، ربما "بومبا".. أم أن تلك الكلمة تعني خزانًا صغيرًا؟ لا أعرف، لكن فكرة أن رجل مجنون يصيح في العربة لن تفيد أحدًا في شيء، آه انتظروا! إن معنى كلمة خزان صغير بالإسبانية هي "بومبيلا".. لقد تذكرت على ما أظن.. ولكن أضف لعدم إجادتي للإسبانية هو جهلي باللغة البلقانية واللاتينية ومرادفات جنوب إفريقية، فربما تتحدث المرأة التي ترتدي الفستان اللغة الفرنسية، لكني أجيد الفرنسية رغم كل شيء.. وقد تمتمت لنفسي بالفرنسية جملة: "هناك قنبلة على متن القطار من فضلك ارحلي"، ورغم علمي

أنهم قد يجيدون الإنجليزية إلا أنني كنت أريد تحذيرهم بلغات لن تفهمها المفجرة الانتحارية، لكن ما لو فهمت وتتبعتنا؟.. لذا فإن فكرة تحذيرهم لن تكون مفيدة.

انغلقت الأبواب وتحرك القطار.. حدقت بالراكبة رقم أربعة، وتخيلت إصبعها الرشيق يلامس طرف جهاز التفجير، زر تم ابتياعه من محل"راديو شاك" في الأغلب، زر بريء يفقد نزاهته عندما يتم تركيبه بالجهاز، لن يكون غالي الثمن، ربما دولار أو اثنان، تخيلت عددًا من الأسلاك، أحمر وأسود، يحيطون بجهاز التفجير، وجهاز توصيل الكهرباء ينتهي بأطرافهم، تخيلت الديناميت الذي يحيط بالحزام، وكم سيكون تأثيره مهولًا بحق في مكان مغلق مثل عربة القطار تلك، حيث سينهار كل شيء كارتطام عدد من الرصاصات بألواح من الثلج، ستنحرف العربة عن مسارها ويتطاير الزجاج مع الأشلاء البشرية، لذا واصلت التحديق بها، ولكن لا توجد طريقة للاقتراب منها، فأنا بعيد للغاية، وإصبعها على وضع استعداد بالفعل فوق جهاز التفجير، فهي مستعدة للرحيل، تعبير وجهها القانط يقول هذا بوضوح لأي شخص يلاحظها، أما أنا لم أكن مستعدًّا..

اهتز القطار يمينًا ويسارًا إبان رحلته، وأصدر الهواء بالخارج صوتًا يشبه السوط من سرعة القطار، هل هي متجهة لمكان ما؟ هل يمر القطار أسفل مبنى مهم؟ هل تنتظر لحظة مرور القطار أسفل المبنى لتفجر كل شيء؟ لا أعتقد ذلك، إذن ما هو الهدف من تفجير انتحاري في الثانية صباحًا؟.. هل

هي ذاهبة لنادٍ ليليّ؟ ستفجر نفسها هناك؟.. ربما، لكننا مررنا بمحطات عدة مجاورة لنوادٍ ليلية ونوادي تعرٍّ، وهي لا تزال هنا..

واصلت النظر إليها..

حدقت بها بشدة بالغة..

وشعرت هي بنظراتي..

استدارت برأسها ببطء، بنعومة، بطريقة آلية مبرمجة.. وحدقت بي بدورها..

وحينها تلاقت أعيننا..

ثم تغير تعبير وجهها..

لقد أدركت أني أعرف..

الفصل الرابع

تبادلنا النظرات لعشر ثوانٍ كاملة.. ثم وقفت، حافظت على توازني مع سرعة القطار وتحركت باتجاهنا، أخذت خطوتين، سأكون ميتًا على الأرجح بعد أربع خطوات أخرى، لا نقاش في تلك الاحتمالية المؤكدة، أنا رجل ميت يمشي بالفعل، ولن يشكل الأمر فارقًا لو حاولت الوصول إليها، لذا سرت نحوها، مررت بجوار المرأة الإسبانية، وعبورًا بالرجل العامل، والمرأة الإفريقية لا تزال مغمضة العينين على يساري، كنت أستند على أعمدة القطار، واحد تلو الآخر وأنا أتحرك باتجاهها، وهي تحدق بي، يدها في حقيبتها، خطوة.. ثانية.. ثالثة.. رابعة.. كنت على بعد عدد محدود من الخطوات الآن.. قريبًا بما يكفي كي تسمعني، قلت لها: أتمنى أن أكون مخطئًا بشأنك حقًّا.

لا رد، تتمتم بشفتيها، يدها داخل حقيبتها تتحرك بسلاسة..

- أنا بحاجة لرؤية يدك.

لا رد!

قلت لها كاذبًا: أنا شرطي.. بإمكاني مساعدتك.

لا رد!

- يمكننا التحدث في الأمر.

لا رد!

تخليت عن أعمدة القطار وأرحت يديَّ جوار جسدي، هذا

سيجعلني أقل تهديدًا بالنسبة إليها، مجرد رجل يقف أمامها، حافظت على توازني بالقدر الذي سمح به القطار، ظللت واقفًا دون فعل شيء، فلا توجد خيارات عدة أمامي، هي بحاجة لجزء من ثانية فحسب لتنهي كل شيء، وأنا بحاجة لوقت أكثر من هذا، لا توجد وسيلة لمحاولة جذب حقيبتها بعيدًا عنها، لأنها تلفها جيدًا حول نفسها، وبالتالي سينتهي بي الأمر وأنا أحاول جذب الحقيبة فقط لترتد إليها مرة أخرى، وهناك طبعًا مسألة الوقت، الجزء من الثانية الذي ستضغط خلاله الزر لينفجر كل شيء فور تحركي، ربما يجب عليّ قلب الحقيبة، ليسقط الجهاز منها، لكنها محكمة الغلق ولا يوجد بها سوى الفتحة الصغيرة الكافية لإدخال يدها، ربما أجذبها هي شخصيًّا من سترتها الثقيلة، وأحاول قطع الأسلاك، لكن كل تلك الاحتمالات الدائرة بذهني ستنتهي فورًا بضغطها للزر، لا يوجد أمل..

ماذا لو باغتها بضربة فوق أم رأسها تفقدها الوعي، لكمة واحدة سريعة ومركزة، لكن - رغم سرعة لكمتي - بعد المسافة وحركة القطار ستفسدان وجهة اللكمة، وإصبعها اللعين سيضغط الزر..

سألتها ببطء: هل يمكنني أن أجلس جوارك؟

- كلا، ابق بعيدًا عني.

صوتها محايد، بلا مشاعر، لا توجد لكنة واضحة، لهجتها أمريكية سليمة، لم تبدُ لي مخبولة أو فاقدة لصوابها، وإنما زاهدة في الحياة فحسب، وكئيبة وخائفة، كانت تحدق

فيّ بحدة بالطريقة التي كانت تنظر بها من النافذة وتحدق بالفراغ، لكنها تبدو يقظة ومنتبهة تمامًا، شعرت بالعجز التام، أنا لا أستطيع فعل شيء، لا أستطيع الحركة حتى!

مجرد رجل ميت يمشي!

قلت لها: الوقت متأخر.. عليك الانتظار.. ربما ست ساعات أخرى.

لا رد!

- سيكون الأمر مجزيًا أكثر بعد ست ساعات.

تحركت يدها داخل حقيبتها، فقلت لها: ليس الآن.

لا رد!

- أريني يدًا واحدة على الأقل، أنت لست بحاجة ليديك الاثنتين داخل الحقيبة.

أبطأ القطار من حركته، فتأرجحت في مكاني، للأمام والخلف، ومددت يدي بسرعة لأستند على العامود بينما كان الملمس المعدني ساخنًا، هل وصلنا للمحطة المركزية؟.. كلا، نظرت من النافذة متوقعًا أضواء ساطعة فوجدت سوادًا كبيرًا، لقد توقفنا داخل نفق ما، صيانة سريعة أو لانتظار إشارة من المحطة لمواصلة الرحلة، توقف روتيني لن يستغرق وقتًا..

وحينها عاودت النظر إليها.

- أريني يدًا واحدة.

لم ترد، وإنما كانت تحدق بخاصري لسبب ما، عندما تأرجحت ارتفع قميصي الصيفي لأعلى ليكشف عن الندبة أسفل معدتي، ندبة حصلت عليها بسبب شظية قنبلة في بيروت منذ وقت طويل، وقد كنت بعيدًا جدًّا عن الانفجار حينئذ، أما الآن فأنا لست بعيدًا..

اقتربت أكثر منها.. رفعت نظرها عن خاصري ونظرت إلي، لا أريدها أن تسألني عن كيفية إصابتي بتلك الندبة، الكل يسألني عنها عندما يرونها، لكني لا أريد لها أن تسألني، لأني لا أبغي الحديث معها بشأن القنابل، ليس معها هي..

- فقط أريني يدًا واحدة.

- لماذا؟

- أنت لست بحاجة ليديك الاثنتين بالداخل.

- وأي نفع سيجديك هذا؟

- لا أعلم.

لم أكن أمتلك أدنى فكرة عما أفعله في الحقيقة، أنا لست بمتفاوض مع مختطفي الرهائن، لقد كنت أتحدث من أجل غاية الحديث فحسب، وتلك في العادة ليست من صفاتي الشخصية؛ وعليه لم أكن بارعًا في تلك المحادثة، ورغم أنني في المعتاد من النوع المنعزل الصامت.. إلا أنه إحصائيًّا سيكون من المستبعد أن يتم تفجيرك وأنت في منتصف جملة تقولها، ربما لهذا كنت أتحدث.. حركت المرأة يديها، ثم

أخرجت يدها اليسرى ببطء، يد صغيرة وشاحبة، بها عروق بارزة وواضحة، أظافر بيضاء نظيفة، قصيرة، لا يوجد خاتم زواج، أو خطبة، حركت يدها لتريني الجانب الآخر منها، كفها كان أحمر، لأنها كانت تتعرق ومنفعلة، "شكرًا".. قلت لها ببطء وأنا أحدق بعينيها.

أراحت يدها كأنها جزء مستقل عنها لا يعنيها في شيء.. أعدت وضع قميصي الصيفي داخل سروالي وتابعت: والآن أريني ما الذي يوجد داخل الحقيبة.

- لماذا؟

- أنا أريد رؤيته فحسب، أيًّا كانت ماهيته.

لم تردا

لم تتحرك!

- لن آخذه منك، أعدك بهذا، أريد رؤيته فقط.. يمكنك تفهم هذا أليس كذلك؟

تحرك القطار ببطء، بطريقته المباغتة قبل أن يعود لسرعته المستقرة.. فواصلت حديثي معها.

- من حقي أن أراه على الأقل، ألا توافقيني؟

بدا تعبير من عدم الفهم على وجهها.. ثم ردت قائلة: لا أفهم لماذا من حقك أن تراه.

- حقًّا؟

- نعم، هذا ليس من حقك.

- لكني متورط معك في الأمر الآن، ربما يمكنني أن أعاينه لأرى إن كان فعّالًا، لأنك بحاجة لفعل الأمر لاحقًا وليس الآن، في وقت مزدحم كما قلت لك.

- لكنك قلت إنك شرطي.

تجاهلت الملحوظة وأردفت: يمكننا معالجة تلك المسألة سويًا، يمكنني مساعدتك.

ونظرت بطرف عيني من النافذة، القطار يقترب من أضواء ساطعة، المحطة المركزية، الهدف... نظرت إليها، لأجد يدها الأخرى ترتجف بشدة داخل الحقيبة.. بينما تعض شفتيها بتوتر.. وعصبية بالغة على وجهها.. ثم سحبت يدها وسقطت الحقيبة، ورأيت ما الذي يتواجد في يدها..

لم يكن جهاز تحكم عن بعد، أو جهاز تفجير..

كان شيئًا آخر تمامًا..

الفصل الخامس

كانت تحمل مسدسًا معدنيًا، وتصوبه اتجاهي، فوهته موجهة نحو أعلى معدتي، حيث كل الأعضاء المهمة والحيوية، المسدس من نوع روجر، أي عبارة عن ست طلقات، ساقية، من مشتقات ماجنم.٠٣٥٧، سلاح ناري كهذا كفيل بإحداث ثقب هائل بداخلي.. ولسوف يضيء جسدي بالكامل كشجرة عيد الميلاد..

ولكن رغم هذا كنت أقل قلقًا مما كنت عليه منذ ثوانٍ مضت، القنابل كفيلة بإبادة عدد لا بأس به من البشر في ثانية واحدة، أما المسدس يقتل شخصًا واحدًا في المرة الواحدة، والقنابل لا تحتاج لتصويب، كما أن يدها الصغيرة ورسغها الرقيق سوف يرتدون مع إطلاق الرصاصة، هناك احتمالية لا بأس أن تحيد الرصاصة عني، ربما ستغلق عينيها بينما إصبعها يعتصر الزناد، ومع المسافة الفاصلة بيننا تزايدت احتمالاتي في النجاة، ليس بشكل هائل لكنها تزايدت، ولو أخطأت التصويب لن يتسنى لها فرصة إطلاق الرصاصة الثانية؛ لأني سأتحرك بسرعة الفهد، هكذا كنت أفكر..

- هدئي من روعك.

قلت لها هذا كي أكون قد تفوهت بأي شيء فحسب.

ونظرت لأصابع يدها الملتفة حول السلاح.. هذا السلاح ساقية دوارة، وهو بحاجة لجذب الإبرة قبل اعتصار الزناد، هي تضع بالفعل إصبعًا على الإبرة وآخر ملتفٌّ حول الزناد.

- أنت لا تعرفينني يا امرأة، لما هذه الضغينة التي تحمليها اتجاهي؟ ضعي المسدس جانبًا ولنتحدث..

لم ترد، ربما رأت شيئًا ما، لم أكن أراقب وجهها بل يدها الآن، وأراقب حركة القطار كذلك، منتظر لحظة توقفه، الراكب المجنون إياه المحب للقطارات قد حكى لي أن هذا النوع من المعدن يزن ثلاثة وخمسين رطلًا بكل عربة، وبسرعة اثنين وستين ميلًا في الساعة، فإن توقف القطار سيتسبب بأرجحة وقصور ذاتي، تلك هي فرصتي.. تخيلت يدها ترتد مع توقف القطار ومحاولة قفزي مبتعدًا عن مرمى النيران، تلك هي فرصتي.. سألتني هي فجأة:

- من أين حصلت على ندبتك؟

لم أرد.

- هل تعرضت لطلق ناري؟

- كلا، قنبلة.

حركت المسدس لثانية، باتجاهها، ثم عاودت التصويب نحو الندبة تلك المرة..

القطار يبطئ من سرعته وهو يدخل المحطة المركزية..

لكننا لم نصل هناك..

لقد صوبت المرأة المسدس اتجاهي جيدًا، ثم حركت ذراعها مرة أخرى، اعتقدت أنها تستسلم، لكن استدارة المسدس توجهت بالكامل نحو رأسها، ورفعت ذقنها عاليًا بشمم وفخر

ثم جذبت الإبرة، بينما فوهة المسدس تلتصق بجلدها الناعم، واعتصر إصبعها الزناد، وانفجرت رأسها وهي لا تزال جالسة بمكانها..

الفصل السادس

لم تنفتح الأبواب فور توقف القطار، لم تنفتح لفترة طويلة، ربما أبلغ أحدهم عن الأمر في جهاز الطوارئ، ربما سمع المحصل صوت الطلقة، أيًا كان السبب فقد ظلت الأبواب مغلقة، لا بد أنهم تلقوا تعليمات كتلك إبان تدريباتهم، ففي حالة الطلق الناري يجب إحكام غلق الأبواب لأننا لا نريد لمطلق رصاص مخبول أن يعدو في الأرجاء وهو يردي الجميع قتلى، حبسه في القطار هو خيار أفضل بالنسبة إليهم، لكن ليس بالنسبة لي وأنا أنتظر داخل عربة القطار، لأن آثار المسدس الماجنم كانت سيئة للغاية، لقد اخترعوا هذا السلاح عام ١٩٣٥، وماجنم تعني كبيرًا باللاتينية، إذ يحتوي على رصاص أكبر وأثقل بقوة دفع رهيبة، خصوصًا عندما تقترب المسافة مثلما اختارت الراكبة رقم أربعة أن تفعل، فقد تتسبب رصاصة هذا السلاح بإحداث تجويف هائل في الجسد، كحفار حديث وستجد شظايا العظام مختلطة بالدماء وبقايا الجلد يتساقطون من هذا التجويف، كقطعة موز يتم تقطعيها من الداخل قبل عصرها لتتحول إلى سائل، وهذا بالضبط ما حدث لرأس الراكبة رقم أربعة، لقد تحول رأسها بالكامل لجلد متساقط وعظام مهشم مزين بالدماء، لقد خرجت الرصاصة من أعلى رأسها لتظهر منه عظام بيضاء ودم أسود قانط، بينما تخشبت يدها وظل إصبعها متشنجًا كأنه يعتصر الزناد، أما المسدس فقد ارتد وسقط جوارها..

لا يزال صوت الرصاصة يرن بأذني محدثًا طنينًا هائلًا، بينما

شعرت بحركة من خلفي دون أن أسمعها، فقد شممت رائحة دماء المرأة ثم انحنيت للأمام وتفقدت حقيبتها، والتي كانت فارغة تمامًا، حيث فتحت سترتها وفتشتها، لكني لم أجد شيئًا، مجرد قميص أبيض قطني، والكثير من الدماء، فوقفت وأخذت نفسًا طويلًا، ثم وجدت جهاز الطوارئ الخاص بالعربة في الجدار، ضغطت عليه وتحدثت للمحصل قائلًا: انتحار بواسطة طلق ناري في العربة الأخيرة، نحن في أمان وكل شيء قد انتهى الآن.. لا يوجد تهديد حالي..

لم أرد الانتظار حتى وصول قوات التدخل السريع وفرق إبطال القنابل والقناصة ؛ لأن هذا سيستغرق وقتًا طويلًا..

لم يأتني رد من المحصل، لكنه تحدث إلينا جميعًا بواسطة مكبر الصوت بالعربات:

"يتم إعلام كل الركاب أن الأبواب ستظل مغلقة لمدة خمس دقائق بسبب حادثة جارية".

لقد كان يتحدث ببطء وبطريقة حمقاء، لا بد أنه يقرأ من كتيب التعليمات بينما يرتجف صوته خلال ذلك، تلفت حولي ملقيًا نظرة أخرى للعربة وجلست جوار الجثة التي كانت بلا رأس..

وطفقت أنتظر..

***

كان بإمكانهم عرض حلقات تلفزيونية كاملة لمسلسل بوليسي لكن وقت الانتظار لم يكن لينتهي في كل الأحوال،

وفي تلك الحلقات كان سيتم الانتهاء من تحليل عينة الحمض النووي، ورفع بصمات الأصابع، وعرض المشتبهين بهم، قبل التوصل للجاني ومطاردته والقبض عليه وعرض محاكمته بالكامل، لقد مر الكثير من الوقت وفي النهاية وصل ستة ضباط للمحطة، يرتدون سترات واقية للرصاص وخوذات على رءوسهم، ويشهرون أسلحتهم أمامهم، لا بد أنهم رجال المناوبة الليلية لقسم شرطة ١٤ بشارع ٣٥، حيث كانوا يركضون بمحاذاة القطار، بينما أنظر من النافذة لأرى جيدًا ما يحدث، رأيتهم يفتحون عربة تلو الأخرى ويفتشون ما بداخلها، فنحن داخل قطار ما بعد منتصف الليل ولا يوجد عدد غفير من الركاب، لن يستغرق التفتيش وقتًا حتى يصلوا إلينا.. وبالفعل وصلوا لعربتنا، رأيتهم ينظرون من النافذة ويرون الجثة والمسدس، تصلبت أجسادهم، وانفتحت أبواب عربتنا، ودخلوا إليها كالعاصفة، اثنان من كل باب، رفعت - مع باقي الركاب - أيدينا لأعلى في ردة فعل سريعة.. وقف كل شرطي أمام أحد الأبواب ليحجبه، وتحرك الثلاثة الآخرون صوب جثة المرأة، ما تبقى منها على أي حال، لم يتفقدوا نبضها، لم يحملوا مرآة صغيرة أسفل أنفها، ليتفقدوا تنفسها، جزء من السبب كان أنها لا تتنفس وهذا أمر واضح، الجزء الآخر هو أنها لم تعد تمتلك أنفًا، بينما تساقطت أحد كرات عينيها جوار جسدها الميت، ثم التفت أحد الضباط وسأل: ما الذي حدث هنا؟

ساد الصمت لوهلة، حيث ظل كل من المرأة الإسبانية والرجل ذي الزي الرياضي والمرأة الإفريقية صامتين، وكانوا

يجلسون متلاصقين في خوف يحدقون أمامهم.. مثل طفل يغمض عينيه، كما ذكرنا في النقطة الثامنة إياها.. لو أنني لا أستطيع رؤيتك، فأنت لا تستطيع رؤيتي.. كما ظل الرجل الأخير صامتًا أيضًا.. لذا قلت: لقد أخرجت مسدسًا من حقيبتها وأطلقت الرصاص صوب صدغها.

- فجأة دون مقدمات؟

- نعم.

- لماذا؟

- وكيف سيتسنى لي أن أعرف؟

- متى وأين؟

- عندما كنا نهم بدخول المحطة، لا أتذكر منذ متى.

بدا لي أن الشرطي يحاول هضم المعلومات، لقد خلع خوذته ووقف يفكر لثوانٍ، المسئولية الجنائية لقطار الأنفاق تقع على عاتق شرطة نيويورك، تلك قضيته بلا جدال، أومأ برأسه، وهو يتمتم انتحار بواسطة طلق ناري، ثم هز رأسه مرة أخرى وقال: حسنًا، من فضلكم اخرجوا من العربة بانتظام وبطء وانتظروا في المحطة، سوف نأخذ أسماءكم وعناوينكم وشهادتكم بعد قليل..

ثم أخرج جهاز اللاسلكي وسمعت صوت غمغمة مع الذبذبات، لا بد أنه يطلب الإسعاف أو شيئًا من هذا القبيل، أشار لنا الشرطي الأخير أن نقف واحدًا تلو الآخر وبدأنا في

الخروج من العربة، كان هناك عدد غفير من المتجمهرين، ورجال شرطة آخرون قادمون وعمال محطة، بعض الركاب الفضوليين، لمحت زي الإسعاف قادمًا من على بعد، ثم رأيت الشرطي - برتبة رقيب - الذي تخلص من خوذته يسير اتجاهي، وهناك شرطي يجلس على حدة مع كل راكب آخر لأخذ شهاداتهم صانعين قوقعة صغيرة النظام داخل فوضى المتجمهرين، توقف الرقيب أمامي وأشار لي أن أجلس قبل أن يقول: ما هو اسمك؟

- جاك ريتشر..

كتب الاسم ولم يزد حرفًا، وإنما عاد لرفاقه وظل ينظر لي كل حين وآخر فحسب، لا بد أنه ينتظر وصول أحد المحققين لمسرح الجريمة، ومرغمًا انتظرت بدوري..

الفصل السابع

المحقق كان امرأة..

وقد وصلت بمفردها لمسرح الجريمة، كانت ترتدي سروالًا قماشيًا طويلًا وقميصًا رماديًا بدا كقميص رجالي، لكنه لامع وأنيق رغم ذلك، وفوقه سترة صيفية خفيفة لا بد أنها تخفي سلاحها وأصفادها وما تحمله معها، كانت رشيقة وضئيلة الحجم، ولديها شعر أسود معقوص للخلف، ووجهها مستدير، لم تكن ترتدي مجوهرات، ولا خاتم زواج، وهي في أواخر العقد الثالث من العمر، كانت جذابة لدرجة أنها أعجبتني فور رؤيتها، كما بدت مسترخية، واثقة من نفسها، وودودة، أرتني شارتها وأعطتني بطاقة ذهبية عليها اسمها ورقمها، وبريدها الإلكتروني، اسمها تريسا لي، ليس تيريزا بس تريسا، لم تكن آسيوية، لكن ربما اسمها الأخير "لي "سببه زواج قديم من رجل آسيوي، أو ربما يكون اختصارًا لاسم مطول أكثر تعقيدًا.. سألتني: هلا أخبرتني ماذا حدث؟

كانت تتحدث بصوت دافئ ومتفهم، وحاجباها مرتفعان، بصوت وطريقة تنم عن مراعاة واهتمام، كأن كل ما يشغل بالها هو الصدمة الناتجة عن الحالة التي أمر بها الآن، كأنها كانت تقول: هل تستطيع إخباري؟ هل تستطيع أن تعيش تلك التجربة الفظيعة مرة أخرى؟

ابتسمت لها بإيجاز، بإمكاني المراهنة أني رأيت عددًا أكثر من القتلى والجثث الممزقة مما رأته هي، فالحقيقة أن رؤية

تلك المرأة بلا رأس في القطار ليست من أفضل مما رأيت لكنها ليست الأسوأ بالتأكيد، وحتى لو كانت محدثتي الآن شرطية في نيويورك وهو ما يعني أنها قد حصلت على نصيبها من التحقيق في جرائم القتل والانتحار فأنا واثق أني قد حصلت على النصيب الأكبر.. حكيت لها بالتفصيل ما حدث، فنظرت إليّ تيريسا لي بعدما انتهيت، وقد لمحت في عينيها أنها تريد الحديث عن اللائحة..

- لدينا نسخة من تلك اللائحة، من المفترض أنها سرية.

- تلك اللائحة عمرها عشرون عامًا، الكل لديه نسخة منها.

- أين رأيتها أنت؟

- إبان عملي.

- كيف ومتى؟

- فور أن تمت كتابتها.. لقد كنت ضابط شرطة في الجيش، مختصًا بالتحقيق في جرائم القتل التي تقع داخل المجتمع العسكري نفسه، أنت تعلمين ما أقصده، المشتبهين بهم دومًا كانوا ضباط جيش وجنود مارينز.. ثلاثة عشر عامًا كرجل شرطة عسكري، في وحدة ١١٠ للتحقيقات الجنائية، تنقلت حول العالم، ثم انهار الاتحاد السوفيتي وانتهت الحرب الباردة، وتم تسريحي من الوحدة لتغطية التكاليف، تلك هي الحكاية الرسمية..

- وماذا كانت رتبتك؟

- رائد.

- والآن؟

- متقاعد.

- أنت صغير السن على التقاعد.

- أردت الاستمتاع بما تبقى لي من حياة خارج حدود الجيش.

- وهل فلحت خطتك؟

- بالتأكيد.

- وما الذي كنت تفعله الليلة هنا في نيويورك؟

- أتيت هنا من أجل الموسيقى.. نوادي الجاز في بليكر.

- وهل كنت تستقل قطار الأنفاق للذهاب إلى هناك؟

- كلا، كنت في طريقي لحجز غرفة في نزل حتى الصباح قبل استقلال حافلة والذهاب إلى بليكر.

- وأين كنت ستذهب بعد ذلك؟

- إلى أي مكان..

- متنقل؟.. هل كنت تعتزم أن تكون زيارتك قصيرة؟

- بلى، هذا هو أفضل نوع من الزيارات.

- أين تعيش؟

- لا يوجد منزل لدي، لا مكان، أنا أقضي وقتي في التنقل.

- أين حقائبك؟

- لا أمتلك حقائب.

أغلب القوم يتبعون هذا السؤال بعدد آخر من الأسئلة لكنها لم تفعل هذا، بدلًا عن هذا غيرت من تعبير وجهها متخلية عن أسلوب الاستجواب وأردفت شاردة: أنا لست سعيدة بكون اللائحة مخطئة، من المفترض أن تكون قاطعة..

كانت تتحدث بطريقة"الحديث من شرطي لشرطي "كأن ذكر وظيفتي السابقة قد أحدث فارقًا لديها، كنت أعلم جيدًا أن هذا جزء من تقنيتها في الاستجواب.. أجبتها: اللائحة لم تكن مخطئة بشكل تام، الجزء الخاص بالانتحار كان صحيحًا، الجزء الخاص بتفجير القنابل كان خاطئًا..

- ربما، أعني لنفترض أن كلامك صحيح، الإشارات كانت صحيحة وهي انتحرت بالفعل، لكن لا يزال هناك مسألة أن اللائحة قد أخطأت بشأن التفجير.

- لن أكذب عليك خبرًا أنا سعيد أنها كانت مخطئة بشأن التفجير.

- حسنًا، لديك وجهة نظر رغم كل شيء.

هنا وجهت لها سؤالًا:

- هل نعلم من هي؟

- ليس بعد لكننا سنعرف.. لقد وجدنا حافظتها ومفاتيحها في العربة، تلك أدلة قاطعة وستدلي إلينا بهويتها، لكن ما هو

سبب ارتدائها لتلك السترة الشتوية الثقيلة؟

تنهدت وقلت: لا أمتلك أدنى فكرة.

صمتت"ثيريسا لي"، بينما كانت تفكر بعمق وهناك تعبير من خيبة الأمل على وجهها، فقلت لها: لا تتعجلي معرفة الحقائق والاستنتاجات، تلك الأشياء ستظهر رويدًا، بالنسبة لي أعتقد أنه يجب إضافة نقطة ثانية عشرة للائحة، لو قامت مفجرة انتحارية بإزالة وشاح رأسها فتلك إشارة بديهية، مثلما يفعل الرجال بالضبط.

لم يبدُ أنها فهمت ما أريد قوله، فالحقيقة أني كنت مرهقًا ولم أكن متأكدًا أني فهمت ما أقوله أيضًا.

لكنها غمغمت: نقطة جيدة.

ثم سألتني بغتة: هل تتحدث أكثر من لغة؟

- الإنجليزية والفرنسية فقط.

رفعت المحققة رأسها بشرود وهي تفكر قبل أن تعاود النظر إليّ:

- هل أنت بخير؟

اعتبرت أن هذا استفسار عن صدمتي مما حدث، وهل أنا بحاجة لاستشارة نفسية أم لا، ربما لأني قلت عبارة غير مفهومة منذ قليل لكني أجبتها في هدوء: "أنا بخير"، فقالت لي بقليل من الدهشة: كنت سأشعر بقليل من الندم لو كنت مكانك، من فكرة اقترابي منها وتبادل الحديث معها في

القطار، ربما أنت السبب في دفعها للانتحار، ربما لو لم تتحدث معها لعدلت عن رأيها وترجلت بعد محطتين أو ثلاث..

هنا أطل الرقيب برأسه وأشار للمحققة أن تأتي لترى شيئًا، ذهبت إليه وسمعت حديثًا هامسًا متبادلًا، قبل أن تعود تيريسا وطلبت مني أن أذهب معها لقسم الشرطة..

- لماذا؟

بدا عليها التردد قبل أن تقول: إجراءات رسمية ليس أكثر، للحصول على إفادتك.

- هل أمتلك خيار الرفض؟

- كلا، أنت شاهد أساسي، ومسألة اللائحة تلك لها علاقة بالأمن القومي، من الأفضل أن تأتي معنا كمواطن متعاون..

هززت كتفي وتنهدت، ثم اتبعتها لمخرج المحطة المركزية، حيثما ركنت سيارتها، سيارة فورد كراون، تعمل بشكل جيد، ثم وصلنا لقسم الشرطة بعد رحلة سريعة ومقتضبة، وقادتني المحققة تيريسا لي لغرفة الاستجواب، وقفت على الباب تنتظر دخولي، وفور أن فعلت ذلك أغلقت هي الباب من خلفي، وأوصدته.

الفصل الثامن

عشرون دقيقة مرت وأنا أجلس وحيدًا بغرفة الاستجواب في انتظار عودة المحققة ثيريسا لي، أعلم أن عادة المحققين تلك في جعلك تنتظر لتفكر بالأمر، وتمر الاحتمالات المختلفة بذهنك حتى يعصف بك التوتر وتعترف بجريمتك، جلست بهدوء لأني أعلم جيدًا أني لم أقترف شيئًا، وعندما عادت ثيريسا كان بصحبتها رجل آخر، عرفته باسم دوشيرتي، زميلها، وقالت: إن لديه عددًا من الأسئلة بخصوص حادثة الانتحار..

- أي أسئلة؟

لم تجبني على الفور، وإنما عرضت عليّ كوبًا من القهوة وفرصة لاستخدام دورة المياه، قبلت بالعرضين واصطحبني دوشيرتي، وعدنا بكوبين من القهوة وقدح شاي، رشفت من القهوة وأنا أعاود الجلوس، لأجدها لا بأس بها، في حين أخذت ثيريسا قدح الشاي، وقال دوشيرتي بعدما رشف من قهوته: احكِ لنا ما حدث مرة أخرى..

وهكذا حكيت كل التفاصيل مرة أخرى، بالأحرى يجب القول: إن حواري مع ثيريسا قد تكرر بالكامل مع دوشيرتي مرة ثانية، واهتمامه بتفصيلة أن اللائحة كانت مخطئة، وتعليقي أني ممتنٌّ لهذا، والنقاش حول تلك النقطة، بعد ذلك تغيرت نبرة الحديث لاستجواب مباشر.

وسألني دوشيرتي: بم شعرت؟

- بخصوص؟

- بخصوصها وهي تقتل نفسها.

- كنت سعيدًا أنها لم تقتلني.

- نحن محققو جرائم قتل وعلينا معاينة كل ملابسات حوادث الموت العنيفة أنت تفهم هذا، كل الملابسات.. في حالة.. أنت تعلم.

- في حالة ماذا؟

- في حالة كان هناك أشياء خفية.

- لا يوجد أشياء خفية، لقد انتحرت المرأة.

- هذا ما تقوله أنت؟

- لا أحد يقول شيئًا مختلفًا؛ لأن هذا ما حدث.

- هناك دومًا احتمالات أخرى.

- أحقًّا تعتقد ذلك؟

- ربما أنت من أرداها قتيلة.

قالها بينما ثيريسا تنظر لي بشفقة.

- أنا لم أقتلها.

- ربما كان هذا سلاحك.

- لم يكن سلاحي وأنا لم أحمل حقيبة.

- أنت رجل كبير وبإمكانك حمل سلاح كبير في ملابسك.

تزايدت الشفقة مصحوبة بقليل من التعاطف في أعين تيريسا ولسان حالها يقول: أنا آسفة.

- ما الذي تفعلونه هنا بالضبط؟ سيناريو شرطي جيد وشرطي أحمق؟

نظر لي دوشيرتي قبل أن يقول: أنت تعتقد أني أحمق؟

- لقد أثبت هذا بكلامك، أثبت كونك أحمق، لو كنت قد قتلتها بمسدس ماجنم من هذا النوع، لكان ذراعي ويدي ممتلئة بآثار البارود، أنت وقفت جواري بالخارج وأنا أغسل يدي، هل رأيت بارودًا؟ إنك تتفوّه بالهراء بالإضافة لكونك أحمق، أنت لم تأخذ بصماتي ولم تتلُ عليّ حقوقي، ولكنك تتهمني بالجريمة، تلقي بالاتهامات جزافًا لعلك تحصل على شيء ما..

لم ينفعل دوشيرتي، وإنما قال: نحن مجبرون على تقصي الحقائق، تلك هي وظيفتنا.

- وما الذي قاله الطبيب الشرعي؟

- لم نحصل على تقريره بعد.

- وماذا عن الشهود؟

- لم يروا شيئًا.

قالتها تيريسا وهي تهز رأسها فرددت مسرعًا: لا بد أنهم رأوا شيئًا.

- ظهرك حجب المشهد كله عنهم، كما أنهم لم ينظروا ولم يتوقع أحد ما سيحدث، كانوا مرهقين وبعضهم نائم، ولا يجيدون تحدث الإنجليزية بطلاقة، الشهود ليسوا بمادة مفيدة في قضيتنا تلك.

- وماذا عن الرجل الآخر؟ لقد كان يجلس أمامنا، وكان مستيقظًا، وبدا لي أنه يجيد الإنجليزية.

- عن أي رجل تتحدث؟

- الراكب الخامس.

تبادلت تيريسا نظرة مع دوشيرتي، وتفصحت الملف في يدها قبل أن ترفع رأسها ناظرة إلي، وقالت: لا يوجد راكب خامس، الأربعة ركاب من ضمنهم أنت والخامسة هي المرأة الميتة..

الفصل التاسع

جلست في صمت وأنا أفكر في جملة"لا يوجد راكب خامس".. فقد مرت بعقلي، بينما قامت ثيريسا بطي الورقة من الملف وسحبتها ثم أخرجتها لتريني إياها، حيث كُتب عليها أربعة أسماء، منهم اسمي، إضافة إلى رودريجز وفلرليجلوف ومبيل، وقالت ثيريسا مؤكدة: أربعة ركاب فقط..

أخذت نفسًا ونظرت إلى ثيريسا قبل أن أقول: خمسة ركاب، أنا كنت بالقطار وأجيد العد والرياضيات، كانوا خمسة..

ثم مررت بالذكرى الكاملة لما حدث بعربة القطار مرة أخرى، خمسة ركاب..

وتخيلت لحظة خروج الشهود من عربة القطار، حيث وصل المسعفون، واصطف الجمهور ليشاهد ما حدث، بينما كانت الشرطة تقودنا للخارج.. ثلاثة رجال شرطة أو أربعة تتبعوا الشهود.

قلت لهما: لا بد أنه تسلل بعيدًا وسط الزحام..

- من هو بالضبط؟

- مجرد رجل، كان مستيقظًا تمامًا، ولم تبدُ عليه أمارات الفقر..

- هل حدث أي تواصل بينه وبين المرأة؟

- لم ألاحظ شيئًا من هذا القبيل.

- هل أطلق عليها الرصاص؟

- هي التي أطلقت الرصاص على نفسها.

تنهد دوشيرتي، ثم علق: إذن فالراكب الخامس شاهد خائف فر من مسرح الجريمة؛ لأنه لا يريد للأوراق الرسمية أن تدلي بموقعه وحقيقه أنه كان بالقطار في الثانية صباحًا، في الأغلب لأنه يخون زوجته، أشياء كتلك تحدث طيلة الوقت.

- دعني أفهم هذا جيدًا، هذا الرجل قد فر لأنكم لم تهتموا به، وفي الآن ذاته تضيقون الخناق علي أنا!

- لقد قلت إنه لم يفعل شيئًا.

- أنا لم أفعل شيئًا كذلك.

- هذا ما تقوله أنت.

- أنت تصدق ما أقوله بشأن الراكب الخامس وتشكك بصحة كلامي عندما يكون بشأني الخاص.. رائع..

- لماذا ستكذب بشأن الرجل الخامس؟

- حسنًا ما يحدث الآن لهو مضيعة للوقت.

والحقيقة أنه كان فعلًا مضيعة للوقت ثم أدركت أنهم لم يكونوا يضيعون وقتهم حقًا، وإنما يرتبون تلك المسرحية الصغيرة سويًا، دوشيرتي وثيريسا، بطريقتهم العجيبة في التحقيق، وبما أني لم أفعل شيئًا فهم يقدمون لي صنيعًا بمسرحيتهم السخيفة تلك..

وتذكرت عبارة ثيريسا، ربما هناك شيء بين السطور.. هناك شيء آخر يجري هنا لا أعرفه، شيء بخصوص المرأة، سألتهم: من كانت هي؟

- لماذا تفترض أن هويتها لها أهمية؟

- لأنك لا تضيع الوقت حقًّا، أنت تتعمد الإطالة، هل تعلم لماذا؟ لأنك قد حصلت على هوية المرأة المنتحرة، وعندما حصلت على النتيجة أُضيء حاسبك كشجرة كريسماس، وتلقيت اتصالًا بعدها، قالوا لك ألا تجري اعتقالًا رسميًّا، وأمروك أن تماطل معي في التحقيق لحين وصولهم هنا.. ربما لم ترد اعتقالي بسبب سجلي في الجيش..

- نحن لم نهتم بسجلك العسكري، لكننا أردنا تجنب الأعمال الورقية.

- من كانت هي؟

- كانت تعمل لدى هيئة فيدرالية، وهم في طريقهم لاستجوابك، غير مصرح لنا بالإفصاح عن أي معلومة أكثر من ذلك..

رحل دوشيرتي مع ثيريسا بعدها وجلست بمفردي في غرفة الاستجواب، أدرت رأسي وتفحصت الغرفة، مساحتها لا بأس بها، بلا نوافذ، هواؤها ساخن، وهناك ملصقات قديمة عن عواقب الجرائم، وهناك رائحة ما تعبق الجو، مزيج من القلق والتعرق والقهوة.. هناك مقعدان للمحققين ومقعد للمشتبه به، الذي أجلس عليه حاليًا، ربما في الأيام الخوالي اعتادوا ضرب

رأس المتهم بالمنضدة وهو جالس فوق هذا الكرسي، ربما لا يزال الأمر يحدث للحظتنا تلك، من الصعب حقًّا تحديد ما يجري داخل غرفة بلا نوافذ..

بدأت أحسب الوقت وأنا جالس في مكاني، لقد مرت قرابة الساعة منذ أن تحدثت معي تيريسا لي بمحطة القطار قبل قدومنا هنا، وبناء عليه فإن الهيئة الفيدرالية التي تعمل لديها المرأة الميتة ليست بمكتب التحقيقات الفيدرالي، لأني أعلم أن مكتبهم بالقرب من مجلس المدينة والميدان الفيدرالي، وهو ليس ببعيد عن هنا، سيصلون بالفعل لو كانوا هم، عشر دقائق لاكتمال رد فعلهم، عشر دقائق أخرى لتجميع فريق وعشر دقائق أخيرة ليصلوا هنا بعربة رسمية بها سرينة ذات صوت عالٍ، كلا ليس مكتب التحقيقات الفيدرالية، ولكن هذا يعني أن هناك الكثير من الهيئات الأخرى التي يمكن للمرأة أن تكون قد عملت لديهم، هيئات عديدة ولها ثلاثة أحرف كاختصار لاسمهم، راهنت نفسي أن من سيصل سيكون يعمل لدى هيئة تنتهي أحرف اختصاراتها بحرف الألف والياء، مثل "CIA..DIA" مكتب المخابرات المركزية أو وكالة الدفاع الوطني، أو ربما هيئة أخرى حديثة وقد اخترعوا لها اسمًا للتو.. تلك الوكالات والهيئات الحكومية تحب حالات التأهب الليلي، هناك مشتبه به متورط بمقتل عميلة فيدرالية ما في الثانية صباحًا، لنذهب إذن..

بعدما مرت ساعة أخرى وأنا أجلس بغرفة الاستجواب بدأت أفكر أنهم قادمون من العاصمة واشنطن، ولكن أي هيئة لها

مكتب بالعاصمة وليس في نيويورك؟.. تخليت عن التخمين واسترخيت بمقعدي رافعًا قدمي لأريحها فوق المنضدة وأستند بالمقعد للخلف.. وبعد دقائق غفوت..

وصلوا في الخامسة صباحًا، وقد كانوا ثلاثة رجال يرتدون بزات رسمية، ولم يفصحوا عن هويتهم، يتصرفون باحترافية ولباقة كرجال أعمال يهمون بإتمام صفقة روتينية، أيقظوني بهدوء، فنظرت إليهم، لأرى أعينهم بها ذكاء ودقة ملاحظة، حليقي الوجه، شعرهم قصير وقد تم قصه حديثًا، أحذيتهم براقة، أجسادهم رياضية وصلبة، بدا أنهم قادرون على الهرولة لنصف ماراثون دون أن يبدو عليهم إرهاق، ودون أن يستمتعوا به في نفس الوقت، انطباعي الأول أنهم رجال جيش سابقون تم نقلهم لتلك الهيئة الفيدرالية التي لا أعلمها، أخبروني أن بجعبتهم عددًا من الأسئلة يريدون إجابات لها، فطلبت منهم أن يروني هويتهم، أجابوني باقتباس من "الحركة الوطنية والأعراف التابعة للأمن القومي"، أن من حقهم عدم الإفصاح عن هويتهم، وحين كدت أن أجيبهم باقتباس من حقوق المواطن أعطوني اقتباسًا آخر من "الحركة الوطنية "قبل أن أنطق، وقد بدا عليهم الاستمتاع وهم يفعلون ذلك، أطلقت زفرة طويلة، طريقتهم تلك جعلتني أدرك بما لا يترك مجالًا للشك أن أمامي طريقًا طويلًا سينتهي بالكثير من المصاعب.. في المعتاد لا يوجد الكثير من الأشياء القادرة على إثارة مخاوفي، لكن الاحتكاك بهذا النوع من الهيئات الحكومية والأمنية لهو أسوأ نوع من الاحتكاكات وعليك دومًا تجنبه، فرانتز كافكا وجورج أورويل كانوا

ليتفقوا معي بهذا الشأن بالتأكيد..

أطلقت زفرة أخرى قبل أن أقول: حسنًا، ما هي أسئلتكم؟

بدأوا بالإقرار بأنهم قد اطلعوا على خلفيتي العسكرية، وأنهم يحترمونها جدًا، هذا طبعًا محض هراء لأن لا أحد يحترم الشرطة العسكرية على وجه الخصوص، إلا في حالة أنهم رجال شرطة عسكرية سابقون وقد تم تجنيدهم بتلك الهيئة الغامضة، قالوا بعدها إنهم سيراقبونني عن كثب وأنا أجاوب ولسوف يعرفون إن كنت أكذب أم لا، هذا أيضًا محض هراء، لأن فئة المحقق القادر على فعل هذا من الفئة النادرة التي تندرج تحت قائمة "الأفضل".. وهم لم يكونوا الأفضل، لأنهم لو كانوا الأفضل لكانوا في رتبة أعلى من رتبتهم الحالية، وفي تلك الحالة لن يتم إرسالهم إلى هنا في الخامسة صباحًا، فالأفضل، كائنًا من كان، ينام في فراشه الآن ولسوف يطالع تقرير الاستجواب غدًا..

على أي حال لا يوجد لدي ما أخفيه ولذا أومأت برأسي..

- هل كنت تعرف المرأة التي قتلت نفسها في القطار؟ هل رأيتها من قبل؟

هذا هو المحور الأول لاهتماماتهم..

- كلا.

قلتها باقتضاب وحزم.. بهدوء وثقة..

لم يعقبوا هذا السؤال بآخر مما أفصح لي شيئًا عن مهمتهم،

هم فريق من فئة "ب"، فريق كهذا يتم إرساله لإنهاء تحقيق مفتوح، ليدفنوا الأمر برمته، ربما يمتلك أحدهم شكًّا ما بخصوص شيء ما، ورد الفعل هو إرسال فريق كهذا لتأدية ردة فعل رسمية وروتينية تنهي الشكوك وتغلق الأمر برمته، كلجان تحقيق صورية، فهم يريدون إجابات نفي مني بشأن كل أسئلتهم كي ينتهوا من التحقيق ويغلقوا ملف المرأة، لا يريدون ذيولًا للأدلة يمكن من خلالها فتح التحقيق مرة أخرى، لا يريدون جذب انتباه أحد لتلك المسألة، ما يريدونه حقًّا هو إنهاء كل شيء ووضعه في طي النسيان ليعودوا بعدها من حيث أتوا..

السؤال الثاني:

- هل تعرف امرأة تدعى ليلى هوث؟

- كلا.

لم أكن أعرفها حينئذ..

السؤال الثالث بدأ كمحادثة عادية من العميل الذي يقود التحقيق من الثلاثة، هو أصغرهم حجمًا وأكبرهم سنًّا.. قال لي: لقد اقتربت من المرأة في القطار..

لم أعلق، أنا هنا كي أجيب عن أسئلتهم وليس لأعلق على ما يقولونه.. بدا لي أن هذا العميل أكثر ذكاء من الآخرين.

- إلى أي مدى اقتربت منها؟

- حوالي ثلاثة أو أربعة أمتار.

- هل كانت تلك مسافة كافية كي تلمسها؟

- كلا.

- لنفترض أنك، فقط لنفترض، قد مددت ذراعك وهي فعلت المثل، هل كان يمكن لأيديكم أن تتلامس؟

- ربما.

- هل تلك الإجابة نفي أم تأكيد؟

- لا نفي ولا تأكيد، تلك إجابة تشي باحتمالية لأني قلت "ربما".. أنا أعلم طول ذراعي لكني لا أعلم بشأن ذراعها هي.

- هل أعطتك شيئًا ما؟

- كلا.

- هل أخذت منها شيئًا؟

- كلا.

- هل أخذت شيئًا منها بعدما ماتت؟

- كلا.

- هل قام شخص آخر بأخذ شيء منها بعد موتها؟

- لم أرَ شيئًا كهذا.

- هل سقط منها أو من حقيبتها أو من ملابسها أي شيء؟

- كلا.

- هل أخبرتك بشيء؟

- لا شيء مهم.

- هل تحدثت هي مع أي أحد سواك؟

- كلا.

- هل تمانع أن تفرغ جيوبك؟

تنهدت بصمت وهززت كتفي، لا يوجد لدي ما أخفيه، أفرغت جيوبي بعدها وألقيت بالمحتويات على المنضدة، رزمة من المال الورقي وبعض العملات، جواز سفري القديم وبطاقة سحب نقدي، وفرشاة أسناني وبطاقة عبور قطار الأنفاق، وبطاقة أعمال ثيريسا لي..

تفحص الرجل مقتنيات بإصبعه في حرص وأومأ لزميله الذي اقترب مني بالقدر الكافي كأنه سيربت على كتفي، لكنه قام بتفتيشي بدلًا عن ذلك ولم يجد شيئًا، قال لي الرجل الأول: شكرًا لك يا مستر ريتشر..

ثم رحلوا بنفس السرعة التي أيقظوني بها، مما أثار دهشتي وغبطتي بنفس الوقت، وقفت بعدها والتقطت مقتنياتي، وأعدتهم بجيوبي، انتظرت قليلًا لأتأكد من رحيلهم بالخارج ثم خرجت من الغرفة، قسم الشرطة كان هادئًا في هذا التوقيت، وجدت ثيريسا لي تجلس دون أن تفعل شيئًا أمام مكتبها، ودوشيرتي يسير مع رجل غير مهندم الثياب، بدا أنهم أيقظوه وأحضروه لهنا في عجالة، شعره غير مصفف، ووجهه مرهق، أربعيني، يرتدي سروالًا وقميصًا صيفيًا، رأتني ثيريسا وأنا أنظر للرجل الواقف مع دوشيرتي فقالت: أحد الأقارب.

- قريب المرأة؟

أومأت تيريسا وتابعت: رقمه كان بحافظتها، هو أخوها في الواقع، شرطي بمدينة صغيرة بنيو جيرسي، لقد قاد طيلة الطريق وصولًا إلى هنا.

- رجل مسكين.

- تلك حقيقة، لم نسأله أن يتعرف على الجثة، بسبب حالة الرأس أو ما تبقى منها، وأخبرناه أن حالتها لن تسمح سوى بتابوت مغلق إبان الجنازة، صدقني جنازة بتابوت مفتوح في حالتها تلك ستكون كابوسًا للحضور، وهو فهم ما نريد قوله..

- ولكنك متأكدة من كونها.. هي؟

- بلى، لقد طابقنا بصماتها بالهوية التي وجدناها.

- ومن كانت؟

- غير مصرح لنا بالقول.

- هل انتهيتم مني؟

- الفيدراليون قد انتهوا منك؟

- نعم.

- إذن ارحل، لقد انتهينا منك.

وبينما أنا في طريقي للسلم تعالى صوت تيريسا لي وهي تقول: أنا لم أعني ما قلته، بشأن أن حديثك معها قد دفعها للانتحار..

- أنت عنيت ما قلته، وربما أنك محقة.

***

كانوا ينتظرونني فور خروجي من قسم الشرطة وانعطافي لشارع ٣٥، أربعة رجال مختلفون، لكنهم لم يكونوا فيدراليين، بزاتهم كانت باهظة الثمن لدرجة لا تجعلهم فيدراليين..

الفصل العاشر

العالم ليس سوى غابة كبيرة، في المدن والبلدان، وبالأخص في نيويورك، وهو شيء مفيد بالنسبة لأمثالي، فأنت ترى أربعة رجال ينتظرونك، ما هي خياراتك في تلك الحالة؟ إما أن تجري بالاتجاه الآخر كأن الشيطان يطاردك، تجري بلا لحظة تردد، أو.. أن تسير صوبهم بخطًا ثابتة دون أن تزيد أو تبطئ من سرعتك، وتنظر لهم بقليل من الاهتمام، نظرة من طراز "أهذا كل ما لديكم؟".. ورغم أن الحقيقة أن الاختيار الذكي هو دومًا الهرب، أفضل المعارك هي تلك التي لم تخضها، لكني لم أدّعِ أبدًا الذكاء، ولا الحكمة، فبعضهم يهرب، أما أنا فأواصل السير..

كانت ملابسهم تقول بوضوح إنها غالية جدًّا، وفي الأغلب تم ابتياعها من مكان ما يحمل اسم علامة تجارية أوروبية، طريقة وقفتهم وأجسادهم تقول إنهم بالتأكيد رجال جيش أو شرطة سابقون، ربما الاثنان، لكنهم قرروا تغيير طبيعة عملهم وذهبوا للقطاع الخاص حيث رواتبه الأعلى، ولا يوجد كم البيروقراطية والقواعد المعتادة.. انقسموا لفرقتين كل واحدة من رجلين عندما اقتربت منهم، مما ترك لي مجالًا لأمرَّ بينهم لو أردت العبور، لكن الرجل الذي يتقدمهم أشار لي بإبهامه كي أتوقف، ثم هز يديه بطريقة مطمئنة معناها "نحن لا نمثل خطرًا لك".. كنت أفكر وأنا آخذ خطوتي التالية، إنني لا أريد أن أجد نفسي واقفًا بينهم، اثنان على كل اتجاه، إما أن أتوقف حالًا أو أواصل السير لأكون وسطهم، لو توقفت سيتحركون

هم اتجاهي وحينئذ سيتساقطون كالخراف.

"هل يمكننا الحديث معك؟".. هكذا سألني الرجل نفسه، فتوقفت على مقربة منهم، "بأي شأن؟"..

- أنت الشاهد أليس كذلك؟

- ومن أنت؟

أجابني الرجل بلغة الجسد أولًا، حيث مد يده وأزاح سترته ليريني أنه لا يحمل سلاحًا، وأخرج بطاقة عمل أعطاني إياها، أدرتها بين أصابعي، لم تكن بطاقة مكلفة، لا أحرف ذهبية ولا طباعة خاصة، مجرد بطاقة عمل عادية مكتوب عليها: شركة "الثقة والأمان"، وأسفل الاسم استقرت عبارة أخرى "للحماية والتحقيق والتدخل السريع".. وأخيرًا أسفل هذا استقرت رقم وعنوان الشركة بمانهاتن، وقد بدأ الرقم برمز "٢١٢" الخاص بمانهاتن كذلك..

- رائع، ربما يجب أن أطبع بطاقة عمل خاصة بي وأكتب عليها "جون سميث، ملك العالم"..

- البطاقة قانونية ونحن كذلك.

- وما هي مهمتك بالتحديد؟

- لا أستطيع القول.

- إذن أنا لا أستطيع مساعدتك.

- صدقني من الأفضل لك أن تتحدث معنا لأن الخيار البديل هو أن تتحدث لمديرنا، والحديث معنا سيكون أكثر تحضرًا.

- أنا أرتعد خوفًا.

- مجرد بضعة أسئلة يا رجل وسنحل عن سبيلك، نحن نؤدي وظيفتنا هنا بتفانٍ مثلك.

- أنا لست برجل متفانٍ في العمل، أنا رجل عاطل يحب الاستمتاع بالحياة والرفاهية.

- إذن انظر إلينا من نافذتك الفاخرة وتعاطف معنا وأجب عن أسئلتنا.

- أي أسئلة تلك؟

- هل قامت بإعطائك شيئًا؟

- عمن تتحدث؟

- أنت تعلم من أقصد.. هل أخذت منها شيئًا؟

- دعني أخمن السؤال التالي، هل قالت لي شيئًا؟

- هل قالت لك شيئًا؟

- لقد قالت الكثير، ظلت تتحدث طيلة الوقت من محطة بليكر للمحطة المركزية.

- وما الذي قالته؟

- لم أسمع حرفًا مما كانت تتفوه به.

- هل أدلت لك بمعلومات؟

- لم أسمع ما قالته.

- هل ذكرت أي أسماء؟

- ربما.

- هل ذكرت اسم ليلى هوث؟

- ليس على حد علمي.

- وماذا عن جون سانسوم؟

لم أرد، فطفق الرجل برأسه وسأل: ماذا؟

- لقد سمعت هذا الاسم من قبل.

- منها هي؟

- كلا.

- هل أعطتك أي شيء؟

- مثل ماذا؟

- أي شيء على الإطلاق.

- ولماذا يعتبر ذلك مهمًّا بالنسبة لك؟

- مديرنا يريد أن يعرف.

- أخبره أن يأتي ويسألني بنفسه.

- من الأفضل لك أن تتحدث معنا.

ابتسمت ولم أرد..

ثم مررت في الممر الذي صنعوه بينهم، فاندفع أحدهم

صوبي محاولًا دفعي للخلف، التقطت يده وثنيتها ثم ضربت كتفه بقبضتي، وأدرته حول نفسه قبل أن أدفعه من ظهره، استدار وانقض عليّ فباغته بضربة خطافية بيدي اليسرى، وأطحته لليمين ثم اليسار قبل أن أعرقله بقدمي ليسقط أرضًا، كنت ممسكًا بياقة سترة حلته، ياقة طويلة ذات "ماركة "فرنسية، فالخامة الإيطالية والبريطانية لا يمتلكون ياقة طويلة كتلك، فقط الفرنسيون يفعلون هذا، سقط الرجل أرضًا، فلففت سترته حول وجهه ثم عدوت بسرعة للأمام، كان من الأفضل أن أسير بخطًا سريعة، لكني عدوت، ثم توقفت والتفت إليهم، كانوا جميعًا عالقين في لحظة من التردد، وقد وقف الرجل الذي سقط أرضًا وتخلص من سترته التي تحيط بوجهه، نظرت للسماء حيث تشرق الشمس، نحن في شارع ٣٥ المجاور لقسم الشرطة وشرطة المرور على وشك بدء نوبتها الصباحية، رأيتهم يتخذون القرار، قبل أن يحدقوا بي ثم استداروا ورحلوا..

"لقد انتهينا منك".. هكذا قالت ثيريسا لي، لكن يبدو أن أحدهم لم ينتهِ..

عندما استدرت لأرحل بدوري وجدت شقيق المرأة المنتحرة يقف أمامي، بدا أنه كان يحاول اللحاق بي من لهاثه ثم أمسك بذراعي وقال لي: أنت الشاهد أليس كذلك؟ لقد رأيتك في الداخل وخمنت أنه أنت..

ثم صمت قليلًا قبل أن يضيف: أختي لم تنتحر..

الفصل الحادي عشر

اصطحبت الرجل إلى مقهى قريب بالحي الثامن، والسبب الذي دفعني لفعل ذلك هو تدريب سابق تلقيته إبان خدمتي العسكرية، حينئذ كنت أكلَّف بمهام تبليغ أقارب المتوفين من الضباط والجنود بخبر وفاة ذويهم، وكنا نطلق على تلك الوظيفة مرسال الموت، فما كنت أفعله هو الطَّرْق على أبوابهم، وإخبارهم بالأمر بشكل مباشر، هكذا اعتقدت أن تلك هي الطريقة المثلى لأداء الوظيفة، وبناء عليه فقد تم إرسالي لحصن روكر، وهناك تلقيت تدريبًا بشأن أهمية المشاعر وكيفية إخبار أحدهم بأمر كذلك، وتعلمت هناك أن الأماكن العامة مثل المقاهي والمطاعم لهي أماكن مناسبة جدًّا لـ" مرسال الموت "كي يؤدي وظيفته، تلك الأماكن بطبيعتها تمثل تحديًا لاوعيًا من فكرة الانهيار والسقوط أرضًا، ولذا ذهبت معه للمقهى، جلسنا هناك بجوار مرآة كبيرة ؛ لأن رؤية انعكاسك في المرآة وانعكاس من يتحدث إليك يساعد أيضًا، المقهى كان شبه مزدحم، طلبنا قهوة، ورغم شعوري بالجوع إلا أنه لم يسعني طلب طعام بينما يطلب هو القهوة فحسب، فذلك ليس بفعل لبق، لذا جلست بصمت منتظرًا إياه أن يتحدث، وأنا أفكر في جملة "دعهم يتحدثون أولًا"، "أعطهم الفرصة للتعبير عن مكنون صدرهم".. هذا شيء آخر علّمنا إياه علماء النفس في روكر.

أخبرني أن اسمه "جاكوب مارك "وأصوله تعود لـ "ماركاكيس" حيثما تربى مع جده، والذي كان رجلًا يونانيًا

يعمل في أعمال البناء.

- بإمكانك أن تدعوني بـ"جايك" لا داعي للكلفة.

- بالتأكيد، ادعوني بريتشر.

- أنا شرطي.

- وأنا اعتدت أن أكون شرطيًا أيضًا.

قال لي بعدها: إنه غير متزوج ويحيا بمفرده، فقلت له المثل وأنا أفكر في جملة "حاول أن تجد أرضية مشتركة "تلك كانت نصيحة أخرى من الطبيب النفسي بروكر، نظرت إليه ولم أستطع عدم الشعور بالأسف اتجاهه، لقد خلد للنوم منذ ساعات قبل أن يتلقى الخبر وهو هانئ البال فقط لينقلب حاله ويتحول لتلك الحالة المزرية الحالية، كان يتحدث عن أخته بصيغة الحاضر مما أشار لحالة إنكار واضحة منه لما حدث..

- أختي لم تنتحر، هذا مستحيل..

- اسمعني يا جايك، لقد كنت هناك ورأيت ما حدث..

أحضرت النادلة قهوتنا وعدنا للصمت لوهلة، بدت الحيرة ممزوجة بالاضطراب في عينيه، وتذكرت عبارة أخرى من روكر بشأن الحالة العقلية لمتلقي الخبر، هم مشوشون للغاية، ثم رفع رأسه صوبي وغمغم: أنت رأيت أنها انتحرت.

- نعم..

هنا تحدث فجأة عن البلدة الصغيرة الآمنة التي يعيش

بها، مكان ريفي صغير بنيوجيرسي، حيث البيوت الآمنة والزوجات التقليدية والمزارع وحقول القمح ومخفر شرطة صغير يعمل به جايك كشرطي، سألته إن كانوا يمتلكون نسخة من اللائحة الخاصة بمفجري القنابل الإرهابية، فهز رأسه بالإيجاب وأجابني أنه بعد أحداث ١١ سبتمبر حصلت كل الأقسام على تلك اللائحة، أمعنت النظر به وأردفت: ما حدث أن أختك كانت تتصرف بشكل مثير للشك، وكل الإشارات في اللائحة الدالة على أنها مفجرة قنابل كانت تنطبق عليها.

- هذا هراء.

قالها بنبرة الأخ الذي يدافع عن أخته.

- لقد اتضح في النهاية أنها لم تكن كذلك، لكنك ستفكر بالأمر ذاته لو كنت في موضعي.

- إذن فاللائحة متعلقة أكثر بالانتحار بدلًا من القنابل.

- فيما يبدو.

- اختي لم تكن تعاني من الاكتئاب.

- لا بد أنها كانت غير سعيدة.

لم يرد، شربنا القهوة ودخل بعض الرواد للمقهى وخرج آخرون.

- أخبرني عن أختك يا جايك.

- أخبرني أولًا عن نوع السلاح الذي استخدمته.

- روجر ساقية دوارة، عيار ستة.

- هذا سلاح والدنا، لقد ورثناه منه.

- هل كانت تعيش هنا في نيويورك؟

- كلا، كانت تقطن بـ"أناندل" في"فيرجينيا".

- هل كنت تعلم أنها في نيويورك؟

- كلا.

- أي سبب سيدفعها للمجيء هنا؟

- لا أعرف.

- هل هناك سبب لارتدائها سترة شتوية في هذا الطقس؟

- لا أعتقد.

- بعض العملاء الفيدراليين أتوا وسألوني أشياء بخصوصها، بعدها ظهر بعض الرجال الذين يعملون بالقطاع الخاص وكان لديهم أسئلة بشأنها أيضًا، كلهم ذكروا اسم ليلى هوث، هل تحدثت أختك عن صاحبة هذا الاسم؟

- كلا.

- وماذا عن جون سانسوم؟

- سانسوم عضو بمجلس الشيوخ في شمال كارولاينا، يريد أن يصبح "سيناتورًا "في "الكونجرس".. وهو رجل شديد المراس.

هززت رأسي وقد تذكرت أين سمعت اسم جون سانسوم من قبل، موسم الانتخابات قد اقترب، وقد رأيت اسمه في الإعلانات التلفزيونية وبعض الأخبار، فالبعض يراه كنجم صاعد في عالم السياسة، ورجل ذكي وطموح، ولديه خبرة عسكرية كذلك، كان يعمل بالقوات الخاصة لفترة قبل أن يتحول للمجال السياسي.

- هل ذكرت لك اسم اختك اسم سانسوم من قبل؟

- لا أظن هذا.

- هل كانت تعرفه؟

- لا أعلم.

- جايك، ما هي وظيفة أختك؟

لم يخبرني..

الفصل الثاني عشر

لم يكن هناك حاجة كي يخبرني جايك بطبيعة وظيفتها، فقد كنت أمتلك القدر الكافي من المعلومات كي أخمن، بصماتها مسجلة بالقطاع الفيدرالي، عملاء يظهرون ويسألون عنها، هذا يعني أنها كانت تعمل في وزارة الدفاع، نعم هذا هو تخميني، لكنها لم تكن في موقع حيوي بالوزارة؛ لأنها كانت تعيش بأناندل، وهذا يعني أنها بغرب آرلينجتون، والمهام الحيوية بالوزارة تقع في العاصمة.. لذا نظرت لجايك وقلت: كانت تعمل بـ"البنتاجون" وزارة الدفاع أليس كذلك؟

- لم يكن من المفترض أن نتحدث عن وظيفتها.

- لو كانت الوظيفة سرية فعلًا، لن تخبرك أختك أنها تعمل فيها، كانت ستخبرك بشيء على غرار أنها تعمل في مركز تجاري أو شيء من هذا القبيل..

لم يرد، فشجعته على الكلام مردفًا: أنا عملت مع وزارة الدفاع من قبل وأمتلك خبرة لا بأس بها بطريقة عملهم.

توقف لبرهة في تردد ثم قال: كانت موظفة مدنية بالسجلات، لكنها كانت تجعل الأمر يبدو حماسيًا للغاية، وتضفي طابعًا من السرية على الوظيفة، فالناس لا يتحدثون باستفاضة عن أعمال وزارة الدفاع بعد سقوط البرجين في ١١ سبتمبر..

- لكن السجلات ليست بمهمة سرية في وزارة الدفاع.

بدا شعور الإهانة على وجهه كأنني قلّلت من قيمة وظيفة أخته، ربما أنني لم أتعلم القدر الكافي بخصوص أهمية المشاعر؛ لذا قطعت الصمت موجهًا سؤالًا له:

- هل اعتادت أن تحكي لك عن وظيفتها؟

- كلا، لم تخض في التفاصيل..

قالها وهو يشعر بالضيق من أخته تلك المرة.

- الطبيعة البشرية تحتم على المرء أن يصنع لنفسه هالةً من الأهمية، لا ضرر بهذا، ربما أرادت أن تتنافس معك لأنك شرطي.

- لم نكن مقربين بالقدر الكافي كي تشعر أنها بحاجة للتنافس.

- لكنكم لا زلتم عائلة.

- حسنًا.

- هل اعتادت الاستمتاع بوظيفتها؟

- بدا لي أنها تستمتع بها، كانت تمتلك المهارات المطلوبة للعمل في الأرشيف والسجلات فهي تمتلك ذاكرة رقمية وقوة ملاحظة وقدرة فعالة فيما يتعلق بالتنظيم، كما أنها بارعة في التعامل مع الحواسب الآلية.

صمت وعدت بمقعدي للخلف وأنا مستغرقٌ بالتفكير، أناندل مدينة رائعة للمعيشة، هادئة ومنعشة، وهي تحب وظيفتها، لم تكن تعاني من الاكتئاب، ولا يوجد سبب واضح لها كي تقطع

تلك المسافة لقطار أنفاق نيويورك..

- بم تفكر؟

قالها جايك وهو يتفحص تعبير وجهي.

- لا شيء.. لا أريد التطفل.

- ولكن..؟

- أنا أفكر فحسب.

- بماذا؟

"ما يوجد بين السطور"

- كم عامًا مضوا عليك وأنت شرطي يا جايك؟

- ثمانية عشر.

- بنفس البلدة؟

- لقد تدربت مع شرطة المقاطعة ثم انتقلت للبلدة.

- هل تعرضت لحالات انتحار عدة؟

- اثنتان أو ثلاث.

- هل كان يتوقع المقربون للفقيد مسألة انتحاره؟

- كلا، في المعتاد يصعب عليهم تصديق ما حدث.

- مثل حالتنا الحالية.

- نعم.

- لكن ضمنيًا لا بد أنهم يفكرون - بقرارة أنفسهم - في سبب أو اثنين لانتحار قريبهم.

- دومًا، إما سبب عاطفي أو مالي أو شيء كهذا.

- إذن لا بد أن أختك امتلكت سببًا للانتحار.

- لكني لا أعرف السبب.

عاودني الصمت فقال جايك في عجالة: قل لي بم تفكر؟

- لا أبغي التطفل.

- أنت كنت شرطيًا بدورك وتمتلك خبرة، قل لي بم تفكر؟

"حسنًا" قلتها وأنا أومئ برأسي وأردفت: الانتحار له نمط واضح، مكان هادئ وبعيد عن الأنظار، لحظة حميمية أخيرة مع النفس قبل الرحيل، وفي الأغلب يكون هذا المكان مألوفًا ومعتادًا، ومنعزلًا..

- ما هو مقصدك؟

- أنا لم أسمع من قبل عن شخص يقطع رحلة طويلة وينتحر في قطار أنفاق، داخل عربة القطار بمسدس إبان الرحلة..

- قلت لك إنها لم تنتحر.

- كلا، هي قتلت نفسها، أنا رأيتها وهي تفعل ذلك، لكن ما أرمي إليه هو أنها فعلت ذلك بطريقة عجيبة وغير مألوفة تمامًا، لم أسمع عن شخص ينتحر داخل قطار أنفاق من قبل،

تحت عجلات القطار فهذا شيء آخر ولكن بداخله؟.. هل سمعت من قبل عن حالة انتحار داخل مواصلات عامة أثناء الرحلة؟

- كلا، إذن..؟

- لا شيء، أنا فقط أدلي بملاحظات.

- وعلامَ تقودنا تلك الملاحظات؟

- فكر كشرطي وليس كأخ يا جايك، ما الذي ستفعله عندما تجد شيئًا غير منطقي؟

- سأحقق أكثر لمعرفة السبب.

- إذن افعل هذا..

- هذا لن يعيدها إلي.

- لكن فهم ما حدث سوف يساعدك على استيعاب الأمر وربما تخطيه بشكل أفضل.

وقد كان هذا شيئًا آخر تعلمته في روكر..

طلبت المزيد من القهوة، جايكوب وسوزان، اسمهم الأخير مارك، سوزان قد انتحرت وجايكوب يجلس أمامي الآن يضع سكرًا بقهوته الثانية التي طلبها معي، وتعبير وجهه عالق بآخر جملتين "هذا لن يعيدها، حقق أكثر لفهم ما حدث"..

- هناك شيء آخر.

- ما هو؟

- هناك راكب، أحد الشهود، انسل خلسة من الشرطة واختفى.

- من هو؟

- مجرد رجل.. والشرطة قررت أنه هرب؛ لأنه لم يرد إدراج اسمه بالسجلات على الأرجح؛ لأنه يخون زوجته.

- أمر وارد.

- نعم هذا أمر وارد، العملاء الفيدراليون ورجال القطاع الخاص سألوني إن كانت أختك قد أعطتني شيئًا.

- أي نوع من الأشياء؟

- لم يحددوا، تخميني أنهم كانوا يشيرون لشيء صغير الحجم.

- لأي جهة كان يعمل الفيدراليون؟

- لم يفصحوا.

- ورجال القوت الخاصة.

أخرجت بطاقة أعمالهم من جيبي، وقد اصطبغت بالقليل من اللون الأزرق إثر التحامهم بسروالي الجينز، وضعت البطاقة على المنضدة وأدرتها ليراها جايك، قرأ ما هو مكتوب بحرص وبصوت خفيض، اسم الشركة، العبارة التسويقية، العنوان ورقم التليفون.. أخرج هاتفه الخلوي واتصل بالرقم المدون فوق البطاقة، ثم أنهى المكالمة ونظر لي قائلًا: الرقم خارج الخدمة، هذا رقم هاتف زائف..

الفصل الثالث عشر

طلبت من النادلة أن تعيد ملء قهوتي للمرة الثالثة، ثم وقفت تنظر لجايك متسائلة بينما يبادلها النظر في شرود كأنه لم يسمع عن مفهوم "إعادة ملء القهوة "من قبل، فهزت النادلة رأسها ورحلت حاملة إناء القهوة بفخر في حين قلب جايك بطاقة الأعمال بين يديه ومط شفتيه، وتمتم: رقم زائف، أنا لا أحب هذا.

- لن أحب أمرًا كهذا لو كنت في موضعك.

- علينا أن نعود ونخبر الشرطة.

- لقد قتلت نفسها يا جايك وهذا هو لب الأمر، إنهم لا يهتمون بالأسباب التي دفعتها لذلك.

- عليهم أن يهتموا.

- ربما لكنهم لا يهتمون، هل كنت ستهتم أنت لو كنت في موضعهم.

- في الأغلب لا، في الأغلب لا..

ورأيت سوادًا بعينيه وهو يتحدث، لعله يتذكر قضايا قديمة مر بها، وهو يشعر الآن أنه كان يجب عليه الاهتمام بمثل تلك القضايا، ففي بلدته الصغيرة حيث الحدائق والبيوت ذات الطابقين، والاقتصاد الهادئ، المعيشة المسالمة، ووسط هذا المجتمع ربما انتحر أحدهم لأسباب عاطفية أو مالية، ربما هناك طالبة قد أصبحت حبلى ولم تستطع مواجهة الحياة، أو

رب أسرة تمكن منه الضغط المادي، أو مدير مدرسة يتعرض لفضيحة مزرية، وقد تعامل جايك مع تلك القضايا بشكل احترافي لكن دون أن يهتم حقًّا.

- هل لديك نظرية ما بخصوص أسباب انتحارها؟

- هذا شيء سابق لأوانه، كل ما أملكه الآن هو الحقائق.

- حقائق مثل ماذا؟

- البنتاجون - وزارة الدفاع - لم يثقوا بأختك.

- هذا تصريح جريء منك.

- لقد كان اسمها في اللائحة الحمراء، هذا هو التفسير الوحيد لردة فعلهم عند مطابقة هويتها على الحاسوب الأمني.

- لكنهم لم يبقوا لوقت طويل.

- نعم وهذا يعني أنهم لم يشككوا بها، لكنهم حريصون، ربما لديهم شك غير مؤكد ليس أكثر، وقد أتوا ليتحققوا منه..

- شك بخصوص ماذا؟

- تسريب معلومات يا جايك، هي كانت تعمل بالسجلات، سجلات وملفات العاملين بقسم الموارد البشرية، ربما تخوفوا من إمكانية تسريبها لمعلومات.

- وأرادوا التأكد من خطأ شكوكهم.

- نعم، ولا بد أنهم فعلوا هذا بعد مجيئهم، ربما يندرج الأمر

تحت قسم "الحظ العاثر "فتجد أنها قد دخلت مكتبًا خاطئًا أو اطلعت على ملف لا يجب عليها أن تراه، وهم اعتقدوا أنه خطأ بريء غير مقصود، ولكن حتمية وظيفتهم تقودهم للشك؛ ولذا أرادوا التأكد، ربما هناك شيء مفقود من الوزارة واعتقدوا أنها أخذته.. ربما أنهم يراقبون ويشكون بكل موظفي السجلات بعد اختفاء هذا الشيء، وربما أيضًا يتضح أن الشيء المفقود ملف ما أو ذاكرة بها معلومات.. حافظة حاسب آلية مثلًا، شيء صغير الحجم بالقدر الكافي الذي يدفعهم للاعتقاد أنها سلمته يدًا بيد لشخص آخر في عربة القطار.

- سوزان كانت وطنية، لم تكن لتسرب معلومات.

- وأنا أعلم جيدًا أنها لم تعطِ أحدًا أي شيء إبان رحلتها بعربة القطار، مما سيترك لنا حقيقة أن أختك قد انتحرت على مئات الأميال من موطنها.. ولسبب ما كانت ترتدي سترة شتوية ثقيلة.

- وهناك اسمان يلوحان بالأرجاء، جون سانسوم وليلى هوث.. أيًا كان من هي ليلى هوث.. اسمها الأخير يبدو أجنبيًا.

- كذلك ماركاكيس.

قلتها مشيرًا لاسم موطنه الأصلي وجده..

صمت جايك لمدة طويلة وتعالى صوت زحام الصباح في الخلفية، وسطعت الشمس بقوة، بزغت بمنتصف السماء مطلقة وهجًا قويًا، تمتم جايك: أنا حائر بشدة.

- الأمر محير، أنا أعلم ذلك.

- أعطني شيئًا ينظم أفكاري، نظرية منطقية.

- نحن لا نمتلك قدرًا كافيًا من المعلومات لعرض نظريات.

- قم بالتخمين إذن.

- لا أستطيع فعل ذلك دون معلومات.. بإمكاني تأليف سيناريو يتماشى مع الحادثة ويفسرها، وهذا لن يفيد.

- ربما عليك أن تجرب فعل هذا كنوع من العصف الذهني.

- الناس يميلون للمبالغة، أعني هل قابلت أحد العاملين بالقوات الخاصة من قبل؟ ستقابل جنديًا ولسوف يؤكد لك أنه في القوات الخاصة، لكن حقيقة الأمر أنه لم يخرج أبدًا من فصيلة المشاة، الناس يميلون للمبالغة والتعظيم من هويتهم ومهنتهم..

- مثل أختي، هل هذا مقصدك؟

- إنها طبيعة بشرية.

- وماذا بعد؟

- انظر لما لدينا، اسمان لا علاقة واضحة بينهما وبين ما يحدث، ليلى هوث وجون سانسوم، وهناك انتخابات قريبة، وأختك هنا في نيويورك.

- هل هناك كذبة ما يخفيها سانسوم؟ كل السياسيين يكذبون بنهاية الأمر..

- لا أعلم لكني لا أميل لتلك الاحتمالية، نعم هم يكذبون والسياسة ليست صفقات تجارية بنهاية المطاف، ولا بد أن منافسي سانسوم يتقصون أمره ويبحثون عن فضائح، لعلهم يتفقدون هوية الشخص الذي غسل ملابسه منذ عشرين عامًا، تلك هي طبيعة السياسة.

- إذن ربما ليلى هوث صحفية وقد توصلت لشيء بخصوص سانسوم عن طريق سوزان، ربما هي باحثة كذلك.

- وربما هي منافسة سانسوم.

- ليس باسم كهذا، ليس في شمال كارولاينا.

- حسنًا سوف أفترض معك أنها صحفية أو باحثة، وقد تقصت أمر سانسوم وبشكل ما توصلت لأختك في سجلات وزارة الدفاع وتحدثت معها طلبًا للمعلومات.. لكن هناك عقبة بتلك القصة، ما الذي سيجعل سوزان تتحدث مع ليلى هوث؟ نعم الصحفيون مقنعون ولحوحون في المعتاد، لكن سوزان كانت خائفة بشدة من شيء ما والصحفيون ليسوا مخيفين، هل كانت سوزان مهتمة بالحياة السياسية؟

- لماذا؟

- ربما هي لم تحب سانسوم، لم تتفق مع توجهاته السياسية، ربما هي تطوعت للحديث مع الصحفية.

- وما هو سبب خوفها إذن؟

- لأنها كانت تخالف القانون وهذا كفيل بإخافة مواطن

صالح ومتبع للقوانين مثل سوزان.

- ولماذا كانت تحمل مسدسها معها؟

- هي لا تحمله معها في المعتاد.

- لم تحمله قط من قبل، كان بمنزلها كما يفعل أغلب الناس..

ها هي ذي عقبة أخرى في قصتي الافتراضية، البشر يأخذون أسلحتهم معهم لأسباب عدة مثل الحماية والهجوم ولكن ليس للانتحار فجأة في مكان عام بعيد عن المنزل..

- سوزان لم تكن مهتمة بالحياة السياسية.

- حسنًا، لا يوجد علاقة بسانسوم إذن.

- لماذا ذكروا اسمه إذن؟

- لا أعلم.

طفقت برأسي مفكرًا قبل أن أفكر بصوت عالٍ: لا بد أن سوزان قد قادت سيارة إبان رحلتها لنيويورك، هي لم تكن لتستقل طائرة وهي تحمل سلاحًا بجعبتها، نعم لقد قادت سيارة وعبرت نفق "هولاند "ثم وصلت إلى هنا..

ثم لمست كوب القهوة فوجدتها قد بردت، في نفس الآونة لم يعلق جايك على ما قلته، والنادلة قد كفت عن إعادة ملء قهوتنا، نحن عملاء غير مربحين بالنسبة إليها، باقي الرواد من حولنا قد طلبوا عدة مشاريب إضافية إبان جلستنا تلك، كلهم موظفون وقد أتوا من شحن طاقتهم قبل بدء يومهم في الصباح الباكر.. تنهدت ونظرت إليهم متخيلًا سوزان

مارك، قبل اثنتي عشرة ساعة وهي تستعد لبدء يومها الأخير، تشرب قهوتها الصباحية وتأخذ مسدس أبيها، تتأكد من أنه محشو جيدًا بالرصاص، وتضعه بحقيبتها قبل أن تبدأ رحلتها الأخيرة.. تقود سيارتها بعيون بائسة وتعبئها بالوقود، وأخوها يجلس أمامي الآن يطالبني بأن أخمن الأسباب التي دفعتها للقيام بتلك الرحلة، لكن الحقيقة أني لم أعد قادرًا على محاولة تخمين وتخيل ما حدث لسوزان ؛ لأن صوت تيريسا لي لا يزال عالقًا بذهني وهي تقول: أنت قد دفعتها من الحافة للهاوية عندما تحدثت معها..

قال جايك إزاء تعبير وجهي: بم تفكر؟

قلت ببط: حسنًا، لنفترض أن سوزان قد أتت لنيويورك لتقابل ليلى هوث - لو كانت الأخيرة صحفية حقًّا - وتدلي لها بمعلومات عن جون سانسوم.. المرشح السياسي.. ولنفترض أن هناك قومًا ما سيئين.. أشرارًا.. يريدون منع تسريب تلك المعلومات.. وهي كانت تعلم أنهم يتعبونها وشعرت هي بأنها متورطة بالأمر ولا يوجد سبيل للهرب، هي خائفة وبائسة وفاقدة للأمل، آه لكن هذا يعني أنها قد أتت هنا للإدلاء بالمعلومات للصحافة وليس من أجل قتل نفسها..

- وماذا عن لائحتك إياها عن سلوك المنتحرين بالقنابل؟

- نفس الشيء لأنها كانت تشعر أن أحدًا آخر سوف ينهي حياتها.

الفصل الرابع عشر

قال جايكوب مارك وهو يجلس قبالتي: المعطف، هذا لن يفسر شيئًا بخصوص السترة الشتوية، ما الذي سيدفعها لارتداء سترة شتوية ثقيلة في هذا الطقس؟!

لم أقل له بما أفكر في تلك اللحظة، إن ما قلته للتو لهو في الحقيقة يفسر أمر السترة الشتوية، لأنها كانت سوداء، للعقل الباطن ألاعيبه، أحيانًا المرء يرتدي الأسود عندما يشعر بالخطر، هذا اللون يجعلك تشعر بالقوة، وربما تلك كانت سترتها السوداء الوحيدة، ربما كونها شتوية وثقيلة قد أعطتها إحساسًا بالأمان ضد أي هجوم، ربما هي شعرت أنها أقوى وقادرة على القتال والمقاومة مع سترة كتلك، هذا أيضًا يتماشى مع الهالة السوداوية التي كانت تحيط بها، لقد كانت تتمتم بعبارات خافتة طيلة الرحلة، لعلها كانت تتمرن بذهنها، بعبارات استجداء أو تهديد.. تستعد للموقف الحتمي التالي، أفقت من أفكاري على صوت جايك وهو يردف: كما أنها لم تحمل شيئًا معها، ولذا كيف يتسنى لها أن تذهب لمقابلة الصحفية؟ ما الذي كانت ستعطيها إياه؟.. هي لم تحمل شيئًا معها..

- ربما كانت تحمل شيئًا ما بذهنها وما كانت ستعطيه للصحفية هو معلومات شفوية.

قطب جايك جبينه مفكرًا، وهو يفكر بتلك الاحتمالية وبدا عليه عدم الاقتناع..

- لا أستطيع تصديق موضوع المعلومات السرية تلك بوزارة الدفاع، أنا فقط لا أستطيع تصديق الأمر.

- لقد كانت تعاني من ضغط هائل يا جايك.

- أي نوع من المعلومات السرية تلك التي سيراها موظف سجلات وشئون عاملين؟

الحقيقة أني لا أمتلك أدنى فكرة عن نوع تلك المعلومات، وإبان الثلاثة عشر عامًا التي قضيتهم بالجيش لم أهتم ولو لمرة واحدة بموظفي شئون العاملين..

تحرك جايك بمقعده وهو يمرر يده في شعره المبعثر، والإرهاق يتزايد على وجهه، وقال بتعاسة: ما هو الشيء اللعين الذي سيدفع بأختي لقتل نفسها؟

لم أرد عليه بسرعة بل أخذت وقتي وأنا أنظر إليه، بينما أضواء المقهى تتزايد من حولها، صوت الملاعق والأطباق، حديث الرواد، صوت الأخبار قادم من التلفاز، قلت في النهاية: هي كانت تخرق القانون وقد اكتشفت أنها تحت المراقبة، وربما تم تحذيرها في وقت سابق، لقد كانت خائفة، ربما منذ لحظة رحيلها إلى نيويورك، ربما كانت تعتقد أن كل شرطي بالمدينة يبحث عنها، وربما كانت تتخيل أن كل رجل ذي حلة فاخرة هو في الحقيقة عميل فيدرالي، ربما كانت تعتقد أن ركابًا بعربة الأنفاق هم مجموعة قوات خاصة يستعدون للقبض عليها.

لم يرد جايك، وإنما نظر لي نظرة ذات مغزًى.

- وبعدها ذهبت أنا وتحدثت معها.

تراجع جايك في مقعده.. بينما تابعت ببطء: وهذا كان بمثابة المؤشر الأخير بالنسبة إليها.. لقد اعتقدت أني قادم للقبض عليها.. لا بد أنها فكرت أن أمرها قد انتهى، اللعبة كلها انتهت وهي خسرت.. ربما تخيلت أعوامها في السجن..

- ولماذا ستفترض أنك قادم للقبض عليها؟

- ربما اعتقدت أني شرطي.

- ولماذا تفترض شيئًا كهذا؟

"أنا شرطي، بإمكاني مساعدتك".. مرت بذهني العبارة التي قلتها لها.

- لأنها كانت تعاني من "البارانويا".. وتشكك بجميع من حولها.. ولديها مبرراتها في الحقيقة..

- لكنك لا تبدو كشرطي، الحقيقة أنك تبدو كمجرم.. لعلها اعتقدت أنك أردت سرقتها.

- ربما اعتقدت أني شرطي متخفٍّ..

- لكنها موظفة سجلات بشئون العاملين بوزارة الدفاع، لا بد أنها تعرف جيدًا هيئة الشرطي المتخفي.

- الحقيقة أني أخبرتها أني شرطي، أنا آسف يا جايك.

- لماذا؟

- لأني اعتقدت أنها مفجرة قنابل انتحارية، وقد كنت أحاول

المماطلة من أجل الوقت قبل أن ينفجر كل شيء، كنت على أتم استعداد لقول أي شيء في تلك اللحظة..

- ما الذي قلته لها بالضبط؟

- إني شرطي، وإني أريد رؤية ما يوجد بحقيبتها..

"أنت دفعتها نحو الانتحار" تذكرت تيريسا لي وهي تنظر إليّ.

- أنا آسف يا جايك.

شعرت بالعديد من الأشياء القبيحة في الدقائق التالية، مشاعر بغيضة وكريهة قادمة من كل الاتجاهات، من ناحية يجلس جايكوب ويحدق بي في صمت، نظرات قاتلة من طراز "أنت قتلت أختي"، دعك من النادلة الغاضبة لأننا لم نطلب شيئًا، فأخرجت عشرين دولارًا ووضعتها أسفل طبقي لتلمحني وأنا أفعل هذا، هذا بمثابة سعر إكرامية ثمانية أطباق إفطار، لذلك اعتلى الرضا وجهها، وهكذا تم حل أزمة النادلة بنجاح، لكن أزمة جايكوب مارك لا تزال قائمة، ها هو ذا يجلس في صمت، بأنفاس متلاحقة وغاضبة، وهناك أشياء عدة تتأجج بداخله كبركان موشك على الانفجار، بدا لي أنه يصارع تلك الأشياء، ثم قال بنبرة مختلفة: عليّ الرحيل، هناك أشياء يجب أن أفعلها.. يجب أن أخبر باقي أفراد العائلة.

- أفراد العائلة؟

- زوجها السابق، مولينا، وابنهم بيتر..

- سوزان لديها ابن..

- ولماذا تهتم أنت؟

- نحن نجلس هنا ونتحدث عن التهديد والضغط الذي تعرضت له وأنت لم تفكر أن تخبرني أن لديها ابنًا !

بدا الاندهاش على وجهه.

- لكنه ليس بطفل، هو في الثانية والعشرين من العمر ولديه وظيفة ويلعب كرة القدم باستمرار، هو أضخم منك جسديًا، وهو ليس على علاقة وطيدة مع والدته، لقد كان يعيش مع والده منذ الطلاق.

- اتصل به.

- هو في كاليفورنيا.

- اتصل به الآن.

- سأوقظه من النوم.

- أتمنى جاهدًا أن تفعل هذا الآن.

- يجب أن أمهد له الأمر أولًا.

- ما أريده هو أن يجيب بيتر اتصالك.

أخرج جايك هاتفه الخلوي، رأيته يبحث في قائمة الاتصال، وجد الرقم وضغط الزر الأخضر الخاص بالاتصال، ثم ألصق شاشة الهاتف بأذنه، وبدا عليه القلق خلال الرنات الخمس الأولى، ثم تحول القلق لخوف من الرنة السادسة، وقال لي

بوجه ممتقع في النهاية: لا أحد يرد..

الفصل الخامس عشر

- اذهب لمقر عملك الآن، واتصل من هاتفك الرسمي بشرطة الجامعة، اطلب منهم خدمة "من شرطي لشرطي "واجعلهم يذهبون لمقر سكن بيتر بكاليفورنيا، ليتفقدوا إن كان بالمنزل أم لا.

- سيهزءون بي، من المعتاد ألا يجيب طالب جامعي هاتفه في الصباح الباكر.

- أقنعهم، ثق بي وافعل ما قلته لك.

- تعال معي.

"قالها بتردد"..

بينما هززت رأسي نفيًا.

- سأنتظر هنا لأني أريد التحدث مع عملاء القطاع الخاص مرة أخرى.

- لن تستطيع أن تجدهم.

- هم من سيجدونني مرة أخرى لأني لم أجب عن سؤالهم إن كانت سوزان قد أعطتني شيئًا أم لا.

- حسنًا.

اتفقنا على أن نتقابل بعد خمس ساعات في نفس المقهى، ورحل جايك..

***

راقبته حتى اختفى عن ناظري وأنا جالس مكاني، ثم تحركت وذهبت للميدان بالحي الثامن، سرت ببطء، كرجل لا يملك وجهة محددة يقصدها، كنت مرهقًا من عدم النوم، لكن القهوة بداخلي تؤدي وظيفتها جيدًا، لا أزال يقظًا ومتأهبًا.. وتخميني أن رجال القطاع الخاص سيكونون بنفس حالتي، فجميعنا ظللنا مستيقظين طيلة الليل، وهنا انتابتني فكرة أخرى بشأن التوقيت، فمن الغريب أني أنتظر ظهور رجال القطاع الخاص في الصباح الباكر مفترضًا أنهم قد تعقبوني طيلة الليل، ومن الأغرب أن تذهب سوزان مارك في رحلة الليلة بالثانية صباحًا لمقابلة أحد الصحفيين أو أيًّا كان سبب قيامها بالرحلة.

ذهبت بتلقائية لبائع الجرائد وتفقدت الصحف، هل كانت سوزان ذاهبة لملاقاة صحفية تعمل بأحد تلك الجرائد؟ منتظرة مقالًا يحمل اسمها وصورتها وخبرًا صادمًا سيتم نشره بالأسبوع المقبل، تخيلتها وهي تقف وحيدة وسط الزحام والقوم اللامبالين يمرون من حولها بينما هي تائهة.. خائفة.. وحيدة..

"أنت دفعتها للانتحار"..

نظرت لانعكاس وجهي بزجاج سيارة أجرة، هل تسبب حديثي مع سوزان مارك في انتحارها؟ ربما كانت على حافة الهاوية بالفعل، مترنحة وتكاد تسقط، حيث لا سبيل للعودة ولا يوجد طوق للنجاة..

ظللت واقفًا أمام بائع الجرائد في انتظار ظهور أي أحد من رجال الشركة الخاصة إياها، لا بد أنهم قد اتبعوني وراقبوني وأنا أدخل المقهى مع جايك وظلوا ينتظرون بالخارج، في الأيام الخوالي اعتاد الحي الثامن أن يكون منطقة شديدة الخطورة، أضواء شارع مكسورة ومتاجر فارغة وبائعات وهوى وقطاع طرق، لقد رأيت أشياء عدة غير قانونية بالحي الثامن، لم أتعرض لمشكلة شخصية به، ولم يهاجمني أحد، ولم يكن هذا بالأمر المثير للدهشة ؛ لأن هيئتي لا ترشحني أبدًا لأكون ضحية محتملة، الآن قد أصبح الحي الثامن منطقة آمنة، مثل أي مكان آخر.. ويعج بالنشاط التجاري، مزدحمًا بالمارة كذلك ؛ لذا كنت أعلم أن هذا قد يقلل من احتمالية ظهورهم لمحادثتي مرة أخرى وسط تلك الزحام، واصلت السير محاولًا التوجه لبقعة خالية، وتزايد الجو حرارة من حولي.

ظهروا بجنوب ميدان "ماديسون "بالقرب من مكتب البريد القديم، كنت أسير متمهلًا عندما وجدتهم يقفون أمامي فجأة، وقال قائدهم بينما أشعة الشمس تنعكس على جبينه: نحن مستعدون للتغاضي عما حدث سابقًا.

- جميل لكني لا أهتم.

- لا زلنا نريد معرفة إن كانت قد أعطتك شيئًا ما، شيء يخصنا.

- يخصك أنت؟

- يخص رئيسنا.

- من أنتم بالضبط؟

- لقد أعطيتك بطاقة أعمالنا.

- نعم نعم ولقد انبهرت بها جدًّا، كانت قطعة فنية خالصة، خصوصًا رقم الهاتف الزائف لو أردت نصيحتي فهو مؤشر على الكسل وانعدام الكفاءة، كان بإمكانكم اختيار رقم يعمل وجلب موظف ما ليجيب عنه ويكمل تلك المسرحية الشيقة التي تؤدونها..

- هل تسمح لنا أن نبتاع لك كوبًا من القهوة؟

***

في المعتاد لم أكن لأرفض عرض قهوة أبدًا لكني سئمت الجلوس، لذا وافقت على كوب قهوة بلاستيكي أستطيع السير به، بإمكاننا شرب القهوة والحديث ونحن نسير، ذهبنا لـ"ستاربكس "طلبت قهوة سوداء بلا سكر وكريمة، طلبي المعتاد، أنا أحب حبوب القهوة في ستاربكس، الأمر كله يتمحور حول الكافيين بالنسبة إليّ وليس المذاق.

سرنا سويًّا في مجموعة عجيبة من الأفراد الحاملين للقهوة ويسيرون في هيئة دائرة ليتبادلوا الحديث..

- أنت حقًّا تستهين بنا، لا أريد الدخول في منافسة استعراض قوة لكني أردت أن أقول هذا.

أجبته: حسنًا.

- أنت رجل عسكري سابق أليس كذلك؟

- بلى.

- لا زلت تحتفظ بسمات رجال الجيش.

- وأنتم كذلك، رجال قوات خاصة سابقون؟

- لم نصل لتلك المرحلة.

ابتسمت، لكونه صادقًا على الأقل..

- لقد تم توظيفنا بشكل مؤقت لأن المرأة الميتة كانت تحمل شيئًا مهمًا معها، ومهمتنا أن نسترجعه.

- وما هو الشيء المهم؟

- معلومات.

- لا أستطيع مساعدتك بهذا الشأن.

- مديرنا كان يتوقع أن تلك المعلومات ستكون في حاملة معلومات إلكترونية متنقلة، لكننا أخبرناه بمدى صعوبة استخراج شيء كهذا من "البنتاجون "وأكدنا أنها ستكون معلومات شفوية، تحتفظ بها المرأة في عقلها.

لم أعلق، وفكرت بسوزان وهي جالسة تتمتم بمعلومات خافتة في القطار كأنها تتدرب على شيء ما أو تحتفظ به في ذاكرتها، لم تكن عبارات استجداء إذن بل المعلومات نفسها، "من هو مديركم؟".. سألته وأنا أرشف القهوة.

- لا نستطيع الإفصاح عن هويته.

- ولماذا هو بتلك الأهمية؟

- لا نعرف ولا نريد أن نعرف، الآن قل لي، لقد تحدثت معك المرأة في القطار أليس كذلك؟

- بلى، لقد تحدثت معي.

- ونتيجة لذلك فالافتراض العام أنها قد أخبرتك بالمعلومات.

- هذا محتمل.

- المدير متأكد من هذا، مما يضعك في مأزق، لو كان الأمر يتعلق بمعلومات إلكترونية فهذا من السهل الحصول عليه، لكننا الآن نتبع احتمالية أن المعلومات في رأسك أنت، ولا بد لنا من استخراجها.

لم أقل شيئًا.

- أنت بحاجة كي تخبرنا.

- كي تبدو كفئًا في عملك.

- كلا، لكي تبقى أنت على ما يرام.

رشفت من القهوة وأكمل الرجل: أنا أستجديك، من رجل لآخر، جندي لجندي، الأمر ليس شخصيًا، لكننا لا نستطيع العودة خالين الوفاض، صحيح أنه سيتم طردنا من الوظيفة وسنجد وظيفة أخرى قبل يوم الاثنين القادم، لكنك ستكون عرضة للخطر ولسوف يعين مديرنا فريقًا جديدًا غير متعاطف مثلنا ليستخرج المعلومات منك..

- أنا لا أريد أحدًا أن يتحدث معي لا أنتم ولا فريق جديد، أنا لست متحدثًا جيدًا.

- تلك ليست بدعابة.

- أنت محق في هذا الشأن، لقد ماتت امرأة للتو.

- الانتحار ليس بجريمة.

- لكن أيًا كان فمن دفعها للانتحار قد ارتكب جريمة بشكل ما، تلك المرأة كانت تعمل لدى البنتاجون، وهذه قضية أمن قومي، أنتم بحاجة لتأمين أنفسكم والحديث لشرطة نيويورك.

- أنا أفضِّل الذهاب للسجن على فكرة الخيانة أو الوشاية بمن أعمل لديهم، هل تفهم ما أحاول قوله بشأن خطورتهم؟

- أفهمك.

- ماذا كانت وظيفتك في الجيش؟

- شرطة عسكرية.

- إذن أنت ميت بالفعل، لا قِبل لك بالخطر الذي يواجهك الآن.

- ومن هو مديرك المسئول عن كل هذا الخطر الرهيب؟

هز الرجل رأسه نفيًا بمعنى أنه لن يفصح.

- كم عددكم؟

نفس الرد السابق.

- أعطني أي معلومة.

- أنت لا تستمع لي حقًّا، ما الذي سيدفعني لإعطائك أنت معلومات بدلًا من الشرطة؟

هززت كتفي دون تعليق وأنهيت قهوتي، رفعت نظري للسماء، وتخيلت وجه سوزان مارك قبل أن أخفض رأسي وأحدق بعين قائدهم وأقول: اتصل بمديرك وأخبره أنك كنت مخطئًا بشأن نظريتك، هي لم تحتفظ بالمعلومات في رأسها، أخبرها أنها اختزنت كل المعلومات في حافظة إلكترونية كما توقع هو، وأن تلك الحافظة معي الآن.. وقدم استقالتك قبل إنهاء المكالمة واغرُب عن وجهي بعدها..

التفت راحلًا بعدها قبل أن يناديني قائدهم، التفت لأجده يخرج هاتفه ويصوبه ناحيتي، ضغط زرًّا ما بينما أضاء "فلاش "الهاتف، ثم استدار ورحل مع رجاله، وكذا فعلت أنا بعدما التقطوا صورتي.

الفصل السادس عشر

متاجر "راديو شاك " متوفرة بكل الأحياء مثل مقاهي "ستاربكس " بالضبط، دخلت أقرب متجر إلكتروني وبدأت أتجول وسط المعروضات، وقد كان البائع بصدد إخراج صندوق القمامة عندما رآني، لكنه وضع الصندوق جانبًا وحيّاني بابتسامة معتذرة قبل أن يسير اتجاهي وبدأ يريني الهواتف الخلوية ذات الكاميرا، بعضهم يسجل فيديو كذلك، تركته ينهي خطبته البيعية قبل أن أطلب منه حافظة معلومات إلكترونية، أخذتها منه ووضعتها بجيبي جوار فرشاة الأسنان ورحلت بعدما أعطيته ثمنها تاركًا إياه كي يخرج القمامة.

تجولت وسط المارة قبل أن أجلس على مقاعد انتظار حافلات، والبشر يسيرون من حولي، تأملتهم قليلًا.. لم يبدُ لي أن أحدهم يتّبعني أو مهتم بي، انصرف بالي لمتابعة الفئران بعد ذلك، فأر كبير كان يعدو صوب غطاء بالوعة بركن الشارع، تبعه عدد صغير من الفئران، لطالما أثارت الفئران اهتمامي أكثر من البشر، أنا أحب الفئران، هناك الكثير من الأساطير والخرافات تحيط بهم، لكن رؤيتهم أو الاحتكاك بهم أمر أكثر ندرة مما يعتقد البشر ؛ لأن الفئران كائنات خجولة، الفئران التي تظهر للعين المجردة هي في الأغلب مريضة أو تتضور جوعًا، وبالمناسبة الفئران لا تعض وجوه الأطفال الرضع النائمين لأغراض سادية، بل يجذبهم آثار الطعام على شفاه الأطفال ليس أكثر، ولذا اغسل فم طفلك قبل النوم وكف

عن لوم الفئران، ولا توجد فئران ضخمة في حجم القطط، كل الفئران حجم واحد.. اختفى الفئران عن ناظري بعد ذلك وشعرت بوحدة وملل..

وقفت وبدأت أسير مرة أخرى وعيناي تطالعان اللافتات الإعلانية بالشارع، أحدهم كان ملصقًا إعلانيًا بخصوص قطار الأنفاق الجديد، وهناك لافتة عن عرض مسرحي غنائي ببرودواي، عدت للنظر للافتة الخاصة بقطار الأنفاق، فالراكب المهووس بالقطارات أخبرني بهذا الشأن الذي يخص فكرة أن القطارات الإلكترونية لا توجد فواصل بين عربياتها، مثل نوع "ر١٤٢ أ س"، وتحدث معي عن خاصية الاستشعار في تلك القطارات لتجنب الحوادث، مثلًا لو وضعت بالقرب من الباب فلسوف ينفتح تلقائيًا ويتوقف القطار عن رحلته، بعض الصبية المشاغبين يمارسون هذا الأمر كنوع من اللعب؛ ولذا تم إصدار لائحة تجريم وعقوبة لمن يوقف القطار دون سبب فعلي، سرت ودلفت لمحطة الأنفاق، استقللت قطارًا من نوعية "ر" وهو قطار تقليدي ذو فواصل وكل شيء، ومررت بمحطتين قبل أن أصل لمحطة ميدان النقابة، وهناك ذهبت لشارع رقم ١٧، حيث المكتبة المركزية العملاقة، المرشحون السياسيون يذهبون أحيانًا لتلك المكتبة لتوقيع كتب سيرهم الذاتية قبل بدء موسم الانتخابات، كان بإمكاني الذهاب لمقهى إنترنت والبحث هناك لكني في الحقيقة لا أحب كل التكنولوجيا الحديثة، كما أن الجميع الآن معهم حواسب آلية متنقلة وهواتف خلوية، وبالتالي فلقد أصحبت مقاهي الإنترنت مثلها مثل كابينة الهواتف، شيء منقرض لا داعي له،

في حين ظلت المكتبات صادمة لسبب ما.

دخلت المكتبة وسرت لركن الإصدارات الواقعية حيث كتب التاريخ والسير الذاتية، بحثت قليلًا حتى وجدت ما أريده، كتب عن المرشحين السياسيين وسيرهم الذاتية، استغرقني بعد هذا الكثير من الوقت حتى وجدت اسم جون سانسوم، الكتاب كان سميكًا ويحمل عنوان "دومًا متفانٍ في العمل".. التقطت الكتاب وذهبت لإحدى المناضد الخالية بالمكتبة وبدأت أطالعه، حملت الكتاب بعدها واتجهت للطابق الثالث بحثًا عن المجلات الإعلانية الخاصة بالمرشحين، كان هناك الكثير من الإعلانات داخل تلك المجلات، أشياء تتعلق بالرعاية الطبية والاهتمام بالمسنين والبطالة وغيره.. بعد ساعة من القراءة أدركت أن أغلب الصحفيين وكتاب الوسط السياسي يميلون لجون سانسوم، ويعتبرونه نجمًا صاعدًا في عالمهم، ليس كمرشح سياسي فحسب بل كرجل مجتمع وقد لمح العديد منهم أنه يمتلك مقومات مرشح رئاسي كذلك.. غلاف الكتاب كان منمقًا ولامعًا، وقد اعتلى اسمه الغلاف ومن أسفله العنوان، وصورة أنيقة وباسمة له، رجل يافع في السن يرتدي حلة أنيقة، شعر مصفف بعناية، ابتسامة واثقة، وعينان متألقتان تحملان رسالة واضحة: لا بد أن تثقوا بي.. وقد استقرت صورة قديمة بزي الجيش على إحدى صفحات الكتاب، وهو يرتدي الزي الخاص بقوات "الدلتا".. وهناك صورة أخرى لميدالية شرف قد حاز عليها إبان خدمته، وقد أدلت سيرته أنه رئيس تنفيذي لشركته الخاصة "سانسوم للاستشارات" التي أسسها بعد فترة عمله بالجيش، أصابني

الملل وبدأت أتفحص الكتاب بدلًا من قراءته، هناك خمسة أقسام..

حياة جون سانسوم المبكرة.

عمله بالجيش.

جوازه وتأسيسه لعائلته.

حياته في عالم إدارة الأعمال.

رؤيته السياسية.

طبعًا هناك الكثير من الحديث عن كونه رجلًا عصاميًا ومكافحًا، وستجد استفاضة بالحديث عن أيام الفقر الشاقة والأعمال العديدة التي كان يقوم بها بنفس الوقت، ابتسمت رغمًا عني، وفقًا لسير المرشحين السياسيين كلهم فإن الولايات المتحدة دولة فقيرة اقتصادية والكل يعاني من الفقر فور مولده وهذا طبعًا محض هراء..

لم أفهم جيدًا الجزء الخاص بشركة سانسوم للاستشارات وإدارة الأعمال، لم يكن هناك ذكر واضح لماهية نشاط الشركة، فقط الكثير من التلميحات ليس أكثر، لكن الحقيقة أن سانسوم قد جنى ثروة طائلة من تلك الشركة، وهو مرشح سياسي فاحش الثراء في تلك اللحظة، لم أهتم بتلك الجزئية، عادة ما أشعر بالسعادة لوجود مائتي دولار في جيبي ولا أعرف ما هو مفهوم سانسوم عن الثروة الطائلة.

أما عن رؤيته السياسية فلم يكن هناك أي شيء جديد

سوى وعود معتادة للناخبين، تقليل معدل الضرائب وزيادة جودة الخدمات العامة، ماذا تريدون بخلاف هذا؟ انخفاض في الأسعار، إليكم ذلك، واصلت التصفح ووصلت لجزء أشبه بألبوم صور، حيث يوجد صور لسانسوم في طفولته ويوم عرسه ومع أهله، صور له بمختلف المراحل العمرية، ثم توقفت قليلًا..

كانت هناك صورة مختلفة وغريبة..

الفصل السابع عشر

كانت صورة من جريدة إخبارية وقد رأيتها من قبل منذ مدة طويلة، صورة لسياسي يدعى دونالد رامزفيلد في بغداد وهو يصافح قياديًا معروفًا في الشرق الأوسط، في عام ١٩٨٣، في تلك الحقبة كان رامزفيلد يعمل كنائب للرئيس رونالد ريجان بعدما كان وزيرًا للدفاع على فترتين متواليتين، وقد أرسله ريجان لكي يعطي قيادي مشهور في بغداد الأوسمة والهدايا كنوع من التعبير عن امتنان الولايات المتحدة الأبدي له، قبل أن تمر ثمانية أعوام ويختفي هذا الامتنان ويتحول إلى حرب بين الولايات والقيادي الشهير، وبعد خمسة عشر عامًا قامت الولايات بقتله، على أي حال تعليق سانسوم على الصورة في الكتاب كان: أحيانًا يتحول أصدقاؤنا لأعداء، وأحيانًا أخرى يصبح الأعداء أصدقاء لنا..

تنهدت، لكونه تعليقًا سياسيًا لا طائل منه، ولا يوجد خوض بتفاصيل تلك المرحلة، قرأت بعدها تاريخ سانسوم في الجيش بحرص ؛ لأن تلك هي منطقة خبرتي، لقد انضم سانسوم للجيش في عام ١٩٧٥ وتركه عام ١٩٩٢، سبعة عشر عامًا في الخدمة العسكرية، في حقبة زمنية لا بأس بها، فقد انتهت حرب فيتنام حينئذ، وكان هناك تطورات في إدارة الجيش وتمويلات فعالة، وبدا من طريقة سرد سانسوم أنه قد استمتع بفترته في الجيش، وصف تدريباته بدقة وشمولية وحكى عن فترة انضمامه لقوات دلتا، أنا أعلم أن أفراد الدلتا قادرون على خوض ماراثون كامل وهم مستيقظون لأسبوع،

ولم يُخْفِ سانسوم في مذكراته حقيقة أنه طموح، لكني شعرت بمصداقية فيما يحكيه، حماسه عن مأموريات الدلتا وتطلعه لما هو قادم على سبيل المثال.. كما أنه تجنب ذكر سلبيات ومساوئ الدلتا مثل أكل الحيوانات والانتظار لأيام دون فعل شيء والبيروقراطية وقد حسبت له نقطة عدم الشكوى تلك، تحدث عن خدمته في باناما وجنوب إفريقيا، ومشاركته في حرب الخليج عام ١٩٩١، بخلاف ذلك تحدث عن الكثير من التدريب والاستعداد والتخطيط، ولكي أكون موضوعيًا فإن جون سانسوم هو أول رجل سياسي يتحدث عن خبرته بالجيش دون مبالغة للعامة والمدنيين.

خرجت من المكتبة وأنا أتذكر ما قاله لي موظف "راديو شاك "عن خزانة المعلومات والتصوير واستقللت قطار الأنفاق عائدًا للمقهى حيث وجدت جايكوب مارك بانتظاري، ولم يكن سعيدًا على الإطلاق..

الفصل الثامن عشر

كان يجلس شاحب الوجه وقد صفف شعره أخيرًا، بينما يرتدي سروالًا أسود وقميصًا أبيض، كل ما ينقصه هو لافتة مكتوب عليها: رجل بائس، فقد كان يبدو تعيسًا ومرهقًا، لكن لم يكن هناك قلق أو خوف يعتلي وجهه.. جلست أمامه في مواجهة نافذة المقهى لكي أتمكن من مراقبة المارة في الشارع بنفس التوقيت..

- هل تحدثت مع بيتر؟

- كلا، لكني اعتقدت أنه بخير.

- تعتقد؟

أتت نفس النادلة من وردية عمل الصباح قبل أن يرد وقد كنت جائعًا للغاية لكي تتمكن مني حساسية الموقف فطلبت سلطة التونة مع البيض واللحم المقدد، والكثير من القهوة، تنهد جايك وطلب شطيرة جبن مقلية وزجاجة مياه معدنية.

نظرت إليه بتمعن بعد رحيل النادلة وقلت بهدوء: أخبرني ما الذي حدث؟

- لقد فعلت كما قلت وطلبت معونة شرطة الجامعة وقد فعلوا هذا، هم يعرفون بيتر بالفعل لأنه نجم كرة قدم هناك في الكلية، لكنه لم يكن في سكنه، وسألوا رفاقه الذين قالوا لهم إن بيتر يتسكع بالخارج مع فتاة ما.

- أين بالضبط؟

- لا أعلم.

- ومن هي الفتاة؟

- أصدقاؤه قالوا إنها فتاة قابلها في حانة ما.

لم أعلق.

- بم تفكر؟

- من الذي تعرف على الآخر، بيتر أم الفتاة، هذا ما أفكر به..

- أفهم مقصدك لكن أصدقاءه قالوا إن بيتر هو الذي تحدث لفتاة الحانة، لذا لا أعتقد أنها "ماتا هاري"(1) بعد كل شيء.

- هل أعطوك مواصفات الفتاة؟

- جذابة للغاية حسب وصفهم، أكبر من بيتر قليلًا، ربما في الخامسة والعشرين من عمرها.

- ماذا عن اسمها؟

- لا أحد يعرف.

- هل هي بائعة هوى؟

- كلا، هؤلاء الفتية بإمكانهم تمييز شيء كهذا هم ليسوا حمقى.. وقد قالوا إنه ظل مع الفتاة لأربع ساعات في الحانة قبل أن يرحلوا، بائعات الهوى لا يستغرقن كل هذا الوقت..

- ربما يكون الأمر كله مخططًا له.

- لقد خضت بتلك الاحتمالية عدة مرات في ذهني، ربما

ساعة ستكون كافية للشك، لكن أربع ساعات تبدو كمدة حقيقية للغاية، لا أعتقد أن للفتاة دخلًا في الأمر..

- أفهم جيدًا ما ترمي إليه وأنا كنت في الثانية والعشرين من العمر يومًا ما، رغم أن علاقة قد تدوم لأربع ساعات هي بمثابة التزام طويل بالنسبة لي كخطبة أو زواج، لكن ستبقى نقطة أن سوزان قد تأخرت على اللحاق بموعد؛ ما أدى لانتحارها، هذا هو تخميني، والآن السؤال ما الذي سيدفع بأم لقتل نفسها عند التأخر عن موعد ما؟ هل كان بيتر موضع تهديد؟ هل هو بخير؟

- نعم هو بخير أنا واثق من هذا.

أتت النادلة بالطعام الذي بدا شهيًا، وتناولته بنهم، بينما جايك يسألني: هل وجدك رجال الشركة الخاصة؟

- نعم.

وحكيت له ما حدث بفم ممتلئ بالتونة.

- تبًا هم يعرفون اسمك إذن، هذا ليس بأمر مبشر..

- آه هه كما أنهم يعرفون أني قد تحدثت مع سوزان على متن القطار.

- كيف؟

- هم رجال أمن سابقون ولديهم معارف في شرطة نيويورك لا يوجد تفسير آخر بخلاف هذا.

- تيريسا لي ودوشيرتي؟

- ربما وقد يكون أي ضابط آخر مناوب اطّلع على ملف القضية.

- وقد أخذوا صورتك، هذا سيئ.

- أعلم.

- وماذا عن الفريق الآخر الذي هددوك به؟ لم يظهروا بعد.

نظرت للشارع من خلف زجاج النافذة ولمحت انعكاس وجهي وأنا أغمغم مجيبًا: ليس بعد.

- وماذا عن سانسوم؟

- لم يبدُ لي أنه فعل شيئًا ذا أهمية حقيقية ليسترعي هذا القدر من الاهتمام.

- سانسوم طريق مغلق آخر.

- مجرد احتمالية لأنه كان رائدًا في الجيش، ثم تمت ترقيته فجأة بعدها، ومن الصعب أن تحظى بترقية بعد رتبة رائد في الدلتا، لا بد أنه قد فعل شيئًا أثار إعجاب الإدارة، أنا كنت رائدًا وظللت في تلك الرتبة لحين رحيلي.. وأعلم جيدًا كيفما تدار تلك الأشياء.

- ربما ظل في الوظيفة فحظي بالترقية، بينما أنت قررت الرحيل.

- كلا، الأمور لا تسير على هذا النحو في الجيش، لقد حصل سانسوم على وسام الشجاعة مرتين وعدد آخر من

الميداليات.

- الجميع يحصلون على ميداليات شرفية.

- ليس هذا النوع من الميداليات، أنا حصلت على الميدالية الفضية ذات مرة وهي تعتبر لا شيء بالنسبة لما حصل عليه سانسوم، إنه لم يذكر حتى هذا النوع من الأوسمة، ولا يوجد رجل سياسي سينسى ذكر إنجاز له، إذن فهو لم يذكرها لأنه لم يهتم بها حقًّا لأنه قد حصل على ما هو أكثر قيمة.

- أو أنه يكذب بشأن الميداليات.

- غير ممكن، الشئون المعنوية تتابع تلك المذكرات وتصدق عليها.

- إذن..

- هو يخفي نقاطًا معينة حدثت إبان خدمته بالجيش.

- لماذا؟

- لأنه قد قام بأربع مهمات في حرب الخليج لكنه لم يذكر شيئًا عن تفاصيلهم مما يجعل الأمر شديد الوضوح إنها مهمات سرية، الرجل في طليعة فجر الانتخابات وبالتأكيد هو يقاوم إغراء التباهي بمهامه العسكرية في الحرب.

- أي نوع من المهام السرية؟

- كل الأنواع تنطبق هنا، من اغتيالات سرية للإبادة الشاملة.

- وهل اطلعت سوزان على طبيعة تلك المهام السرية مما

أدى لمقتلها؟

- من المستحيل أن يتمكن موظف سجلات من الولوج لملفات كتلك هذا لو كان قد تم تسجيل طبيعة تلك المهمات من الأساس.

- إذن كل تلك الفرضيات ليست ذي فائدة بالنسبة إلينا..

- هذا يساعدنا في نفي أو تأكيد مسألة تورط سانسوم بالأمر.

- وهل هو متورط؟

- بالطبع، لأي سبب آخر سيذكرون اسمه؟

وتابعتُ دون أن أنتظر إجابته: لنرحل عن هنا، نحن هدف سهل للغاية للفريق الجديد إياه.

***

الحقيقة أن مانهاتن هي من أفضل وأسوأ الأماكن التي قد تتعرض بها للمطاردة، الأفضل؛ لأنها مزدحمة بالمارة، وهذا يعطيك شعورًا ما بالأمان، والأسوأ لأنها مزدحمة بالمارة مما يجعلك عرضة للهجوم المباغت من أي اتجاه في أي لحظة، قلت لجايك ونحن نسير سويًا: لقد أخبرتني أن كل قضايا الانتحار التي تعرضت لها كانت إما لأسباب مالية أو عاطفية.

- هذا صحيح.

ثم صمت ورفع حاجبيه بعد أن قرأ ما يجول بخاطري وهتف: أنت تعتقد أن سوزان كانت على علاقة عاطفية مع

سانسوم؟

- هذا أمر وارد يا جايك، ربما تقابلوا في وزارة الدفاع، ربما انبهرت بالمرشح السياسي الشاب والوسيم ذي الخبرة العسكرية، فالتقطت له صورة وبدأت الأغاني الرومانسية بعدها..

- لكنه متزوج.

- هذا هو بيت القصيد، مرشح سياسي متزوج يخوض علاقة عاطفية مع امرأة أخرى قبل بدء الانتخابات.. ربما تلك هي المعلومات..

- لا أستطيع تخيل أمر كهذا، سوزان لم تكن من تلك النوعية التي تدخل في علاقات مع رجال متزوجين..

- ربما كان سانسوم على علاقة مع امرأة أخرى تعرف سوزان.

- هذا احتمال مستبعد.

- نعم.. نعم.. مستبعد.. كما أن طريقتهم في استقصاء الأمر تشير لوجود نوع آخر من المعلومات بخلاف الخيانة الزوجية..

- ربما سوزان كانت تعمل مع سانسوم ضد شخص آخر.

- لكنها قد أتت إلى نيويورك لتلقى حتفها ولم تذهب لواشنطن أو شمال كارولاينا للقاء سانسوم.

زفر جايك وهز كتفيه بحنق وهو يهتف مرة أخرى: أنا تائه.

- هناك احتمالية أخرى.

- وما هي؟

- سانسوم تورط في علاقة غرامية مع سوزان إبان عمله في الجيش.

- لم يكن متزوجًا حينئذ.

- ولكن ربما هذا كان ضد قوانين اللائحة العسكرية بشكل ما ؛ لأنها موظفة بالدفاع وهو في قوات الدلتا، الجيش لديه قوانين صارمة بشأن العلاقات الغرامية.

- هل تعرضت أنت لشيء كهذا؟

- نعم.. منذ وقت طويل.

- حسنًا، وأنت تعتقد أن تلك العلاقة القديمة قد عادت على شاكلة شائعات لتطارد سانسوم.

- محتمل.. ربما سوزان لم تكن الطرف الآخر على العلاقة لكن أحد شهودها، وليلى هوث هي الطرف الآخر، قد تكون زميلة سانسوم في قوات الدلتا مثلًا.. والآن أحدهم يحاول ربط اسم جون سانسوم بليلى هوث لإثارة فضيحة حول المرشح السياسي..

وسيبقى أمر رجال الشركة الخاصة والتهديد بشأن مديرهم البربري القادر على إثارة الرعب في قلوب الجميع، أنا أعلم أن الحقل السياسي خطر ولكن لتلك الدرجة؟

لم يجبني جايك.. أردفت: ونحن لا نعلم أين يوجد بيتر في تلك اللحظة..

- لا تقلق بشأن بيتر هو رجل ناضج ويجيد الاعتناء بنفسه، شاب رياضي صلب وكل شيء.. وقريبًا ستقرأ عنه في الجرائد كنجم من نجوم كرة القدم..

- أتمنى ألا أقرأ عنه في الجرائد لأسباب أخرى.

- لا تقلق.

- حسنًا، ما الذي تريد فعله الآن؟

استند جايك على حافة سيارة، ولاحظت أننا قد سرنا وعدنا لاوعيًا لنقف أمام مرآب مركز الشرطة، لمحت سيارة المحققة ثيريسا لي بينما أشعة الشمس تنعكس عليها، التفت صوب جايك الذي تنهد في مرارة وقال ببطء: لقد ماتت سوزان ولن يهم كثيرًا معرفة سبب موتها، سأبلغ زوجها السابق وأنظم ترتيبات الدفن..

- لكني أريد معرفة سبب موتها.

- أنا أخوها ولا أريد أن أعرف، لماذا تهتم أنت لتلك الدرجة؟

- أنت لم تكن هناك عندما حدث الأمر.

نظر لي دون تعليق، ثم صافحني ورحل مطأطئ الرأس، تابعته حتى اختفى عن ناظري، وتوقعت أني سأراه مجددًا خلال أسبوعين أو ثلاثة..

لكنني كنت مخطئًا بهذا الشأن..

الفصل التاسع عشر

ظللت واقفًا مكاني لفترة لا أعلمها لحين خروج ثيريسا من مركز الشرطة، كانت تسير مع رجلين في زي الشرطة الرسمي ذي اللون الأزرق.. تسير بإرهاق وهي تتمطأ.. لقد استلمت قضية سوزان مارك بعد الثانية صباحًا، مما يجعلها أحد المحققين الذين يعملون بالنوبة الليلية، ونحن الآن في منتصف نهار اليوم التالي للجريمة، ست ساعات من العمل الإضافي في حساب المحققة ثيريسا لي من فضلك، أمر جيد لراتبها ومضر لصحتها النفسية، كانت تقف بمنتصف الشارع، قبل أن تراني.. اتسعت عيناها ونكزت الضابط الواقف جوارها، وقالت شيئًا ما، ورغم أنني كنت أقف على مسافة كافية كي لا أسمع ما قالته بالضبط لكني خمنت من لغة الجسد والإيماءات أنه شيء على غرار: هذا هو..

تحرك الاثنان بسرعة، ونظرا حيثما أشارت هي بطريقة قالت لي إنهم ضباط شرطة محليون معتادون على السير لأنهم لم ينظروا للدراجات البخارية أو السيارات بل بحثوا بين المشاة قبل أن تستقر أعينهم عليّ ويأتون مسرعين، ظللت واقفًا دون حركة لحين وصولهم وقال أولهم: نحن بحاجة للحديث إليك.

- أعرف.

- كيف؟

- لأنك هرولت في الشارع كي تصل إلي كأني سوف أختفي

فجأة دون سابق إنذار.

- هل تعلم لماذا؟

- لا أمتلك أدنى فكرة، ربما أنت تريد تقديم الدعم النفسي لي بعد الخبرة المروعة التي تعرضت لها.

ارتجفت شفتا الرجل وتكورت قبضته، وهو يهم بأن يلكمني، ثم تمالك نفسه وابتسم مجبرًا وهو يقول بينما يجز على أسنانه: بالطبع، سأدعمك نفسيًا بطريقة خاصة جدًّا، أجب عن بعض الأسئلة وانس بعدها أنك كنت على متن هذا القطار.

- أي قطار؟

كاد أن يجيبني قبل أن يقطع كلامه بغتة بعدما استوعب أني أسخر منه، قلت له: وأي أسئلة؟

- ما هو رقم هاتفك؟

- أنا لا أمتلك رقم هاتف.

- لا هاتف خلوي؟

- كلا.

- حقًّا؟

- بلى، أنا الرجل الوحيد الذي لا يمتلك هاتفًا خلويًا، أنت قد وجدت هذا الرجل فهنيئًا لك.

- هل أنت من كندا؟

- ما الذي سيجعلني كنديًّا؟

- المحققة قالت إنك تتحدث الفرنسية..

- الكثيرون يتحدثون الفرنسية دون شروط خاصة للجنسية الكندية، هناك دولة كاملة تتحدث الفرنسية في أوروبا كما تعلم.

- هل أنت فرنسي؟

- والدتي كانت فرنسية.

- ومتى كانت آخر مرة قمت فيها بزيارة لكندا؟

- لا أتذكر، في الأغلب منذ أعوام.

- هل لديك أي معارف كنديين؟

- كلا.

صمت الرجل.. تريسا لي تقف مكانها وتراقبنا من على بعد، تحدث الرجل بلهجة صارمة: ما حدث كان مجرد انتحار على متن القطار ليس أكثر.. أمر مؤلم لكنه ليس بالأمر المثير ولا هو بالغ الأهمية.. الأشياء السيئة تحدث طيلة الوقت، هل تفهمني؟

- هل انتهينا هنا؟

- هل أعطتك شيئًا ما؟

- كلا.

- هل أنت متأكد؟

- نعم، هل انتهينا؟

- لماذا أنت متعجل؟ هل لديك خطط ما؟

- سأرحل عن المدينة.

- وإلى أين أنت متجه؟

- مكان آخر بعيد.

بصق الرجل وقال بحدة: لقد انتهينا، والآن اغرُب عن وجهي.

ظللت واقفًا مكاني حتى رحلوا هم، دلفوا لسيارتهم واختفوا وسط الزحام.

تيريسا لي لا تزال تقف مكانها، عبرت الشارع متجهًا إليها وقلت فور وصولي: ما سبب كل تلك الجلبة؟

- لقد وجدوا سيارة سوزان مارك في منطقة "سوهو" وقطروها للقسم.

- حسنًا.

- وقد فتشوها بالطبع.

- لماذا بالطبع؟

- لأنهم مهتمون للغاية بالبحث عن شيء ما كان في جعبة سوزان مارك.

- وماذا وجدوا في السيارة؟

- لا شيء سوى وريقة مدون عليها رقم هاتف.

- يخص من؟

- لا أعلم، لكنه يحمل رمز ٦٠٠، وهو رقم كندي..

- همم..

- لكني لا أعتقد أنه رقم هاتف على الإطلاق، أعتقد أنه رقم شيء آخر.

مدت يدها في حقيبتها وأخرجت وريقة مطوية مكتوب عليها بخط اليد: ٦٠٠ ٨٢٢١ ٩ د

- هل تلاحظ شيئًا؟

قالتها وهي تتفحص وجهي وأنا أنظر للوريقة..

- ربما هو رقم تابع لشبكة خاصة خفية، بعض الشركات العالمية تستخدم أرقامًا كتلك، ربما هو رقم كندي..

- إلا أنه ليس برقم هاتف على الإطلاق، هو شيء آخر، رقم متسلسل أو رقم ملف ما.. هؤلاء الحمقى يهدرون وقتهم..

- وربما هو مجرد رقم في سيارة ولا يوجد له أي دلالة.

- ليست مشكلتي في النهاية.

- هل كانت هناك حقائب في سيارتها؟

- كلا، عدا بعض المخلفات المعتادة التي ستجدها في السيارات.

- إذن فلقد كان من المفترض أن تكون تلك رحلة ذهاب وعودة سريعة لسوزان مارك دون حاجة فعلية لحقائب.

تثاءبت ثيريسا ولم تجبني، كانت مرهقة وغير مهتمة..

- هل تحدث هؤلاء الرجل لأخي سوزان؟

هزت ثيريسا كتفيها ومطت عنقها وهي تجيب: لا أعلم.

- يبدو لي أن أخاها يريد الانتهاء من الأمر برمته.

- موقفه مفهوم، هناك دومًا سبب مخزٍ للانتحار والأهل لا يريدون معرفته.

- وماذا عنكم أنتم؟ هل ستغلقون ملف القضية؟

- لقد تم إغلاقه بالفعل.

- وهل أنت راضية؟

- ما هو السبب الذي سيجعلني غير راضية؟

- الإحصائيات، بمعنى أن ثمانين بالمائة من المنتحرين رجال، والانتحار أكثر ندرة في الشرق عنه في الغرب، كما أن اختيارها لمكان الانتحار شديد الغرابة، لا أحد ينتحر داخل عربة قطار أنفاق..

- لكن رغم كل إحصائياتك تلك هي قد فعلت كل هذا وأنت رأيتها بأم عينك وهي تفعله، لا توجد شكوك، وتلك ليست بجريمة قتل متخفية بشكل بارع كانتحار..

- ربما أحدهم دفعها لقتل نفسها، جريمة قتل بواسطة

الانتحار..

- لو صح كلامك هذا فكل جرائم الانتحار التي تسبب بها طرف خارجي هي في الحقيقة جرائم قتل.

ثم رفعت رأسها صوبي، بطريقة تشي بأنها تريد الرحيل، لكنها كانت من اللطف الكافي كي لا تقول هذا بشكل واضح، قلت لها: حسنًا، كان من اللطيف مقابلتك، الوداع.

- هل سترحل عن المدينة؟

- نعم.. أنا ذاهب لواشنطن..

الفصل العشرون

استقللت القطار المباشر لواشنطن، ووجدت نفسي أتأمل الركاب من حولي، امرأة ورجلين، يبدون جميعًا كمحامين من زيهم وتعابير وجوههم، لا يوجد مفجر انتحاري بينهم، استندت برأسي فوق زجاج النافذة، وأغمضت عيني وأنا أفكر في جملة: "ربما حديثك معها هو ما دفعها للانتحار"، "أريني ما الذي يوجد في حقيبتك"..

ترفع سوزان مارك عينيها نحوي، ففتحت عينيّ وتنهدت، مرت الساعات ووصلت لواشنطن، سرت بحذر وسرعة وأنا أتفقد إن كان أحدهم يتبعني، ثم وصلت لمبتغاي.. أقدم مبنى في الولايات المتحدة بأسرها، مبنى الكونجرس..

سألت موظف الأمن عن تواجد مستر سانسوم من شمال كارولاينا بالداخل، تفحص الرجل قائمة أمامه وأجابني بأن جون سانسوم موجود بالداخل، طلبت منه إعطاء رسالة لمكتب سانسوم فأخرج ورقة وقلمًا، وأعطاني إياهما، وجهت الرسالة للرائد جون سانسوم، وكتبت التاريخ والوقت، ثم أضفت: لقد شاهدت امرأة تموت ليلة أمس وهي تنطق باسمك..

لم يكن هذا صحيحًا لكني لم أمانع تلك الكذبة الصغيرة، ووقفت الرسالة باسم: الرائد جاك ريتشر..

سلمت الرسالة للموظف وظللت بالخارج.. أنتظر..

الفصل الواحد والعشرون

لم أكن أتوقع ظهور سانسوم بنفسه، وإنما في الأغلب سوف يرسل إليّ بعضًا من موظفيه، أو منتدبيه أيًا كان اسمهم.

انتظرت بالخارج وتجولت قليلًا في المتحف الشهير بالكونجرس ثم عدت للجلوس، مرت ستون دقيقة قبل أن يأتيني مندوب للحديث معي بلباقة بشأن رسالتي الغريبة، ما حدث بعد ذلك هو أني وجدت زوجة جون سانسوم ومدير الأمن الخاص بحملته الانتخابية يقفون أمامي، زوجته كانت تبدو بالضبط كما يجب أن تكون عليه حالة زوجة رجل فاحش الثراء، شعرها ذهبي ولامع مصفف بعناية وبطريقة باهظة الثمن عند متخصص ما يعمل مع نجوم هوليوود، هي أقصر بإنشين من زوجها في الأغلب، تعرفت على ملامحها من صورها بكتاب سيرة سانسوم، أما مدير الأمن فقد كان ضخم الجثة ورياضي الجسد، قوي البنيان، يشبه سانسوم في هيئة جسده، لكنه أكثر قوة وصلابة مما بدا عليه سانسوم في الصور، رجل قوات خاصة في الدلتا بلا ريب، يرتدي حلة تم تفصيلها خصيصًا لتناسب جسده، في البدء رأيتهم وهم يقفون بالزحام ويتلفتون حولهم بحثًا عن المخبول الذي كتب الرسالة، رفعت يدي إليهم دون أن أقف، فساروا صوبي، السيدة سانسوم كانت تسير بنعومة وهي ترتدي حذاءها الفاخر، كأميرة من قصة خرافية، أما مدير الأمن فقد كان يسير بخشونة، توقفوا على مقربة مني وعرفت الزوجة نفسها باسم "إليزابيث "في حين همس مدير الأمن

باسمه بطريقة تهديدية وخطيرة "براوننج".. الحقيقة أن الأخ براوننج كان أمرًا مفاجئًا بالنسبة لي، لم يتم ذكره في الكتاب الخاص بسانسوم، وبإمكاني تمييز نظرة الكلب المخلص لصاحبه في عينيه، لقد خدم مع سانسوم في الجيش وربما أنقذ الأخير حياته في حرب الخليج، استقال معه من الجيش وكرّس حياته لخدمته، إنه لم يترك الجيش بل غُيّر من الإدارة فحسب، حيث لم يعد يعمل للقوات المسلحة، وإنما صار جنديًا متفانيًا يعمل لدى سانسوم الآن.. قالت لي الزوجة في كبرياء: لقد كسبنا الكثير من الانتخابات من قبل وقد قابلنا أمثالك، في العديد من المرات، هؤلاء الذين يحاولون فعل ما تفعله أنت الآن، ولم ينجح أحدهم من قبل..

- أنا لا أحاول فعل شيء بعينه، ولا أكترث على الإطلاق بشأن انتخاباتكم.. لقد ماتت امرأة وأنا أريد معرفة السبب.

- أي امرأة؟

- موظفة بوزارة الدفاع، أطلقت النار على صدغها ليلة البارحة..

تبادلت إليزابيث نظرة مع براوننج وقالت: لقد قرأت عن الأمر بجريدة نيويورك تايمز، لقد حدث الأمر بوقت متأخر لينشروه في باقي الجرائد.

- حدث الأمر في الثانية صباحًا.

- وما علاقتك أنت بموتها؟

- أنا الشاهد.

- وهي ذكرت اسم زوجي؟

- هذا شيء سأتحدث بشأنه مع زوجك، أو مع جريدة النيويورك تايمز.

- هل تهددنا؟

قالها براوننج في حزم ممزوج بغضب..

- اعتبره تهديدًا، ما الذي ستفعله بهذا الشأن؟

- اسمعني جيدًا يا صاح، إن لم تكن رجلًا صلبًا فلا يمكنك فعل ما يفعله جون سانسوم - ولا أنا - في الحياة.

- رائع إذن كلنا أشداء ها هنا.. مثل الصخور، والآن متى سأقابل مديرك؟

- لقد ذكرت أنك رائد، في أي مجال بالضبط؟

- المجال القادر على إخافتك أنت وأمثالك، لكني لا أسعى لإيذائك، هذا لو لم تكن بحاجة لقليل من الإيذاء بالطبع.

فتح براوننج فمه لكن إليزابيث سارعت بالقول لتهدئة الموقف: السابعة مساء..

ثم ذكرت اسمًا أوروبيًا ما فهمت أنه تابع لمطعم فاخر، وأردفت هي: سيقابلك زوجي لخمس دقائق..

ثم تفحصتني من رأسي لقدمي وأكملت: ولا تأتِ مرتديًا ما ترتديه الآن وإلا لن يسمحوا لك بدخول المطعم..

***

كان أمامي ثلاث ساعات لقتلهم قبل السابعة مساء..

استقللت سيارة أجرة لمتجر ملابس قريب، ابتعت سروالًا وقميصًا ثم ذهبت لفندق لا بأس به وحجزت غرفة، لم يكن هناك نظام حجز نصف يوم وقد مرت الساعة الثانية عشرة منذ دهر؛ لذا حجزت يومًا كاملًا، دلفت للغرفة وأعطيت الإكرامية لعاملة الغرفة التي نظفتها بحماس ورحلت، ارتميت على الفراش وغفوت قليلًا، أيقظني المنبّه إياه داخل رأسي وارتديت ملابسي، طلبت قهوة من الفندق وأنا في طريقي للخروج، وسرت قليلًا لأنشط من نفسي قبل أن أستقل سيارة أجرة للمطعم.. ونظرت في ساعتي..

السابعة إلا خمس دقائق..

الفصل الثاني والعشرون

حل الظلام في السابعة مساء في واشنطن..

دخلت المطعم متجاهلًا النظرات المتشككة للنادل ورواده، سرت ببطء كأني معتاد على زيارة تلك الأماكن، لم أرَ سانسوم وإنما رأيت الكثير من الرجال ذوي البزات الرسمية وفتيات بفساتين سهرة فحسب، لا بد أن سانسوم بالداخل خلف هذا الباب المعدني، قاعة كبار الزوار في المطعم، هنا رأيت براوننج يظهر من العدم ويقف أمامي..

- لنذهب.

- أين؟ لقد اعتقدت أن سانسوم هنا.

- فكر مرة أخرى أيها المتحذلق.. سانسوم لم يكن يأتي ويأكل في مكان وضيع كهذا، لم أكن لأتركه يأتي هنا حتى لو أراد هو ذلك، مكان غير آمن تمامًا.

- إذن لماذا أحضرتموني هنا؟

- كان علينا أن نأتي بك لمكان ما.

قالها كأني لا أعني له شيئًا.

- سانسوم على مقربة من هنا، لديه اجتماع مهم، سيلقاك لخمس دقائق فقط قبل بدء الاجتماع.

- حسنًا لنذهب..

جلس السائق ينتظرنا داخل سيارة رابضة أمام المطعم،

والمحرك يدور بالفعل، دلفت للسيارة جوار براوننج بالمقعد الخلفي وأدار السائق المقود لتدور عجلات السيارة وتتحرك بنا ببطء، مررنا جوار المجتمع التاريخي بالحي الشهير بواشنطن، ولم نتوقف عند أي من الفنادق المتراصة على يسارنا، انعكست على عيني ملامح جامعة جورج واشنطن ونحن نمر جوارها، ثم انعطفنا يسارًا متجهين لفيرجينيا، استمر السائق في القيادة لحين وصولنا لمبنى "ووترجيت "حيث المباني الفندقية والشقق السكنية والمكاتب والحديقة الخضراء في المتنزه، أوقف السائق مكابح السيارة وظل براوننج في مقعده، ثم قال دون أن ينظر لي: إليك القواعد بخصوص ما هو على وشك أن يحدث، سآخذك للأعلى، وسوف تدخل لمقابلته بمفردك، لكني سأكون بالخارج، أقف خلف الباب، هل تفهم هذا جيدًا؟

أومأت برأسي، أنا أفهم جيدًا مقصده، ما يرمي إليه ومغزى كلامه، لم أحب التهديد لكني أحببت تفانيه من أجل سانسوم، سيكون من المؤسف أن أحطم رأسه لو اضطررت لفعل هذا، ترجلنا من السيارة ومررنا جوار حارس أمن يجلس أمام شاشة حاسوب ودخلنا المصعد، ثم ترجلنا منه في الطابق المقصود، وقال براوننج مشيرًا لباب مكتب في نهاية الردهة: هناك، وسوف أنتظرك هنا..

سرت حتى وصلت للباب وأدرت مقبضه، كان هناك ثلاثة رجال ينتظرونني بالداخل ولم يكن سانسوم أحدهم.

الفصل الثالث والعشرون

الغرفة كانت خالية تمامًا من الأثاث، والرجال الثلاثة هم نفس العملاء الفيدراليين الذين قاموا باستجوابي بمركز الشرطة، لكنهم لم يبدوا أنهم مسرورون لرؤيتي مرة ثانية، كما أنهم لم يتحدثوا في البدء، وإنما قام قائدهم بالتقاط جهاز تسجيل من جيبه، وضغط زرًا ما لينبعث صوته وهو يسأل: هل أخبرتك بأي شيء؟ بعد ثوانٍ من الصمت المسجل انبعث صوتي مجيبًا: "لا شيء ذو أهمية"..

وضع بعدها الجهاز في غمده وأخرج ورقة صغيرة تعرفت عليها جيدًا، ورقة مكتوب عليها بخط يدي: لقد شاهدت امرأة إبان لحظة موتها، وآخر ما تمتمت به شفتاها قبل موتها كان اسمك".. أو شيء من هذا المعنى، لا أذكر حرفيًا ما كتبته، هنا تحدث قائدهم: إذن فهي قد أخبرتك بشيء ما في نهاية المطاف، أنت كذبت في شهادتك لعملاء فيدراليين، بإمكاننا أن نزج بك في السجن لأمر كهذا..

- لا أعتقد أنك ستفعل هذا.

- لِمَ لا؟ لماذا تعتقد أنك حالة خاصة؟

- لا شيء خاص بشأني، لكن ما هو البرهان أنك حقًا عميل فيدرالي؟

وتابعت عندما لم يجبني: أنت لا تستطيع أن تحظى بكل المزايا، تريد أن تلعب دور المحقق الغامض دون أن تريني هويتك الرسمية، من أين يتسنى لي إذن معرفة من أنتم؟

ربما أنك موظف رعاية صحية في دار مسنين، أو هارب من مصحة نفسية وتحب لعب دور المحقق الفيدرالي، ربما أنك تحب الكذب على المدنيين، لا يمكننا الزج بك في السجن لأمر كهذا أليس كذلك؟ وإلا كنا سنجد كل المسئولين خلف القضبان.

- لقد أخبرناك بهويتنا.

- لم ترني إياها، البشر يخبرون بعضهم بالكثير من الهراء..

- هل نبدو لك كموظفين في دار مسنين؟

- في الحقيقة نعم، بالمناسبة أنا لم أكذب عليك، لقد كذبت على سانسوم، أو لنقول إني ربما فعلت ذلك.

- وأي الأمرين هو الحقيقة؟

- هذا شأني الخاص طالما لم أرَ هويتك بعد..

- ما الذي تفعله بالضبط في واشنطن وما الذي تسعى إليه خلف لقاء سانسوم؟

- هذا شأني الخاص كذلك.

- أنت تريد استجوابه أليس كذلك؟

- هل لديك قانون يجرم فكرة أن يسأل البشر بعضهم البعض بضع أسئلة.

- أنت شاهد، والآن أنت محقق؟

- إنها بلد حرة وبإمكاني فعل ما أريد.

- سانسوم لا يستطيع أن يخبرك بأي شيء.

- ربما..

- هل تحب لعب "التنس"؟

سألني قائدهم هذا السؤال فجأة بعد برهة من التفكير، وأردف: هل سمعت عن جيمي كونرز أو بيجرون بورج أو جون ماكينروي؟

- آه هه، لاعبو تنس أرضي منذ الزمن السحيق.

- ما الذي سيحدث لو عادوا للمباراة في البطولة القادمة؟

- لا أعلم.

- سيتعرضون لهزيمة نكراء لأن هذا لم يعد زمنهم، بإمكان اللاعبات الإناث هزيمتهم كذلك، لقد كانوا أبطالًا فيما مضى، لكنهم رجال مسنون الآن، وتلك لم تعد حقبتهم، الوقت يغير من كل شيء، واللعبة لم تعد كما كانت، هل تفهم ما أقوله؟

- كلا.

- لقد رأينا سجلك العسكري، أنت كنت نجمًا ساطعًا فيم سبق، محقق شهير في الجيش، ذو وسائل استنباط مبهرة، لكن هذا الزمن قد ولّى، نحن في عالم جديد الآن وأنت لم تعد مهمًا في هذا العالم..

استدرت صوب الباب وقلت: هل براوننج لا يزال ينتظر بالخارج أم رحل؟

- من هو براوننج؟

- الرجل الذي أقلني إلى هنا، مدير أمن حملة سانسوم..

- لقد رحل واسمه ليس براوننج، إنك تبدو كفتاة جميلة تائهة في الغابة، لا تحاول أن تكون كما كنت فيما سبق..

لم أعلق، فقط أخذ ذهني يفكر فور سماعه لكلمة فتاة جميلة في أمر جايكوب مارك وابن أخته بيتر، الذي التقى بفتاة جميلة في الحانة ورحل معها..

أضاف أحد الرجلين الآخرين: انس كونك محققًا، أنت شاهد، ولسوف تخبرنا بما أخبرتك به المرأة بشأن سانسوم، لن ترحل من هنا قبل أن تخبرنا.

- سوف أرحل من تلك الغرفة وقتما شئت.

- في أحلامك.

- الكل يعلم اسم سانسوم لأنه مرشح سياسي أليس كذلك؟ على أي حال لقد سمعت اسمه من أربعة محققين خاصين بنيويورك.

- من هم بالتحديد؟

- رجال شركة أمن وتحقيق خاصة ببطاقة عمل مزيفة..

- تلك قصة واهنة للغاية، هل تعلم ما أعتقده؟ أظن أنك قد سمعت تلك الحكاية من سوزان مارك نفسها..

- لماذا تهتمون بسوزان مارك لتلك الدرجة؟ ما الذي ستعرفه

موظفة سجلات بوزارة الدفاع ليمثل تهديدًا خطرًا لرجل مثل سانسوم؟

لم يتحدث أحد لكن صمتهم كان غريبًا ومختلفًا تلك المرة، كأن الهواء يهمس خلال هذا الصمت: نحن لسنا قلقين بشأن سوزان فقط، إنه الجيش، الماضي، الحاضر، المستقبل، البلد بأكملها، العالم بأسره..

- من أنتم؟

لا رد.

- ما الذي كانت تفعله سوزان حينئذ؟

- حين ماذا؟

- حينما كان سانسوم في الجيش.

- ما الذي تعتقد أن سانسوم فعله؟

- أربع مهمات عسكرية باللغة السرية.

عاد الصمت للغرفة ثم قال قائدهم: كيف تعرف بشأن مهمات سانسوم؟

- لقد قرأت كتاب سيرة حياته.

- لم يذكر الكتاب شيئًا عن تلك المهمات.

- لكن هناك إشارة للأوسمة والميداليات.. دون تفسير واضح عن كيفية حصوله عليهم..

لا تعليق.

أردفت: ولا يوجد سبيل لسوزان مارك أن تعرف أي شيء بخصوص تلك المهمات.

- أحدهم سألها.

- وأين الضرر في هذا طالما أنها لم تعرف شيئًا؟

- نحن نريد معرفة هوية من سألها.

- هذا واضح، أنت تريد معرفة كل شيء، لكني لا أعرف من سألها.

- لكنك تريد أن تعرف ولذا أنت هنا..

- أنا رأيتها وهي تفجر رأسها، لم يكن هذا بمشهد جميل، ونعم هذا يجعلني أريد معرفة السبب..

- إنه دومًا مشهد غير جميل عندما يفجر أحدهم رأسه، لكن هذا ليس مبررًا لك لكي تكون عاطفيًا وتتورط في مشاكل وربما تعرض حياتك للخطر.

- أنت قلق بشأني، يا له من أمر لطيف!

لا تعليق.

- أم أنك قلق أني سوف أكتشف شيئًا ما...

قال ثالثهم: وما الذي يجعلك تعتقد أن هناك فارقًا بين الأمرين؟ أنت سوف تكتشف شيئًا ما فتقضي باقي عمرك في السجن أو في المقبرة..

وأضاف أولهم: فرصتك الأخيرة، كن الشاهد ليس أكثر

وأخبرنا ما الذي قالته لك سوزان مارك عن سانسوم؟

- لا شيء.

- لكن اسمه متورط بالفعل وهناك من يسألون عنه.

- آه هه.

- وأنت لا تعلم من الذي يسأل عنه؟

- كلا.

- حسنًا، انسَ الأمر برمته وارحل ونحن لن نقوم بتعقيد حياتك البسيطة تلك..

نظرت إليه منتظرًا التهديد، فقال إزاء تعبير وجهي: ولكن تذكر، أنت لم تعد بطل تنس، وتلك ليست لعبتك الآن، سنحوِّل حياتك إلى جحيم ونذيقك العذاب والأمرَّيْن لو واصلت تحقيقك الأخرق هذا.. كن شاهدًا ومواطنًا مطيعًا وابقَ بعيدًا عن كل هذا..

لم أعلق، تبادلنا نظرات صامتة ثم استدرت ورحلت.. كنت أفكر في إليزابيث سانسوم وما قالته لي وأنا أخرج من المصعد، "لا تأتِ مرتديًا تلك الملابس وإلا لن يسمحوا لك بدخول المطعم".. لقد أبهرتني بدقتها في الكذب، لقد جعلتني أبتاع ملابس أنا لست بحاجة حقيقية إليها..

خرجت من البناية وسرت وسط هواء الليل الدافئ في المدينة.. وعدت لمنطقة"دي بونت"، حيث المطعم الذي كان من المفترض أن ألقى سانسوم به، وقد استغرق الطريق

عشرين دقيقة من السير لأصل هناك..

الفصل الرابع والعشرون

عادة ما يستغرق إعداد الوجبات في مطعم كهذا ساعة على الأقل كي يتم تسليمها على منضدة الطعام، ولو صح توقعي بشأن وجود سانسوم في المطعم فلسوف ينتهي من وجبته ويفكر في تدخين سيجار مع قدح قهوة الآن، دخلت المطعم ووجدت وجوهًا جديدة، المزيد من الرجال ذوي الحلل والنساء ذات فساتين السهرة، سرت نحو الباب المعدني وأتت النادلة فقلت لها بثقة: أنا مع عضو الكونجرس..

لم أنتظر ردها، وفتحت الباب المعدني..

سانسوم لم يكن بالداخل..

لم أجد سانسوم ولا زوجته ولا الرجل الذي يدعو نفسه بيراوننج..

التفت نحو النادلة التي رفعت أحد حاجبيها وسألتني: عمن تبحث؟

- جون سانسوم.

- إنه ليس هنا.

- لقد أدركت هذا الآن.

هنا رفع شاب متباهٍ رأسه من على منضدة قريبة وقال بتفاخر أمام فتاته: آه تبحث عن مرشح الكونجرس من شمال كارولاينا، لقد غادر، لديه حفل جمع تبرعات في جرينسبورو غدًا، لقد سمعته وهو يحكي هذا لوكيلي..

كان من الواضح أن الشاب يتحدث لفتاته بشكل غير مباشر متباهيًا بوكيله، كائنًا من كان هذا..

خرجت من المطعم في صمت متوجهًا لجرينسبورو بشمال كارولاينا، لقد حان وقت لقاء جون سانسوم..

***

نمت طيلة الطريق في الحافلة وعرفت بعدها أننا قد مررنا بريتشموند، فيرجينيا، وراليج وأخيرًا دورهان ومن ثم بيرلينجتون، استيقظت عند وصولنا لجرينسبورو قرابة الرابعة صباحًا، تجولت قليلًا حتى وجدت ما أبحث عنه، مطعم صغير به مجلات ودليل هاتف إلى جانب وجبة الطعام التي لا تمثل فارقًا كبيرًا بالنسبة إليّ بين مطعم وآخر.. تخميني أن حفل جمع تبرعات لمرشح سياسي وسيم سيكون على شاكلة خبر أنيق داخل إحدى الجرائد المحلية، في الأغلب سيكون بفندق مثل الشيراتون أو حيات(2) وجرينسبورو بها الفندقان، ظللت أبحث في الجرائد وأنا أتناول وجبتي، وجدت خبرًا عن الحفل الخيري لكني كنت مخطئًا بشأن الفندق، ليس الشيراتون وليس حيات، حفل جون سانسوم سيقع بفندق يدعى "واو هينري "والذي بدا أنه تمت تسميته عقب اسم الكاتب الشهير والذي تعود أصوله لشمال كارولاينا، كان هناك عنوان تفصيلي مكتوب، مع الموعد وكل شيء، كافأت نفسي بكوب قهوة كبير، لا يوجد شيء أفضل من كوب قهوة سوداء بعد وجبة طعام.

خرجت من المطعم واستقللت سيارة أجرة لفندق "واو هينري"، كان بإمكاني السير لكني أردت الوصول وأنا غير متعرق وبحالة جيدة، الفندق كان أنيقًا وعريقًا ويحاول أن يبدو كأنه بناية حديثة الإنشاء، وهناك شابة يافعة تقف خلف ركن الاستقبال، بدت متوترة قليلًا كأنها جديدة في هذا العمل، قلت لها بابتسامة عريضة: أنا هنا لحضور إفطار جون سانسوم.. لم ترد الموظفة وبدا أنها تعاني لتجد تعبيرَ وجهٍ وردًا دبلوماسيًا فأكملت: كان من المفترض أن يتركوا تذكرة الحضور خاصة بي هنا..

- تذكرتك؟

- أقصد دعوتي.

- من الذي كان سيتركها لك؟

- إليزابيث، أعني مسز سانسوم أو رجلهم.

- أي رجل.

- موظف الأمن.

- تقصد مستر سبرينجفيلد؟

ابتسمت لنفسي، سبرينجفيلد اسم زائف مثله مثل براونج، كلاهما مصنع أسلحة وبنادق في العشرينيات، هذا الرجل يحب لعبة الأسامي المستعارة.. رفعت رأسي للموظفة وسألتها في نبرة لطيفة - في محاولة معرفة ما إذا كان سانسوم وزوجته قد قضوا ليلتهم هنا -: هل هم لا يزالون

بغرفتهم؟

- أعتقد ذلك.

- شكرًا لك.

سرت للردهة الرئيسية ومنها لقاعة الحفل الخيري، وأنا أبحث بطرف عيني عن أي رجل يرتدي حلة فاخرة متوقعًا أن يكون سانسوم، لم يكن قد ذهب لقاعة الاستقبال بعد، كان هناك شرطي للتأمين يقف، رجل يافع بزي رسمي، ذهبت إليه محاولًا رسم ابتسامة ساحرة وأومأت برأسي بطريقة: كلانا يؤدي وظيفته، ما الذي يتسنى له فعله سوى طلب القليل من الراحة؟

سرت بعدها لغرفة سانسوم بعد أن عدت للموظفة المتوترة وأخذت منها رقم الطابق والغرفة..

كان هناك شرطي آخر يحرس الغرفة، أعطيته نفس الابتسامة بنفس المغزى وقلت له: الاسم ريتشر.. جاك ريتشر.. أنا هنا للقاء مستر سانسوم.. ثم وقفت جواره وطرقت باب الغرفة، لم يأتِ الشرطي برد فعل، لا اعتراض ولا سؤال، وإنما ظل مكانه ينتظر، بعد وهلة انفتح باب الغرفة قليلًا وأطلت من خلفه رأس السيدة سانسوم.. بينما تستند جسدها على الباب ويدها لا تزال على المقبض.. كانت ترتدي فستانًا جميلًا وطلاء وجه فاخرًا ومستعدة لليوم..

- مرحبًا يا إليزابيث، هل يمكنني الدخول؟

الفصل الخامس والعشرون

نظرت مستمعًا لتعابير وجهها المتغيرة بين الامتعاض والرغبة في طردي ثم إدراك أن هناك شرطيًا وصحافة بالخارج والأمر سيثير جلبة غير مرغوب بها، ثم قالت إليزابيث ببطء وهي تتكلف ابتسامة واسعة: الرائد ريتشر، تفضل بالطبع، من الجميل رؤيتك مرة ثانية..

وأفسحت لي مجالًا للدخول...

كانوا ينزلون بجناح وليس غرفة، أثاث ناعم وسميك، شرفة بحجم شقة، سرت لمنتصف الجناح.. وخرج جون سانسوم من غرفة النوم ليقف في ردهة الجناح أمامي، كان يرتدي قميصًا وسروالًا ولم ينتهِ بعدُ من ربطة عنقه، حافي القدمين، بدا لي في الواقع أنه أصغر حجمًا من صوره وأن رأسه غير متناسق مع جسده، تلك هي سلبية أن تطالع صورًا عديدة للشخص قبل رؤيته.. كان يمتلك كاريزما واضحة مصحوبة بطاقة هائلة وقوة شخصية مع نوع مع العزيمة والإصرار الواضح..

- أين سبرينجفيلد؟

قالها سانسوم دون أن ينظر إليّ، فتنهدت إليزابيث مجيبة: ذهب للردهة ليتفقد بعض الأشياء، لا بد أنهم استخدموا مصاعد مختلفة.

هز سانسوم رأسه، وظل ينظر إليها كأنه يهيئ عقله لحقيقة أنه مجبر على الحديث معي الآن، بعد صراع داخلي التفت

ناحيتي وقال دون تعبير وجه معين: أنت رجل عنيد للغاية.

- لقد سمعت هذا من قبل..

- لماذا لم تستمع للرجال الفيدراليين؟

- من كانوا هم بالضبط؟

- أنت تعلم جيدًا ماهيتهم، ومن المفترض أنهم حذروك..

- لم يفلح تحذيرهم كما ترى.

- كنت أتوقع هذا، لقد أروني ملفك وقلت لهم إنهم سيفشلون.

- كانوا يتحدثون معي كما لو كنت أحمق، كما أنهم دعوني برجل عجوز خارج لعبته، مما يجعلك أنت أيضًا رجلًا عجوزًا فاقد لياقته بالنسبة للعبتك الحالية.

- لقد كبرت على كل هذا الهراء بالفعل.

- أريد الحديث معك لمدة عشر دقائق.

- لا أمتلك سوى خمس دقائق.

- هل لديك قهوة؟

- أنت تضيع الوقت الآن.

- لدينا الكثير من الوقت، أكثر من خمس وعشر دقائق، ارتدِ حذاءك وانتهِ من ربطة عنقك ولسوف يستغرق هذا دقائق.

هز سانسوم كتفيه وذهب لمائدة الإفطار جوار الثلاجة وبدأ

يُعِدّ القهوة، حملها وعاد إليّ قائلًا: ادخل في صلب الموضوع من فضلك.

- هل كنت تعرف سوزان مارك؟

أجابني وهو ينظر في عيني ويهز رأسه نفيًا بنفس الآونة: كلا، لم أقابلها ولم أسمع عنها قبل وفاتها.

كنت أراقب عينيه، وقد صدقته، ثم سألته: لماذا تقوم موظفة سجلات بتفقد أمرك؟

- هل هذا هو ما حدث؟

- هذا تخميني.

- لا أمتلك فكرة عن دوافعها للقيام بشيء كهذا، فقط أعرف أن الصحفيين يحاولون دومًا التواصل مع موظفي السجلات للحصول على المعلومات، وأنا لا أمتلك معلومات سرية.

- مهماتك في الدلتا كانت تحت بند السرية.

ساد الصمت لدقائق ثم غمغم سانسوم: كيف تعرف بشأن تلك المهمات؟

- الأوسمة والميداليات التي حظيت بها في سجلك العسكري دون ذكر أسباب، لقد تم ذكرهم في كتابك.

- هذا الكتاب اللعين.. كان عليّ ذكر الأوسمة والميداليات لأنهم في سجلي بالفعل، إن الحياة السياسية هي حقل ألغام حقيقي، وبإمكانك دومًا أخذ الخطوة الخاطئة..

ثم سار خطوة اتجاهي وسألني: هل تعتقد أن هناك آخرين يمكن أن يخمنوا بشأن المهمات مثلك؟

- أكيد، ملايين، الكل كان في الجيش والأغلبية يمتلكون عقولًا قادرة على التفكير..

- دعك من السخرية، لا يمتلك كل الناس عقولًا تحليلية، ولا أحد سيقرأ كتابًا كهذا بتمعن وبشكل مفصل..

- لنعد لنقطتنا الرئيسية، أحدهم كان يريد معلومات عنك من سوزان مارك.

- هل قامت حقًّا بذكر اسمي؟

هززت رأسي نفيًا.

- لقد كان هذا لجذب انتباهك ليس أكثر، لقد تم ذكر اسمك من قبل رجال تحقيق خاص يعملون لدى شخص مجهول..

- وما هو دخلك في كل هذا؟

- لا شيء سوى أن سوزان بدت كشخص لطيف في مأزق ولم يأبه أحد بمساعدتها..

- وأنت تكترث لأمرها؟

- أنت تهتم أيضًا، أو كنت ستهتم لو لم تكن منخرطًا بالعمل السياسي..

- هل أنت في دائرتي الانتخابية؟

- سأكون عندما تترشح للرئاسة.

- اسمع يا رجل.

قالها ملوحًا بيديه بطريقة السياسيين في التحدث مع الحشود كالأطفال وأردف: لقد أخبرني رجال المكتب الفيدرالي أنك تتعامل مع الأمر كله بمنطلق تأنيب الضمير، أنت تشعر بالمسئولية كأن حديثك معها قد تسبب في انتحارها.

- هذا رأي محققة واحدة.

- وهل هي محققة؟

لم أعلق.

- هل تتوقع حقًّا أن أخبرك بأي شيء عن مهماتي السرية؟

- كلا.

- إذن؟

- ما هو قدر المعلومات القادر على إيذائك من تلك المهمات؟

- لا يوجد خير وشر في تلك الحياة.. ليس حقًّا.. يوجد بشر وأخطاء..

- كلا، يوجد شر، وهذا الشر كان يمثل مصدر هلع لسوزان كما أن ابنها مختفٍ.

نظر سانسوم بتلقائية لزوجته قبل أن ينظر إليّ قائلًا: لم نكن نعرف هذا..

- لم يتم التبليغ عن الأمر بشكل رسمي لكنه مفقود، لقد غادر

حانة مع فتاة ولم يظهر بعدها.

- وكيف توصلت أنت لتلك المعلومات؟

- عن طريق شقيق سوزان.

- وأنت لا تصدق أن ابنها لا يزال مع تلك الفتاة.

- تبدو ملائمة أكثر من اللازم.

- لماذا؟ الفتية يغادرون الحانات مع الفتيات طيلة الوقت.

- أنت لديك أبناء، هل ستقتل نفسك لإنقاذ أحدهم؟

علا صدر إليزابيث وهبط في انفعال وهي تقول: تبًّا.

في حين امتقع وجه سانسوم.. ثم قال بصوت خفيض: أنا حقًّا آسف بشأن ما حدث لآل مارك، سوزان والابن، لكن لا يوجد شيء في سجلي السري يمكن الولوج إليه من سجلات الدفاع، هذا الأمر لا يتعلق بي على الإطلاق.

- أين يمكن لهم أن يبحثوا عن سجلاتك السرية إذن؟

- أنت تعلم أين وتدرك جيدًا أن لا أحد يستطيع الاقتراب من مكان كهذا.

- وليس لديك فكرة عما يتمحور حوله الأمر؟

- لا فكرة على الإطلاق.

- حقًّا؟

- نعم، أنا لست بأحمق ولم أكن لأنجح في الحقل السياسي

لو أنني كذلك، لا توجد فضائح إبان حياتي المهنية ولا حتى مخالفة مرورية..

- حسنًا.

- أنا آسف بشأن المرأة في القطار.

- حسنًا.

قلت له قبل أن أرحل: هل سمعت عن امرأة تدعى ليلى هوث من قبل؟

- ليلى هوث، لم أسمع عنها من قبل..

كنت أراقب إجابته، بدا لي أنه صادق للغاية، ولكن يكذب من قلبه في نفس الوقت..

الفصل السادس والعشرون

قابلت سبرينجفيلد أو براوننج، أيًا كان اسمه وأنا في طريقي للخروج من الفندق، لم يندهش لرؤيتي، وإنما نظر لي باحترافية كأنه يقيم أدائي ولم يبدُ منبهرًا، وأكمل مسيرته دون تبادل حرف، عدت لنيويورك بنفس الطريقة التي أتيت بها، لكني ظللت متيقظًا تلك المرة، إذن فسانسوم يدّعي عدم معرفة شيء، وبيتر لا يزال مختفيًا، وسوزان لم تكن لتقدر على الوصول لملفات سانسوم، ولا يوجد خير وشر في حياة بل أخطاء وفقًا لسانسوم، وزوجته لم تعلق سوى بكلمة "تبًا "عندما عرفت أن بيتر مختفٍ، ومن هي ليلى هوث؟.. انصب تفكيري بعدها لشيء آخر تمامًا، ما هي وجهة سوزان مارك في نيويورك؟ لقد ركنت سيارتها ولسبب غامض ما ارتدت السترة الشتوية، لم تكن لتقود بها بالتأكيد، وبعدها ترجلت إلى قطار الأنفاق، الذي كانت متجهة إليه قبل أن تأخذ قرار إنهاء حياتها؟ مكان ركن سيارتها يشير بأنها تريد الخصوصية، هل كانت تخبئ شيئًا ما في السترة الشتوية ولم ترد لأحد أن يراها وهي تضع هذا الشيء قبل خروجها من السيارة؟

لقد ركنت سيارتها في سوهو، وفي الأغلب بدأت رحلتها في الأنفاق من محطة سبرينج، ومرت بشارع ٣٣، هل كانت متجهة للمحطة المركزية؟ أم شارع ٥١؟ ربما كانت متجهة لشارع ٥٩، لكن ليس أبعد من هذا، لأن شارع ٨٦ بعيد للغاية وفي أعلى شرق نيويورك توجد هناك منطقة سكنية كاملة، لو كانت متجهة إليها فسوف تستقل قطار لينكولن السريع

الذي لا يقف بمحطات ويصل لوجهته بشكل أسرع، رسمت خارطة ذهنية وبدأت أتخيل الشوارع من ٤٢ لـ٥٩ مرورًا بالحي الخامس ووصولًا لمنطقة ٨٦ السكنية.. هناك ثمانية ملايين وجهة يمكن أن تقصدها سوزان في كل تلك الأماكن.. ثم تشتت للحظة عندما رأيت شابة شديدة الجاذبية تبدو كعارضة أزياء، ذكرني هذا بالفتاة الغامضة التي قابلها بيتر في الحانة، هل اختطفوه وهددوا سوزان به؟ تذكرت كلام المحقق الخاص عن مديرهم الغامض وتهديداته.. وقد حدث هذا عندما أدركت أن أحدهم يراقبني..

الفصل السابع والعشرون

هناك شيء يجب معرفته بشأن البشر وهو أنهم يرون ما يريدون رؤيته فحسب، خذ عندك ما حدث على سبيل المثال، ها أنا ذا أسير وسط الزحام، بعد أن لمحت رجلًا ثلاثينيًّا ذا عينين واسعتين ومحدقتين يراقبني من على بعد ويسير خلفي، ظللت أسير في الممر المزدحم لخروج الركاب من محطة الوصول لنيويورك، وأنا أشعر به يتقرب من خلفي، وجدت مانعًا زجاجيًّا فنظرت إليه مسرعًا لألمح انعكاسه فوجدته يقترب أكثر، اصطدم بي أحدهم من الخلف فالتفت مسرعًا لأجد امرأة تعتذر مبتسمة بعد ارتطام حقيبتها بي، هنا اتسعت عينا المراقب وسقط أرضًا فاقدًا للوعي، تجمهر حوله البعض وأنا منهم، البشر يرون ما يريدون أن يروه فحسب، فهم لم يروني وأنا أعود للخلف وأرفع يدي متثائبًا قبل أن أهوي على عنق الرجل وأواصل السير، لم يروه وهو يتصلب.. يترنح.. قبل أن يسقط، وإنما رأوا رجلًا يفقد وعيه فحسب، بينما هتفت المرأة ذات الحقيبة: يا إلهي، لعله يمر بنوبة.

- نوبة؟

- نوبة صرع أو أزمة قلبية.

قلت باهتمام ممزوج بتعاطف وأنا أنحني لأتفقد جيوبه: لنرى إن كان معه روشتة طبية أو دواء إذن..

- نعم أرجوك افعل هذا..

وانحنت المرأة وهي تفتشه معي، قلت لها بعدما اتضح أن

كل جيوبه فارغة: تفقدي جيوب سرواله بسرعة.

- لا أستطيع فعل شيء كهذا.

تبادلنا الأدوار بلهفة وتفقدت جيوب سرواله.. لا يوجد شيء.

انضم إلينا رجل ثالث ليساعدنا وقلت لهم بيأس: لنطلب له الإسعاف، الحقيقة أني قد فقدت هاتفي وسط تلك الجلبة، هل ترون هاتفي؟

تلفتت المرأة حولها، والتقطت هاتفًا أسفل ذراع الرجل وسألتني: هل هذا هو هاتفك؟

- آه نعم شكرًا لك.

قلتها وأنا آخذ هاتف الرجل.. لكنها نظرت للتأكد صوب شاشة الهاتف فوجدت صورتي تعتلي الشاشة، لا بد أنهم اعتقدوا أني نرجسي يبالغ في حب نفسه ولم يخطر لهم أن الرجل كان يصورني قبل أن أفقده وعيه.

أجريت مكالمة وهمية للإسعاف وقلت لهم وأنا أبتعد: سأبحث عن الشرطة.

وسارعت الخطا خروجًا من المحطة واختفيت وسط زحام المدينة..

الفصل الثامن والعشرون

لم أعد الرجل الوحيد في العالم الذي لا يملك هاتفًا خلويًا بتلك اللحظة، توقفت في زقاق جانبي مظلم وبدأت أتفقد هاتف الرجل، لم تكن هناك كلمة سر، مما يدل أنه هاتف تم شراؤه جديدًا وخصيصًا لمراقبتي، ذهبت لخانة الأستوديو ووجدت صورًا عديدة عالية الجودة لي تم التقاطها أثناء مراقبتي، لم تكن هناك صور أخرى بخلاف هذا، عدت لسجل الهاتف وبحثت في المكالمات الصادرة والواردة، ولكن لم يكن هناك صادرات، فقط ثلاث مكالمات واردة، كلهم من نفس الرقم، لا بد أنه يجب على الرجل أن يمسح دليل المكالمات باستمرار لكنه أصيب بالكسل وانشغل بمراقبتي، عدت أنظر للرقم، لأدرك أنه لم يكن تابعًا لهاتف خلوي، بل هاتف أرضي، برمز ٢١٢، وهو رمز مانهاتن، المخابرات لديهم طرق فعالة في تقصي الأرقام ومعرفة بياناتها وموقعها، أنا لا أمتلك سوى أكثر الطرق فعالية، الاتصال بالرقم مباشرة واستكشاف من سيرد، ضغطت بإصبعي بعد أن حركته ببطء على زر الاتصال الأخضر وأجريت الاتصال، ألصقت الهاتف بأذني وسمعت بالكاد رنة واحدة قبل أن تتحول المكالمة لمجيب آلي سرعان ما انقطع بدوره بعدما أجابت امرأة باحترافية: فندق"الفورسيزونز"، كيف لي أن أخدمك؟

- همم، فندق الفورسيزونز..

- نعم، كيف يمكنني مساعدتك؟

- معذرة، الرقم خطأ..

أنهيت المكالمة ورفعت رأسي لأعلى مفكرًا، أنا أعرف هذا الفندق رغم أني لم أُقِمْ به من قبل، فهو أعلى مما تتحمله ميزانيتي، لكني أعرف أنه يقع في حي "ماديسون "جوار المتنزه، لن يكون الطريق طويلًا بالنسبة لي، بدأت السير ثم واتتني فكرة جعلتني أعود أدراجي وأذهب لقسم شرطة نيويورك، لا أعلم موعد بدء وردية العمل الليلية للمحققين لكني توقعت أن ثيريسا لي ستصل هناك خلال ساعة على أقصى تقدير، لا بأس، سوف أنتظرها هناك، وصلت لقسم الشرطة وأخبرت الرقيب بالاستقبال أني جئت لمقابلة المحققة ثيريسا لي، ثم صعدت للطابق الثاني، ووجدت جايكوب مارك يجلس ممتقع الوجه جوار غرفة الاستجواب، لم يبدُ عليه الدهشة عند رؤيتي، وإنما رفع رأسه فحسب وقال بصوت أجش: بيتر لم يظهر بعد..

الفصل التاسع والعشرون

ظل جايكوب يتحدث لمدة خمس دقائق كاملة دون انقطاع بطريقة الشخص المحموم بالتفكير والمقبل على الإدلاء بكارثة في الحديث، حيث بدأ يتكلم فور جلوسي جواره، وهو يتصبب عرقًا ويرتجف بنفس الآونة: بيتر لم يظهر بعد، لم يذهب لموعد تدريب كرة القدم في الجامعة، مما أثار دهشة الجميع؛ لأن تلك مرته الأولى في التغيب، اتصلوا بوالده وقد اتصل بي بدوره، أنت لا تفهم، المرء لا يتغيب فجأة عن تدريب كرة القدم، هذا لا يحدث ببساطة حتى في حالة وفاة الأقارب والأمراض والأعاصير ستجد نجم الفريق يحضر التدريب، تلك إحدى اللوائح المهمة والتي تعكس مدى أهمية كرة القدم في الجامعة، والفتى لديه مستقبل باهر هناك، أن تتغيب فجأة دون إخطار مسبق عن تدريب الفريق فهذا أشبه برجل مطافئ يرفض الذهاب لإخماد حريق في منزله، أو كرجل مسلح في الغرب القديم يظل رابضًا عند الحلاق ويرفض الخروج لملاقاة التحدي، المرء لا يتغيب فجأة عن تدريب كرة القدم، بيتر أفنى حياته كلها من أجل حلمه هذا..

لم أكن أستمع حقًّا لما يقوله جايكوب، وإنما أحسب الوقت داخل عقلي، سوزان تحاول اللحاق بموعد ما، تقتل نفسها، الثانية صباحًا، مر قرابة يومين على موتها، لماذا لم تظهر جثة بيتر بعد؟!

هنا وصلت تيريسا لي، وفي جعبتها أخبار جديدة..

***

في البدء أخذت ثيريسا لي جايك لمكتبها، ذهبت معهم دون استئذان وجلسنا نحن الثلاثة، نظرت ثيريسا لملف أمامها ثم سألت جايك: هل تم التبليغ رسميًا أن بيتر مفقود؟

- كلا لكني أريد فعل هذا الآن.

- بالتأكيد لكن لا يمكنك فعل هذا هنا، لأنه مفقود في دائرة لوس أنجلوس وليس نيويورك..

- والدته قتلت هنا.

- لقد أنهت حياتها بنفسها هنا ولم تقتل.

- شرطة الجامعة لا تعمل بقضايا الطلبة المفقودين، شرطة لوس أنجلوس تتولى هذا وهم لن يأخذوا الأمر بجدية؛ لأنهم غير مدركين لأبعاد القضية.

- مستر مارك، جايكوب.. دعنا ننظر للحقائق، بيتر رجل بالغ في الثانية والعشرين من العمر.

- هو مفقود منذ خمسة أيام.

- المدة ليست مهمة في حالتنا تلك ؛ لأنه لا يعيش في المنزل مع والديه، ومن الذي يستطيع تحديد نمط حياته؟ ربما هو معتاد على التغيب لأيام فجأة.

- كلا هو لم يكن ليتغيب عن التمرين أبدًا.

- لكنه تغيب الآن وأصدقاؤه شاهدوه يغادر الحانة مع فتاة

جميلة.. هذا أشبه بتوديعهم له في المطار..

- سوزان كانت عرضة للتهديد قبل وفاتها، أحدهم كان يهددها بتعريض حياة بيتر للخطر..

- عمَّ تتحدث يا مستر مارك؟

- أخبرها يا ريتشر..

نظرت لي ثيريسا بعينين متسعتين، تنهدت وقلت: شيء ما له علاقه بوظيفة سوزان، معلومات يسعى إليها طرف خارجي وقد استخدموا ابنها كنوع من التهديد..

تلفتت ثيريسا لي حولها ثم استقرت عيناها على زميلها، دوشيرتي، وأشارت برأسها اتجاهه وهي تقول لجايكوب: حسنًا، اذهب للمحقق دوشيرتي وأخبره بكل ما قلته لي وهو سيأخذ شهادتك ويرسل التقرير لقسم المفقودين..

أومأ جايك برأسه لها في امتنان وذهب للمحقق دوشيرتي، ظللت صامتًا لحين رحيله ثم سألتها: هل ستعيدين فتح ملف القضية الآن؟

- كلا، القضية انتهت، لكن جايكوب مارك شرطي وعلينا إظهار بعض اللباقة له.. كما أني أريده خارج الصورة للساعة القادمة.

وأخبرتني بعدها بالأخبار الجديدة.

- هناك شاهد جديد، لقد أبلغ الشاهد عن اختفاء سوزان مارك، القصة أنها كانت قادمة لنيويورك لتعين هذا الشاهد

بشأن استفسار خاص، وعندما لم تظهر أصيب الشاهد بالقلق وقام بالإبلاغ عن اختفائها...

- أي نوع من الاستفسار الخاص؟

- شيء شخصي على ما أعتقد.. وبالتأكيد خالٍ من الشبهات وإلا لم يكن ليبلغ عن اختفائها في مركز الشرطة..

- ولماذا تريدين إخفاء هذا عن أخيها؟

- لأنه عاطفي للغاية ولسوف يعرقل التحقيق.

- من هو الشاهد الجديد الذي أبلغ عن اختفائها؟

- شخص أجنبي، يقيم بشكل مؤقت في نيويورك، وأتى ليقوم ببحث ما، وفيما يبدو أن سوزان كانت تساعده.

- لحظة.. يقيم هنا بشكل مؤقت ! في فندق؟

- نعم.

- فندق الفورسيزونز؟

- هو بعينه.

- ما هو اسم الشاهد؟

- هي وليس هي، اسمها ليلى هوث.

الفصل الثلاثون

تطلب الأمر عشر دقائق لإقناع ثيريسا لي باصطحابي معها والذهاب لمقابلة ليلى هوث، حكيت لها ملخص ما حدث وما أعتقده، فأجرت هي اتصالًا بليلى هوث التي وافقت على لقائنا في الفورسيزونز، ثم ذهبنا بسيارة ثيريسا تاركين جايكوب مع دوشيرتي، الفندق كان رائعًا، ردهة واسعة ومبهجة، موظفون شديدو الأناقة، هناك جو عام من الرفاهية والاستمتاع يحيط بالجميع، أخبرنا موظفي الاستقبال بسبب وجودنا فأجروا اتصالًا بغرفة ليلى هوث وسمحوا لنا بالصعود بعدها، ومثلما حدث مع سانسوم اتضح أنها لم تكن غرفة بل جناح فاخر، طرقنا الباب ومرت دقيقة دون مجيب قبل أن نسمع خطوات وينفتح الباب، خلفه وقفت سيدة وهناك ضوء أصفر خافت منبعث من خلفها، كانت قصيرة القامة، في العقد السادس من العمر، لها شعر رمادي مجعد وعينان سوداوان، وجه شاحب وأبيض، وتبدو عليها أمارات الصحة، وترتدي روبًا سميكًا بني اللون، سألتها لي: آنسة هوث؟

أحنت المرأة رأسها محيية إيانا، وحركت يديها بلغة الإشارة، لغة الجسد العالمية تلك التي تقول: أنا لا أفهم حرفًا مما تقول.

همست لثيريسا: هي لا تتحدث الإنجليزية..

- لقد كانت تتحدث الإنجليزية منذ خمس عشرة دقيقة..

من خلف الضوء الأصفر ظهرت امرأة أخرى، في الخامسة أو السادسة والعشرين من العمر، شديدة الجمال والرقي، هذا

النوع النادر من الجمال، كأنها عارضة أزياء أوروبية، ابتسمت لنا بخجل وقالت بوجنتين متوردتين: أنا الذي كنت أتحدث معك على الهاتف، تلك والدتي، أنا ليلى هوث..

نظرت إليها محاولًا إخفاء انبهاري، لكنتها شرق أوروبية، انحنت ليلى وهمست بشيء ما بلغتها الأم في أذن السيدة العجوز التي أشرق وجهها وابتسمت لنا، وأفسحت لنا مجالًا للدخول، وأضافت هوث أثناء دخولنا: تلك السيدة الجميلة هي سافيتلانا هوث، والدتي كما ذكرت..

تصافحنا جميعًا وقمنا بتعريف أنفسنا..

لمحت انعكاس وجهي في المرآة وأنا أنظر مبهوتًا لليلى هوث، ربما أنها أكثر من رأيت جمالًا خلال حياتي كلها، جمال طبيعي دون تكلف أو جهد، لم تكن قصيرة ولا فارعة القامة، طول مثالي مصحوب بشعر أسود ناعم ومنسدل، لا طلاء وجه، فهي لا تحتاج إليه على الإطلاق، عينان واسعتان قادرتان على تنويمك مغناطيسيًا، لونهما أزرق لم أره في حياتي من قبل، تتحرك بسلاسة ونعومة كأنها تطفو فوق الأرض، بدت كمزيج من طفلة بريئة وامرأة واثقة من نفسها، كفتاة لا تعرف قدر جمالها من ناحية، ومن ناحية أخرى بدت كملكة جمال متوجة تدرك جيدًا أنها الأجمل، وعلى جسدها الفاتن استقر فستان سهرة أسود، لا بد أنها ابتاعته من باريس وثمنه يساوي سعر سيارتين، والحقيقة أنها لم تحتج لهذا الفستان لكي تبدو جميلة، بإمكانها ارتداء زي مهرج ولسوف تبدو بنفس القدر من الجاذبية والروعة..

تبعناها للداخل وكذا فعلت والدتها، الجناح مكون من ثلاث غرف، جلسنا في غرفة المعيشة، هناك الكثير من حقائب التبضع متراصة جوار التلفاز، أخرجت تيريسا لي بطاقتها الرسمية وأرتها لليلى التي أحضرت جواز سفرها بدورها وأرته لثيريسا، لا بد أنها تعتقد أن عليها إظهار جواز سفرها لأي مسئول رسمي هنا.. رفعت والدتها رأسها عند جلوسها ونظرت للسقف، لسان حالها يقول: أنا لست هنا حقًّا بسبب حاجز اللغة، بينما أخذت تنقل ناظريها بيني وبين ثيريسا، وهي تستوعب هويتنا داخل ذهنها، المحققة والشاهد، في النهاية استقرت عيناها على وجهي، لا بد أنها اختارت النظر لي لأنها تعتقد أني الطرف الأكثر تأثرًا بما حدث، لم يزعجني هذا، دعها تنظر لي كما تشاء فأنا لا أستطيع إبعاد نظري عنها..

- أنا آسفة جدًّا لما حدث لسوزان مارك.

صوتها رقيق وناعم مثلها وله تأثير كالسوط الذي يهوي داخل قفصي الصدري، لكنتها أنيقة ورسمية قليلًا، وتتحدث الإنجليزية بطلاقة، كأنها قد تعلمت اللغة من أفلام الأبيض والأسود، الأمريكية والبريطانية، بدت كأنها شخصية من هذا العالم..

لم تعلق ثيريسا وقلت لها ببطء: نحن لا نعلم بعد ما الذي حدث لسوزان مارك، عدا الحقائق الواضحة بالطبع.

هزت ليلى عنقها الجميل ومعه رأسها بتفهم وهي تهمس: أتفهم هذا جيدًا، تريد معرفة ما علاقتي بها أليس كذلك؟

- بلى.

- إنها قصة طويلة لكن دعوني أكون واضحة معكم أن تلك القصة لا تفسر حقًّا ما حدث لسوزان على متن القطار..

- حسنًا، دعينا نستمع للقصة..

قالتها ثيريسا لي، وحكت لنا ليلى..

كانت حكاية عجيبة قليلًا وقد بدأت بحياة ليلى نفسها، حكت لنا عن زواجها وهي في السادسة والعشرين من العمر من رجل أعمال روسي يفعل كل ما يفعله رجال الأعمال الروسيون منذ التسعينيات بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، ألا وهو احتكار حقول البترول، وهي - ليلى - أوكرانية الأصل، ومع الوقت أصبح زوجها مليونيرًا قوي النفوذ، لكن المنافسة اشتدت عليه وانتهى الأمر بتلقيه رصاصة بمنتصف رأسه خارج نادٍ ليلي في موسكو، ظلت جثته راكدة وسط الثلوج ودماؤه طيلة اليوم الثاني، رسالة واضحة بطريقة موسكو في إدارة الأعمال، وقد فهمت أرملته الجميلة تلك الرسالة جيدًا؛ ولذا رحلت عن موسكو مع والدتها وأقامت في لندن، تاركة أعمال زوجها للمنافسين، ومعها نصيبها الشرعي من الورث فقط، ونست ليلى هوث أمر موسكو بأكملها، واعتادت على المعيشة في لندن.

رفعت ليلى رأسها وارتكزت بعينها عليّ وهي تضيف: هناك افتراض عام أنه عندما يصبح الشباب أثرياء فجأة فهم يأخذون على عاتقهم مسألة الاعتناء بوالديهم، تجد نجوم

الروك وهوليوود والرياضيين يتحدثون عن أمور كتلك، والحقيقة أن الأمر لا يختلف كثيرًا عن هذا في أوكرانيا، لقد توفي والدي قبل مولدي وكل ما أحبه في الحياة هو والدتي، عرضت عليها كل شيء، البيوت والسيارات والرحلات حول العالم لكنها رفضت كل هذا، لم تكن تريد سوى صنيعة واحدة مني، كانت تريد مساعدتي في تقصي أثر شخص من ماضيها، كأنما الغبار قد أغشى عن عينيها واتضحت الرؤية أخيرًا بعدما اطمأنت على مستقبلي وتمكنت أخيرًا من التركيز على ما تريده من حياتها ألا وهو إيجاد هذا الرجل..

- من هو؟

- لا أعرف سوى أنه جندي أمريكي يدعى جون، وما فهمته من والدتي أنه ساعدها بشكل عظيم في فترة ما من حياتها.

- متى وأين؟

- في برلين، بداية الثمانينيات..

- هذا ليس بالأمر المحدد من ناحية التفاصيل.

- عليك أن تفهم أن هذا كان قبل مولدي، أعتقد أنها قابلته في عام ١٩٨٣، بيني وبينكم كنت موقنة في قرارة نفسي أن محاولة إيجاد هذا الجندي ليس سوى مضيعة للوقت، وأن والدتي أصبحت سيدة مسنة وسخيفة، لا تقلقوا هي لا تفهم حرفًا مما أقول، لكن رغم هذا كنت مستعده لبذل المجهود والبحث من أجلها..

ابتسمت لنا والدتها دون سبب أو داعٍ...

- ما الذي كانت تفعله والدتك في برلين؟

- كانت مع جمعية الصليب الأحمر، مسئولة رعاية صحية ودعم سياسي للاجئين.. شغلها الشاغل كان رعاية الأيتام للدقة..

- وما الذي فعلتيه كمحاولة لإيجاد هذا الجندي؟

- والدتي أكدت لي أن صديقها الجندي هذا لم يكن من ضمن قوات المارينز، بل من قوات الجيش العادية، وبناء عليه قمت بإجراء اتصال بوزارة الدفاع المدني وتم تحويلي - بعد إدلائي بعدة تفسيرات لهم - لقسم السجلات وشئون العاملين، الحقيقة أن الرجل على الطرف الآخر من الهاتف كان متفهمًا للغاية، وقد تأثر بما حكيته له عن رغبة والدتي في رؤية صديقها القديم الذي قدم لها مساعدة منذ دهور مضت، وقال لي إنها قصة حلوة ومؤثرة، ربما أنه رأى الأمر كفرصة تسويقية لقسم العلاقات العامة، لا أعلم حقًّا بشأن ما دار بخلده، أخبرني أنه سيتقصى الأمر، لكني اعتقدت في قرارة نفسي أنها فرصة شبه معدومة، أن يجد جنديًا من مئات آلاف الجنود الذين ذهبوا لبرلين، دعك من مسألة أننا لا نعرف سوى اسمه الأول فقط، جون، لكنه أخبرني أنه سيبذل قصارى جهده، وبعد مرور أسبوع اتصلت بي امرأة تدعى سوزان مارك من البنتاجون، لم أكن في المنزل حينما اتصلت لكني وجدت رسالة مسجلة في بريدي الصوتي منها، فحوى الرسالة كان أنها المختصة الحالية بمتابعة طلبي، وسألتني إن كنت متأكدة أن اسم جون ليس اختصارًا لجوناثان، كانت امرأة منظمة

وأرادت أن تحدث فرقًا في عملية البحث، سألت والدتي التي أكدت لي بدورها أن اسمه جون فحسب، وعاودت الاتصال بسوزان، لأجدها شخصية لطيفة ومرحبة للغاية وتبادلنا حديثًا سارًّا، أعتقد أنها كانت سعيدة بتلك المهمة التي أُسندت إليها، لعل ما قاله بشأن أن القصة حلوة ومؤثرة لهو أمر شائع التأثير..

هزت تيريسا لي رأسها وسألت ليلى هوث: وما الذي حدث بعد ذلك؟

- بعد مرور فترة اتصلت بي سوزان لتخبرني أنها قد توصلت لنتائج تكاد تكون حازمة وقاطعة بشأن إيجاد جون.. واقترحت أن نتقابل هنا في نيويورك.. وقد قبلت باقتراحها بأن نتناول العشاء كنوع من الشكر وإعلان للصداقة غير الرسمية بيننا.. وذهبت لنيويورك، لكن سوزان لم تصل أبدًا..

- متى اتفقتم على اللقاء؟

- العاشرة مساء.

- وقت متأخر للغاية لتناول العشاء والعودة من نيويورك.

- إنها تخطط للمبيت وطلبت مني حجز غرفة لها.

- متى وصلتم لنيويورك؟

- منذ ثلاثة أيام.

- كيف؟

- الخطوط الجوية البريطانية من لندن.

- آنسة هوث، هل استأجرت رجال تحريات خاصة؟

- لا.

- لماذا؟

- كنت أعتقد أنهم مفيدون، أعتقد أن حياتي في موسكو أكسبتني صفة الحرص.

- وكيف وجدتيهم؟

- رجال كهؤلاء لديهم إعلانات مبوبة دومًا في موسكو.

- هم أخبروني أنك أجّرتِ طاقمًا آخر بخلافهم..

- لماذا يقولون شيئًا كهذا؟ كلا لم أفعل أي شيء من هذا القبيل.

- حسب كلامهم فالطاقم الآخر أكثر قدرة منهم، من نوعية الطاقم المخيف..

لثانية اعتلت ملامحها الجميلة تعبيرات من الانزعاج، ثم أعقب تلك الملامح نوع من التفهم كأنها قد وضعت نفسها في محلي، هي ذكية وتجيد التحليل السريع بخلاف كونها صاحبة الجمال، تلاقت أعيننا وقالت ليلى بصوت ناعم: ربما ما قاله هو جزء من إستراتيجية ما لدفعك للتعاون معهم، كل ما أردته منهم هو إيجاد سوزان، أرادوا إثارة مخاوفك مثلًا باختراع فريق وهمي بديل يهددونك به..

لم أقل شيئًا..

هنا أُضيء وجهها بفكرة ما وأعقبت: لدي فريق جديد بالفعل، مكون من رجل واحد،"ليونيد"، وهو رجل اعتاد العمل مع زوجي فيما سبق، إنه في محطة"بين" كما أتذكر، ينتظرك هناك تقريبًا، لقد أرسلته بعدما أخبرتني الشرطة أن الشاهد لما حدث لسوزان قد ذهب لواشنطن، ربما أنك قابلت ليونيد في المحطة..

لم أعلق، فهو الرجل الذي كان يصورني قبل أن يفقد وعيه ويستقر هاتفه في جيبي..

تابعت ليلى: أردت من ليونيد أن يقابلك ويطلب منك الاتصال بي، لا بد أنه لا يزال ينتظرك في المحطة، يا للمسكين، سأتصل به..

ووقفت برشاقة متجهة للكومود، التقطت هاتفها لتتصل بليونيد، وهذا لم يكن أكثر الأمور لطافة بالنسبة لي ؛ لأن هاتفه يستقر بجيبي في تلك اللحظة..

الفصل الواحد والثلاثون

لم يكن هناك مجال لإخراج الهاتف الخلوي من جيبي وإغلاقه، سيكون هذا مثيرًا للشك بالنسبة للجميع، ولن أستطيع وضع يدي في غمدي وإطفاء الهاتف دون رؤية موضع الزر اللعين المسئول عن الإغلاق.. كل ما أحتاجه هو ثانيتين للضغط على هذا الزر وبووم.. ينطفئ الهاتف بعدها، لا يوجد وقت لهذا يا ريتشر، وأمام عينيّ اتجه إصبع ليلى ليستقر فوق شاشة هاتفها وهي تضغط رقم تسعة لإجراء اتصال سريع برقم مسجل بالفعل.. فمددت يدي داخل جيبي في جزء من الثانية، وعقلي يصيح في: حلول بديلة.. طبقت يدي على الهاتف واعتصرته، محاولًا فك البطارية القابعة بمؤخرة الهاتف اللعين..

ليلى تجري الاتصال..

يدي تدور حول الهاتف..

تسقط البطارية، ألصقت ليلى الهاتف بأذنها، عقدت حاجبيها قبل أن تتنهد وتعيد الهاتف لموضعه..

- هاتفه مغلق، أحيانًا أشعر أن ليونيد غير كفء، لكنه شديد الإخلاص.. الوفاء صفة نادرة على مر العصور كما تعلمون..

تخيلت قصة حياة ليونيد الحالية، مسعفون، شرطة، رحلة لمستشفى سانت فينسينت، الخروج من المستشفى، اكتشاف أن هاتفه ليس بحوزته، سيستغرق الأمر برهة من الوقت، وهي مدة كافية على ما أتمنى..

قلت لليلى: رجال التحريات الخاصة ذكروا اسم جون سانسوم.

تنهدت ليلى وتحسست عنقها الجميل بأناملها، ثم قالت وهي تهز رأسها: لقد أخبرتهم بملخص الحكاية عند تعيينهم فور وصولي لنيويورك، وجميعنا كنا نعتقد أننا نهدر الوقت لكننا نحاول تلبية رغبة امرأة عجوز، لقد مزحنا حتى بشأن الأمر، عندما ذكر أحدهم اسم سانسوم، معلقًا أنه قرأ عنه في الجريدة، جندي أمريكي سابق أضحى مرشحًا سياسيًا، وقالها كدعابة: ربما سانسوم هو من تبحثين عنه.. ليس أكثر وليس أقل من هذا.. دعابة رائجة بيننا.. لنتصل بسانسوم وننهي الأمر برمته.. لا بد أنهم سألوك عنه كدعابة ضمنية بينهم..

- هلا أخبرتينا بسبب رغبة والدتك العارمة في إيجاد هذا الجندي؟

تنهدت ليلى، بينما عدت لتأمل جمالها الخارق للطبيعة لوهلة قبل أن أعود بتركيزي لما هي بصدد قوله كإجابة: الحقيقة أن والدتي أبقت الأمر كله تحت طائلة الكتمان، لم تخبرني بالكثير سوى أنه ساعدها، لا أعتقد أن للأمر علاقة بالمخابرات السوفيتية، كي جي بي، أو بأي عملية عسكرية، والدتي ليست خائنة، ولا أعتقد أن هناك أبعادًا رومانسية كذلك، ربما أنه ساعدها في شأن اقتصادي أو مالي، ربما تعرضت لمضايقات من فئة ما ببرلين في هذا الوقت وهو تدخّل، آه من يعلم لعل هناك عنصرًا رومانسيًا في الأمر بعد كل شيء، أنا حقًا لا أعرف..

- اسأليها مرة أخرى، الآن من فضلك.

- لقد حاولت عدة مرات دون فائدة.

- وأنت لا تعتقدين حقًّا أن سانسوم هو هذا الجندي..

- كلا بالطبع، تلك مجرد دعابة، ستكون صدفة عظيمة إذا اتضح أن سانسوم هو الجندي، احتمالية واحد في المليون، كم من مرة يمكن أن تتحول الدعابة إلى حقيقة؟

لم أقل شيئًا..

أردفت ليلى مبتسمة: والآن دوري لكي أوجه سؤالًا واحدًا فقط، هل أخبرتك سوزان مارك بما توصلت إليه بشأن الجندي؟ ما أرادت والدتي معرفته..

وابتسمت والدتها، سفيتلانا هوث، وهي تهز رأسها مرحبة بنا، شككت أنها تعرف معنى كلمة "والدتي "بالإنجليزية لأنها تهز رأسها كلما سمعتها.. وجهت سؤالًا لليلى بدوري: ما الذي يدفعك للظن أن سوزان قد أخبرتني بأي شيء؟

- لأن فريق التحريات الخاصة أخبروني أنك قلت لهم إنها أدلت لك بمعلومات ما قبل وفاتها المؤسفة.. أعطتك حافظة معلومات إلكترونية أو شيئًا من هذا القبيل، أخبروني بهذا وأرسلوا لي صورتك ثم استقالوا بعدها، لم أفهم السبب لقد كنت أدفع لهم مبالغ مجزية..

تحركت قليلًا لليسار وملت بجانبي، مددت يدي وأخرجت الحافظة الإلكترونية التي ابتعتها من راديو شاك، ورفعتها

عاليًا في يدي أمام وجهي، تألق وجه ليلى هوث، كقط ينفرد بطائر أخيرًا، وسألت: هل تلك حقًّا حافظة المعلومات الخاصة بسوزان؟

استدارت ثيريسا لي ونظرت إليّ بتمعن، ثم عادت بناظريها لليلى هوث التي تساءلت: ماذا؟

- الأمر كله يبدو مختلفًا من وجهة نظري، لم يبدُ لي أن سوزان كانت بصدد لقاء صديق لتناول عشاء والمبيت في فندق جميل، لقد كانت مرتعبة، مذعورة، خائفة، وكل كلمة أخرى في القاموس كافية للتعبير عن شخص بصدد مواجهة كابوس.

- كما أخبرتك في البدء أنا لا أمتلك تفسيرًا لحالتها تلك أو لسبب انتحارها.

أعدت الحافظة الإلكترونية لجيبي وغمغمت بصوت مسموع: كما أنها لم تحمل حقيبة ملابس معها.

- لا يوجد بجعبتي تفسير لذلك أيضًا.

- وهناك نقطة أخرى بشأن سلوك سوزان الغامض قُبيل وفاتها، لقد تركت سيارتها دون سبب واضح، وطبعًا هناك أمر المسدس المحشو بالرصاص داخل حقيبتها..

- أنا حقًّا أريد مساعدتكم لكنني غير قادرة على تفسير أيٍّ من هذا..

تابعت كأني لم أسمعها: وابنها مفقود.

- حقًّا؟

- نعم، اختفى تمامًا..

- ما الذي حدث له بالضبط؟

- لقد قابل فتاة جميلة.

- وما الذي يعنيه هذا؟

- قابل فتاة جميلة في حانة بلوس أنجلوس واختفى بعدها.

- أنا لم أذهب للوس أنجلوس أبدًا.

لم أقل شيئًا..

- إن الجمال أمر نسبي، في عين الرائي كما يقولون، وأنا لست الفتاة اليافعة الوحيدة في أمريكا، هناك ستة بلايين نسمة حولنا، هل تعلم نسبة اليافعين بهم؟ عشرون بالمائة، أي ثلاثمائة وستون ألف فتاة يافعة يحتمل مقابلتها في حانة ما بلوس أنجلوس(3)..

لم أعلق، فقط لمحت تعبيرًا من اللاتعبير على وجه ثيريسا لي، تنهدت ونظرت لليلى هوث التي تابعت: هناك مليون احتمالية بخلاف كوني الفتاة التي قابلت ابن سوزان مارك في الحانة.

أومأت برأسي، هي محقة بهذا الصدد، وأردفت: وربما بيتر ذهب فحسب مع فتاة ما في الحانة لقضاء وقت رومانسي ليس أكثر، نعم لا تنظروا إليّ هكذا أنا أعرف مسبقًا أن اسمه

بيتر، سوزان أخبرتني بشأنه، لقد كنا نتحدث كأصدقاء، ونستفيض بالحديث، وهي حكت لي عن بيتر ومشاكلها في الحياة، الحقيقة أن سوزان لم تكن تحب طبيعة شخصية ابنها، كانت تبغض ما أصبح عليه، لشدة ما كانت تريده ألا يكون صبيًا رياضيًا سطحيًا لا يهتم بشيء في الحياة سوى طموحه الشخصي، وهو رفض سلطتها كوالدة له بسبب قربه من أبيه، هل كنتم تعلمون أن سوزان طفلة متبناة؟ وأن ابنها كان يفخر بشجرة عائلة أبيه ويكره حقيقة أن والدته لا تعلم من هم عائلتها الحقيقية؟ سوزان قد حكت لي الكثير عن حياتها ونفسها، لقد تحدثنا مرارًا وتكرارًا كما ذكرت سابقًا، نحن كنا أصدقاء وحماستي للقائها وجهًا لوجه تحولت لحزن بعد وفاتها المفجعة..

شعرت من لغة جسد ثيريسا لي أنها بصدد المتابعة وطرح أسئلة أخرى، هنا لم يكن ليكفيني الوقت لتجنب لقاء ليونيد العائد من المستشفى، علينا الرحيل الآن، لذا تنهدت بطريقة مفاداها "لا يوجد لدي شيء آخر لأقوله "ووقفت ببطء، بطريقة تشي بأن لدي أشياء أخرى عديدة لفعلها، نظرت إليّ ثيريسا ثم وقفت بدورها، عقلها لم يستوعب بعد إشارات لاوعيها لجسدها بأنها سوف تطرح كمًّا آخر من الأسئلة، سألتني ليلى قبل رحيلنا إن كنت راغبًا في إعطائها الحافظة الإلكترونية الخاصة بسوزان، لم أرد بالنفي أو التأكيد، فقط شددت على يدها وحييت والدتها ورحلت مع ثيريسا لي، التي نظرت لانعكاسي في مرآة المصعد وكذا فعلت أنا المثل، ثم سألتني عما أعتقده..

- هي جميلة بحق، من أجمل النساء التي رأيتهن في حياتي..

- بخلاف هذا؟

- عيناها لا مثيل لهما.

- بخلاف عينيها وجمالها يا ريتشر.

- بدت لي أنها وحيدة كذلك، شعرت أنها كانت تصف وحدتها الخاصة وهي تتحدث عن سوزان.

- وماذا عن قصتها؟

- هل تحظى الفتيات خارقات الجمال بقدر زائد من المصداقية فقط لكونهم جميلات؟

- ليس مني أنا يا صاح وانسَ كونها جميلة للحظة، بعد ثلاثين عامًا ستصبح نسخة من والدتها تلك، هل تصدق قصتها؟

- هل صدقتيها أنت؟

أومأت ثيريسا برأسها وقالت مفكرة: نعم صدقتها، هل تعلم لماذا؟ لأن قصتها سخيفة للغاية وممتلئة بالثغرات التي يمكن لنا تفقد صحتها بسهولة، وحده الشخص الأحمق سيقوم بتأليف حكاية كتلك.. وكما قلت لك يمكننا التفقد من صحة حكايتها، هل هناك حقًا قسم علاقات عاملة بالبنتاجون؟

- نعم.

- كم عدد الموظفين؟

- المئات.

- إذن علينا البحث عن الموظف الذي تلقى مكالمتها وأوكل بالمهمة لسوزان مارك.. ونتعقب المكالمة للندن ونعمل بالتعاون مع"سكوتلاند يارد"، ويقول لي دوشيرتي شيئًا فأهيب به بالصمت قائلة بحزم: اصمت يا صاح ألا تراني أتحدث في الهاتف مع سكوتلانديارد، آه هذا حلم كل محقق بالطبع..

تجاهلت تهكمها وقلت: المكالمات الأجنبية لها تصنيف خاص، يتم إرسالها لمحللي المخابرات، سيكون من السهل تعقب المكالمة والوصول للموظف.

- ويمكن بسهولة اكتشاف إن كانت سوزان قد أجرت مكالمات صادرة لليلى هوث أم لا..

- إذن عليك بتفقد كل هذا.

- سأفعل هذا على ما أعتقد، نعم نعم سأفعله.. كما أنها بدت كامرأة شديدة الذكاء، وبالتأكيد هي تتوقع أني سأتفقد صحة حكايتها تلك، هي تعلم مسبقًا أننا سوف نسأل جايكوب مارك إن كانت أخته متبناة أم لا على سبيل المثال، سيكون من الجنون الكذب بشأن كل تلك التفاصيل، كما أنها تطوعت بأن تريني جواز سفرها، كل تلك النقاط السابقة تعمل لصالحها، لا أعتقد أنها تكذب.

أخرجت الهاتف من جيبي وأعدت تركيب البطارية به ثم

ضغطت زر الإشغال، أضيئت الشاشة ورأيت رسالة بمحاولة اتصال سابقة من ليلى هوث، نظرت إليّ تيريسا متسائلة فقلت: إنه هاتف ليونيد، لقد.. استعرته منه.

- لقد وجدك إذن في نهاية المطاف؟

- يمكنك القول إني أنا من وجدته.

- وأين هو الآن؟ لماذا هاتفه معك؟

- هو في الأغلب يسير متوعكًا أمام مستشفى سانت فينسينت في تلك الآونة.

- هل تجد أنه تصرف ذكي أن تعترف بشيء كهذا لمحققة من شرطة نيويورك؟

- لماذا تسيئي فهم ما حدث؟ لقد أصيب بوعكة صحية وأنا تطوعت لمساعدته، هناك شهود كذلك..

- أيًا كان، لكن هذا سيجعل ليلى هوث في حالة تأهب.

- هي تمتلك فكرة مسبقة عن خطورة الحياة في أمريكا بسبب تاريخها في موسكو، لا تقلقي بشأنها..

كنا قد خرجنا من المصعد وفي طريقنا للخروج من ردهة الفندق، عندما تساءلت لي: لماذا الفيدراليون مهتمون بالأمر طالما أن الحكاية بريئة ومسالمة عن سيدة عجوز تبحث عن عواطف الماضي الجميل؟

- لو كانت حكايتها حقيقية فهناك مسألة سؤال أطراف أجنبية عن جندي أمريكي، وبالتالي سيبغون التأكد من كونه

غير متورط بشيء مثير للشبهات..

دخلنا سيارة ثيريسا، وضعت الأخيرة يدها على المقود واستقرت عيناها على الطريق عبر الزجاج الأمامي للسيارة ثم قالت بهدوء كأنها تقر حقيقة بدلًا من التساؤل: أنت لا تتفق معي أليس كذلك؟

- بلى، الحكاية ليست بتلك البراءة، ستكون بتلك البراءة لو لم يوجد شيء غير قانوني في أعمال عائلة هوث، لا أؤمن بالمصادفة بوجود سيناريو موازٍ يدفع بسوزان مارك للرعب والانتحار في نفس اللحظة..

- هممم!

- كم مرة اتضح أن احتمالية واحد في المليون قد تكون حقيقية؟

- تقريبًا ولا مرة.

- أعتقد أننا بصدد رؤية احتمالية الواحد في المليون تتحقق أمام أعيننا، لأني متأكد من تورط جون سانسوم بالأمر.

- لماذا؟

- لأني تحدثت معه.

- في واشنطن؟

- نعم، وتبعته لنورث كالورواينا..

- أنت شديد العناد.

- هذا ما قاله سانسوم، هل تعلمين ما قاله عندما سألته إن كان يعرف ليلى هوث؟ أجابني بالنفي.. وقد صدقت ما قاله، لكني كذبته بنفس الوقت، تعبير وجهه يقول إنه يكذب وصوته يشير بالصدق، لذا يمكنك القول إني قد صدقته وكذبته في نفس اللحظة.

- كيف؟

- التفسير الوحيد أنه قد سمع عن اسم "عائلة هوث "من قبل ولكن ليس "ليلى".. ربما أنه يعرف والدتها، سفيتلانا هوث أو أيًا كان اسمها الأول.

- وما الذي يعنيه هذا؟

قالتها تيريسا ويداها لا يزالان فوق المقود.

- هناك منطق غريب في الأمر يا تيريسا، لماذا تم تكليف سوزان مارك بالأمر؟ وبافتراض أن قصة ليلى هوث حقيقية... هل هناك شيء ما أخفته عنا؟

- سوزان مارك كانت شخصية متعاطفة.

- وما الذي جعل سوزان مارك كذلك؟

- لا أعلم.

- لأنها كانت طفلة متبناة، مجهولة النسب، قضت جزءًا من عمرها تتساءل عن هوية أهلها، وهذا أكسبها تعاطفًا لمن يمرون بظروف مماثلة، كسيدة عجوز تبحث عن شبح من الماضي، أو فتاة يافعة تحاول تلبية رغبة والدتها التي عانت

الأمرَّيْن إبان الحرب، لعل سوزان توصلت لما حدث بين سانسوم ووالدة ليلى، هناك احتمالات عدة بالطبع.

- مثل ماذا؟

- لنقل إن أفضل احتمال هو قيام سانسوم بإعطاء معطف لوالدة ليلى وسط شتاء قارس..

- وأسوأ احتمال؟

تنهدت ونظرت بدوري عبر الزجاج للشارع الماثل أمامنا ثم أجبت: العنصر الرومانسي.. الأسوأ هو احتمالية أن جون سانسوم هو والد ليلى هوث..

الفصل الثاني والثلاثون

عندما عدت برفقة ثيريسا لي لقسم الشرطة كان دوري قد انتهى بالفعل من أخذ إفادة جايكوب مارك بشأن اختفاء بيتر، لكن شيئًا ما اختلف منذ أن تركناهم، هنالك تعبير من الاغتباط على وجه جايكوب، يقابله تعبير من الصبر على وجه دوشيرتي، كأنه قد أهدر ساعة كاملة من وقته، لا بأس، رجال الشرطة معتادون على مسألة إيضاع الوقت والبلاغات الزائفة، هذا جزء من عملهم، ذهبنا لمكتب دوشيرتي وهتف جايكوب فور رؤيتي: لقد اتصل بيتر بمدربه..

- متى؟

- منذ ساعتين، اتصل بمولينا والأخير اتصل بي.

- وأين هو؟

- لم يقل، ترك رسالة فحسب لمدربه، الذي لا يجيب على هاتفه أبدًا وقت تناول العشاء.

- ولكن بيتر على ما يرام؟

- بالتأكيد.

- وما هو فحوى الرسالة بالضبط؟

- قال: إنه لن يعود في وقت قريب، ربما لن يعود أبدًا، وقد اكتفى من مهنته كلاعب كرة قدم، وهناك صوت ضحكات فتاة من خلفه، لا بد أنه قد وقع في قصة حب سينمائية من النوع الكفيل بتغيير حياة الرجل.. لا بد أنها فتاة مميزة جدًا.

- وأنت موافق على كل هذا؟

- بالتأكيد لا، لكن تلك هي طبيعة الحياة، المهم أنه بخير.

- ليس هذا بمقصدي، دعني أعيد صياغة السؤال، هل تعتقد أن الرسالة حقيقية؟

- نعم نعم لقد تعرف المدرب على صوته.

- هل حاولتم الاتصال به مرة أخرى؟

- نعم عدة مرات، لكنه أغلق هاتفه مرة أخرى، رومانسية الشباب تلك كما تعلم.

- إذن أنت راضٍ عن الأمر؟

وجهت ثيريسا لي السؤال لجايك تلك المرة التي فكر قليلًا إزاء تعبير وجهي وأسئلتي قبل أن يجيب بحيرة: على ما أظن.

- هل أنت مطمئن؟

- نعم.. أقصد بلى..

- حسنًا، أريد أن أوجه لك سؤالًا بصدد شيء آخر.

- تفضلي.

- هل أختك متبناة؟

اتسعت عينا جايك وتوقف لبرهة عن أي فعل قبل أن يجيب مبهوتًا: كلانا متبنيان، الفارق بيننا ثلاثة أعوام، لماذا؟

- أتحقق من بعض المعلومات فحسب.

- أي معلومات تلك؟

- إن سوزان جاءت إلى هنا لمقابلة صديقة.

- ومن هي تلك الصديقة؟

- امرأة أوكرانية وتحمل الجنسية الروسية تدعى ليلى هوث..

هنا نظر جايك إليّ وقال: لقد تحدثنا بشأن هذا الاسم، لم أسمعه من قبل..

- حقيقة أنك سمعت الاسم من عدمه تتوقف على مدى قربك بسوزان، وأن صداقتها مع ليلى هوث حديثة نسبيًا..

- لم نكن مقربين بتلك الدرجة.

- متى كانت آخر مرة تحدثت فيها مع سوزان؟

- منذ عدة أشهر.

- إذن أنت لست مطلعًا حقًا على حياتها العاطفية.

- كلا.

- حسنًا، كم من شخص يعرف بكون سوزان طفلة متبناة؟

- إنها لم تعلن عن الأمر لو كان هذا هو سؤالك.

- هل كانت لتخبر صديقة حديثة مثل ليلى هوث بأمر كهذا؟

- ربما.. يتوقف على مزاجها وحالتها العاطفية، الأصدقاء

يتحدثون بشأن كل الأشياء في نهاية المطاف.

- وبم تصف علاقة سوزان بابنها بيتر؟

- أي نوع من الأسئلة هذا؟!

- النوع المهم من الأسئلة يا مستر مارك.

تردد جايكوب للحظة، وفكر وحسب كل الاحتمالات، بدا أنه جسديًا يبغض فكرة التحدث بشكل سلبي عن علاقة أخته بابنها فقالت تيريسا بلطف: من شرطي لآخر، أنا بحاجة للمعرفة..

هز جايكوب كتفيه ونظر لأعلى قائلًا وهو يتحاشى نظراتنا: علاقة حب وكراهية.

- بمعنى؟

- سوزان أحبت بيتر للغاية، والأخير كرهها بشدة..

- لماذا؟

المزيد من التردد والمقت والصراع الداخلي ثم الإجابة: الأمر معقد.

- كيف؟

- إنها تلك الحقبة التي يمر بها الأطفال عندما يحلمون، بعض الفتيات تطمحن بكونهن أميرات من عالم ديزني، بعض الصبية يريدون أن يكونوا أبطالًا خارقين، وبيتر حلم بكونه بطل إعلان أوروبي أنيق عن العائلة الملكية، أراد لوالده أن

يكون من سلالة أرستقراطية نبيلة، بيتر مولينا الثالث عشر، ولوالدته أن تكون من سلالة عائلة ملكية تنحدر من قصر عتيق به كنز مخفي، وحقيقة الأمر أن والدة سوزان كانت مراهقة مدمنة وبائعة هوى من بالتيمور، وسوزان لم تخفِ هذا عن بيتر، سياستها كانت الصراحة المطلقة، وابنها لم يتعامل جيدًا مع الحقيقة، ولم يتخطَّ الأمر أبدًا، وعندما وقع الطلاق بين مولينا وسوزان اتخذ بيتر صف أبيه بشكل واضح لا يخفى على أحد..

- وما الذي شعرت أنت به حيال هذا الأمر؟

- حزن عميق وتشتت، لكني استطعت تفهم وجهات نظر كل منهما، أنا لم أحاول معرفة هوية والدي الحقيقية، كنت خائفًا مما قد أعرفه، لكن أحيانًا بيني وبين نفسي أتمنى وأتخيل أنهم يعيشون بقصر ملكي ما، وفي النهاية تمكنت من المضي للأمام وتخطي تلك الأفكار، على خلاف بيتر، إن تفكيره ينجم بالطبع عن حماقة وأنانية لكن يمكن تفهم الأمر..

- إذن سوزان كانت تحب بيتر كابن لها، لكنها لم تحبه كشخص في العموم.

- تلك هي الحقيقة، وفي نفس الوقت سوزان كانت تتصرف عكس ذلك أحيانًا، أنتم تعرفون طبيعة الأمهات، هي لم تحب سترات بيتر الجلدية والدراجات البخارية، لم تحب فرق كرة القدم والجعة، لكنها أحبت الطفل الذي خرج من داخلها للعالم، الذي ربته واعتنت به..

- ومن يعرف تلك الحكاية؟

- تقصدون إن كانت لتخبر صديقتها الجديدة تلك بكل هذا؟

- نعم، هل كانت لتفعل هذا؟

وأضفت أنا قبل أن يجيب: هي كانت وحيدة وتشعر بالعزلة، غير سعيدة في حياتها، هل وجود صديقة تشاطرها تلك الظروف سيشجعها على البوح؟

مط جايك شفتيه قبل أن يقول: ربما!

سألته ثيريسا: هل لديك أطفال؟

- كلا، لقد تعلمت من تجربة أختي..

هزت لي رأسها وتبادلت نظرة خاطفة معي قبل أن تقول له: شكرًا يا جايك، أنا سعيدة أن بيتر بخير.. وآسفة لطرح كل تلك الأسئلة، حظ سعيد.

وابتسمت له، في حين ظللت أنا صامتًا، وعقلي مشغول بتحليل رسالة بيتر لمدربه..

رحل جايك، وجلس دوشيرتي في مكتبه وأجرى اتصالًا هاتفيًا، قالت ثيريسا: سأتفقد حكاية ليلى هوث وإن كنت أعتقد أنها صادقة.

- حسنًا.

- أنت تريدني أن أحقق في سبب انتحار سوزان أليس كذلك؟

لم أقل شيئًا.

زفرت ثيريسا وأردفت: لم تقع جريمة داخل نطاق تخصصي.

- سأجد السبب بنفسي خلف شعورها بالذعر.

- لا تخبرني بهذا، لا أريد معرفة مخططاتك.

قالتها وعيناها تشيران بالعكس، قلت لها وأنا أقف: كما أني أريد إبلاغ سانسوم بالأمر، تحذيره..

- تحذيره من أي شيء؟ من احتمالية واحد في المليون أن هناك امرأة عجوزًا ممتنة له !!

- لو كانت قصة ليلى حقيقية.

- لا أجد سببًا يجعلك تريد التحدث مع سانسوم مرة أخرى..

- بإمكانك طي الأمر في كونه "واجبًا عسكريًا"..

- حسنًا، لا تسافر مرة أخرى لواشنطن، سانسوم عائد غدًا لنيويورك.. لديه حفل خيري للم التبرعات في فندق الشيراتون، هناك رجال سياسة وأعمال مهمون في تلك الحفلة.

- وهل هناك طاقم حماية خاص له؟

- كلا، نحن نحصل على مذكرات بتحركات الساسة ليس أكثر..

ثم رحلت بعدها دون إضافة شيء آخر كعادتها، ووقفت

أنا في منتصف الطريق، ربما ليلى هوث بريئة كبياض الثلج، لكني لا أستطيع التخلص من شعور أن جون سانسوم يخطو نحو فخ ما بقدومه غدًا لنيويورك..

الفصل الثالث والثلاثون

لقد مضى وقت طويل منذ أن تمكنت من قضاء ليلة بخمسة دولارات في نيويورك، ذهبت للنزل الرخيص الذي أقمت به في حياة أخرى، أعطيت الموظف الياباني عشرين دولارًا، بينما كان يقف مرتديًا فانلة بيضاء على جسده المترهل وغير مبالٍ بالعالم كله، نظر للعشرين دولارًا ورفع عينيه صوبي بنصف اهتمام، ليلة واحدة بخمس دولارات، لماذا العشرون؟! بدا أنه يشعر بالكسل حتى لإكمال الفكرة داخل عقله، قلت له مبتسمًا: تعويضًا عن أمر تسجيل البطاقة وكل هذا.

لم يعلق، قطب جبينه وهو يحدق بي، فأعطيته عشرة دولارات إضافية، وأنا أقول: من أجل خدمة تنظيف الغرف بالصباح..

هز كتفيه والتقط الأموال قبل أن يرد بحدة: ارحل في الثامنة صباحًا.

ورمى المفتاح اتجاهي ثم التفت راحلًا دون تعليق إضافي، أخذت المفتاح وذهبت للغرفة، لم تكن رائعة بالنسبة لأي أحد سواي؛ لأنها تحتوي على سرير، وأنا بحاجة للنوم..

استيقظت وذهبت لمقهى طالبًا الكثير من البيض والقهوة السوداء وجلست أفكر في الرقم الذي وجدوه في الوريقة بسيارة سوزان مارك..

D-82219-600

ما هو سر هذا الرقم؟ حاولت الاتصال بالرقم من هاتف ليونيد، لكنها محاولة باءت بالفشل لأن هذا ليس برقم هاتف، دعك من حرف "الدي "كلا هناك سر آخر يقبع خلف هذا الرقم، اعتصرت ذهني مفكرًا..

رقم الـ٦٠٠ يقرع شيئًا ما في ذاكرتي..

هيا فكر يا ريتشر..

سوزان مارك.. ٦٠٠.

٦٠٠.. سوزان مارك.

لم أصل لشيء، أنهيت قهوتي ورحلت متجهًا للشيراتون.

***

الحقيقة أن الشيراتون كان تمامًا كما تتوقع أن يكون، فور أن تطأه قدمك تشعر وكأنك في عالم آخر، ملمس كل شيء مختلف، الأرضية تدور بك، الكل سعيد ومبتسم، الجميع متأنقون، الرجال رياضيون والنساء فاتنات، والعديد من المؤتمرات هنا وهناك، مؤتمر التجارة الحرة الخارجية، وأشياء أخرى ذات أسماء فاخرة ومنمقة لا معنى لها، تنهدت وسرت باحثًا عن مؤتمر سانسوم، متوقعًا أنه سيصل قرابة الحادية عشرة بعد حساب مسافة السفر من واشنطن وتوقع موعد رحيله، سيأتي في الحادية عشرة لأن هذا اجتماع ولقاء مهم، قُبيل الانتخابات تصبح كل حفلات لمّ التبرعات غاية في الأهمية، والساعة الآن التاسعة، لا يزال أمامي ساعتان قبل وصوله، وهكذا تركت الفندق ذاهبًا لبرودواي وبحثت

عن متجر ملابس يعمل بالصباح المبكر قاصدًا ابتياع قميص جديد، لم أحب القميص الذي كنت أرتديه، يذكرني بحماقتي وبجملة زوجة سانسوم: لا تأتِ مرتديًا تلك الملابس، لا أحب تذكُّر هزيمتي، لا أتفاءل خصيصًا بهذا القميص اللعين، تبًّا له، لم أكن متحمسًا لارتدائه في مرتي الثانية عند مقابلة آل سانسوم.. ابتعت قميصًا رخيصًا وبسيطًا، نوعيتي المفضلة، وعدت للفندق.. الساعة العاشرة والنصف، أمامهم نصف ساعة ويصلون، وقاعة المؤتمر الخيري بدأت بالازدحام..

بعد عشر دقائق ومض شيءٌ ما داخل عقلي..

وفهمت السر خلف الكود الموجود على وريقة سيارة سوزان..

D-82219-600

نعم، أخيرًا فهمت..

الفصل الرابع والثلاثون

وقفت في عجالة واتجهت لباب مركز المؤتمرات، لا تستطيع الدخول دون مفتاح إلكتروني، تأففت ومثلت واقفًا أمام الباب بينما أتلفت حولي حتى رأيت أحدهم قادمًا بسرعة وهناك تعبير من نفاد الصبر على وجهه، كان مرتديًا حلة سوداء أنيقة، فابتسمت له وأنا أتظاهر بالبحث الحميم عن المفتاح في جيوبي، وأومأت له برأسي عندما فتح الباب ودلفت معه لقاعة المؤتمرات، العديد من المقاعد الجلدية الأنيقة المصطفة بحضور يتظاهر بالأهمية الشديدة، هناك مأدبة طعام ومشروبات في أقصى اليمين تعدهم بوقت جيد بعد انتهاء المؤتمر، وفي مقدمة القاعة تستقر منصة بعدد من المقاعد ومكبرات الصوت، هناك صورة كبيرة لسانسوم في الخلفية مرتديًا زي الجيش، وفور دخولك للقاعة ستجد عددًا من المتطوعين الشباب من ذوي الابتسامات الساحرة يعرضون عليك تفقد حواسب آلية متنقلة بكلمات بحث لمعرفة ما تحتاجه عن حملة سانسوم الانتخابية، حجزت مقعدًا لنفسي واتجهت للنافذة بقليل من التململ وتأملت الشارع، رأيت سانسوم يصل بسيارة فارهة ترجل منها مع زوجته، وجوارهم سار سبرينجفيلد أو أيًا كان اسمه تلك المرة، وسار ثلاثتهم لمدخل الشيراتون، بعد دقائق وصلوا للقاعة ولمحتهم يتفحصون وجوه الحاضرين بروتينية قبل أن تستقر أعينهم على وجهي، لم يبدُ هناك أي تعبير على وجه سانسوم، بينما اعتلى وجهَ إليزابيث زوجته تعبيرٌ من القلق

في حين بدأ سبرينجفيلد يتجه نحوي بوجه صارم لكنها أمسكت يده وابتسمت له بمعنى أن كل شيء على ما يرام ثم سارت إليّ وقالت بدبلوماسية: هل أنت بحاجة للحديث إلينا؟ ولم تعلق على ملابسي هذه المرة، كانت تتصرف بذكاء وحنكة، طريقتها تقول بين السطور: نحن نعرف أن بحوزتك معلوماتك تضرنا ونحن نكرهك لهذا، لكن سيكون من اللطف أن نتناقش بهذا الشأن قبل أن يصبح علانية.

وقفت إليزابيث أمامي وقالت شيئًا مماثلًا لأفكارها فأجبت: نعم نحن بحاجة للحديث..

تزايد تعبير الانزعاج على وجه سبرينجفيلد، بينما ابتسمت إليزابيث كأني وعدتها للتو بعشرة آلاف صوت انتخابي، وسار معنا سانسوم الذي كان مشغولًا بالحديث عبر الهاتف مع مدير حملته الانتخابية في واشنطن، طاقم الفندق لم يأبه حقًا لسانسوم لكنهم يعرفون أنه المتحدث الرئيسي للمؤتمر ذو التكلفة العالية ولذا أخذونا بحفاوة لغرفة جانبية، أغلق الطاقم باب الغرفة وتركوا أربعتنا بالداخل، أنهى سانسوم مكالمته ونظر إلي وساد الصمت.. ثم قطعته زوجته بسؤال:

- هل وجدوا الفتى المفقود؟

- نوعًا ما، لقد تخلى عن حياته الرياضية وهذا حسب كلامهم أمر نادر..

- لاعب كرة قدم أليس كذلك؟

كذا سأل سانسوم ليريني أن ذاكرته قوية، أومأت برأسي..

مط سانسوم شفتيه وغمغم: نعم هذا أمر نادر.

- واتصل بمدربه تاركًا له رسالة.

- متى؟

- ليلة البارحة.

- وماذا أيضًا؟

- كل هذا لأنه وقع في غرام فتاة.

ابتسمت إليزابيث بدبلوماسية وقالت: هذا مقبول إذن، الحب دومًا له الكلمة العليا..

- ليس مقبولًا إلا لو ظهر الفتى بنفسه ويقول هذا الكلام وجهًا لوجه لأبيه أو مدربة.

- أنت غير مقتنع بالرسالة؟

- الشك هو شعاري.

- وما الذي تريد الحديث بشأنه معنا؟

التفث صوب سانسوم وسألته: أين كنت في عام ١٩٨٣؟

خبا بريق سريع في عينيه، وقال: كنت رقيبًا في عام ١٩٨٣.

- هذا ليس بإجابة لسؤالي..

- لا أستطيع إخبارك بموقعي حينذاك.

- هل كنت في برلين؟

- لا أستطيع الإجابة عن سؤال متعلق بسرية الجيش.

- أنت أخبرتني أنك لم تسمع من قبل عن ليلى هوث.

- هذا صحيح.

- وماذا عن سفيتلانا هوث؟

- لا أعرفها.

تفحصت وجهه بحثًا عن دلالات كذب، لم أجد سوى عدم الارتياح، سألته: ولم تسمع عن سوزان مارك من قبل؟

- أخبرتك بإجابة هذا السؤال من قبل، لم أسمع عنها.

- هل حظيت بميداليتك في ١٩٨٣؟

لم يجبني وعاد الصمت للغرفة، ورن هاتف ليونيد داخل جيبي، شعرت به يهتز، فأخرجته ونظرت للشاشة، رقم يبدأ ب ٢١٢، في الأغلب يخص فندق الفورسيزونز، محاولة اتصال أخرى من ليلى هوث، هل لا يزال ليونيد مفقودًا؟ أم أنه قد عاد وحكى لها ما حدث وهي تتصل بي أنا تلك المرة تحديدًا؟

أعدت الهاتف لجيبي دون أن أرد وقلت لسانسوم: آسف بشأن المقاطعة.

هز كتفيه بمعنى أن الاعتذارات شيء سخيف لا فائدة له، عاودت السؤال: هل حظيت بميداليتك في عام ١٩٨٣؟

- لماذا هذا بالأمر المهم؟

تجاهلته وسألت: هل تعرف معنى ٦٠٠ ٨ ٢٢؟

- كود لائحة بالجيش في الأغلب..

- الافتراض من البداية كان أنه من الحماقة لشخص أن يبحث عن جندي من قوات الدلتا عبر سجلات البنتاجون، لكن هذا افتراض خاطئ، فالشخص الذكي هو من سيفعل شيئًا كهذا..

- كيف؟

- المعلومات السرية لن تخرج أبدًا من جهاز عسكري، لكن قسم العلاقات العامة بالبنتاجون سيرحب بفكرة الحديث عن بطل حرب حائز على ميدالية، ولو كان السائل يمتلك بالفعل أن الجندي المطلوب قد حصل على الميدالية في الثمانينيات، سنة ٨٣ تحديدًا فهذا سوف يسهل من الأمر، ونعم، لائحة الجيش ٦٠٠ ٨ ٢٢ القسم الأول، الفقرة التاسعة، تنص على حصول قسم السجلات المدنية بتقارير أوسمة ونياشين أبطال الحرب.. كل هذا ينطبق على قوات الدلتا وليس المارينز..

- لن تكون هناك تفاصيل عدا اسم الحائز على الميدالية.

- وهذا كل ما سيريده الشخص الذكي، اسمك..

نقلت إليزابيث ناظرها بيننا وقالت: لا أفهم.

التفت إليها لأشرح لكن سانسوم رفع يده وأجاب هو بطريقة "لا أسرار بيني وبين زوجتي": إنه أشبه بباب خلفي يا عزيزتي، لو أراد الشخص معرفة هويتي أو معرفة هوية من الذي قام بأمور عسكرية ببرلين عام ١٩٨٣ على سبيل المثال، وهو يمتلك معلومة أني قد حصلت على نيشان أو ميدالية ما

بعد إتمام المهمة، فيمكن تقصي تلك المعلومة من قسم شئون الموظفين والسجلات بعدما يحصلون على ضوء أخضر من العلاقات العامة بالبنتاجون..

تنهدت إليزابيث وردت: الولايات المتحدة كانت لها عمليات عسكرية في ٨٣ ببرلين والدلتا كانت هناك، الكل يعرف تلك المعلومة.

أشاحت إليزابيث بوجهها في محاولة لإخفاء ضيقها، هي لا تعرف ما فعله زوجها ببرلين في تلك الفترة، وربما لن تعرف أبدًا، سألتني: من الذي يسأل عن كل هذا؟

- سيدة عجوز تدعى سفيتلانا هوث، وفقًا لحكايتها فقد كانت تعمل بمنظمة الصليب الأحمر، ملحقة سياسية، وقد قابلت جنديًا أمريكيًا اسمه جون ببرلين، في عام ١٩٨٣، ساعدها أو أسداها صنيعًا ما، والآن هي تبحث عنه كرغبة عاطفية ناجمة عن امتنان، وابنتها اتصلت بالبنتاجون وانتهى بها المطاف مع سوزان مارك، التي كانت تبحث بالأمر، والفيدراليون وجدوا وريقة في سيارة سوزان بعد موتها، المكتوب على الوريقة هو رقم لائحة الجيش الخاصة بالأوسمة..

التفتت رأس إليزابيث لزوجها رغمًا عنها، وعيناها تصيحان بالسؤال: هل حصلت على ميدالية ما في ٨٣ ببرلين؟

تحاشى سانسوم نظرات زوجته، فوجهت له سؤالًا من الناحية الأخرى: لقد كنت بمهمة في برلين في هذا العام أليس

كذلك؟

- أنت تعلم جيدًا أني لا أستطيع إجابتك..

بدا واضحًا أنه يفقد صبره.. وأردف: أنت تبدو كرجل ذكي، فكر بالأمر... فكر فيم تسأله.

- أنا أحاول أن أسديك صنيعًا هنا، من رجل جيش سابق لآخر، لأني أعتقد أن هناك شيئًا مريبًا يحدث ولسوف يضرك بشدة.

عاد الهدوء لسانسوم بعدما أخذ نفسًا طويلًا وزفره ثم قال: أنا أقدر ما تحاول فعله، لكن من جندي لآخر عليك معرفة أن الإجابة بالنفي بمثابة التأكيد، عملية استنباط بسيطة ستقول لك لو نفيت وجودي ببرلين أني كنت بمكان آخر، وأنا لا أستطيع الإدلاء بتلك المعلومات، لكن.. بما أني أعتقد أن جميعنا هنا نعمل لنفس الهدف سوف أجيبك، كلا أنا لم أكن ببرلين عام ١٩٨٣.. هناك المئات ممن يدعون جون، أنت تتحدث مع الشخص الخطأ، وأنا لست الجندي الذي تبحث عنه السيدة العجوز.

***

تركت كلمات سانسوم أثرًا في الجو الهادئ بعدما انتهى من خطبته، ثم نظرت إليزابيث لساعتها بإشارة أن عليهم الرحيل، فاستدار سانسوم راحلًا وقال: عليك معذرتنا الآن، لدينا مؤتمر مهم، سبرينفيلد سيريك طريق الخروج..

بدا لي أن هذا طلب شديد الغرابة، أنا لست في مكتب

سانسوم، ولست بحاجة لسانسوم كي يخرجني من المكان، بإمكاني التجول بالفندق ومعرفة طريقي وحدي، ولن أسرق الصابون والمناشف بالتأكيد، حتى لو فعلت فهم لا يخصون سبريجفيلد، ربما سانسوم يريد إعطائي بعض الوقت الخاص مع سبرينجفيلد، أنا وهو فحسب، لأتلقى رسالة من الأخير أو شيئًا من هذا القبيل..

رحلت مع سبرينجفيلد دون كلمة أخرى وكذا فعل سانسوم مع زوجته..

ظل سبرينجفيلد وهو يسير جواري بردهة الفندق، بدا أنه يتدرب على ما سيقوله داخل عقله..

وقال أخيرًا عندما وصلنا لباب الفندق: أنت حقًّا بحاجة لنسيان تلك المسألة كلها.

- لماذا؟ طالما أنه لم يكن حتى في برلين..

- ببساطة لأن نفي وجود سانسوم في برلين يتطلب إثبات تواجده بمكان آخر، وأنت لا تريد معرفة هذا المكان.

ثم تابع: فقط انسَ الأمر.. أنت لن تستطيع تحمل تكلفة مواصلة السعي للمعرفة.

- لماذا؟

- هل تريد معرفة لماذا؟ سيتم محوك تمامًا، إزالتك، لن يجدوا جثتك، ولا اسمك، وشهادة ميلادك سوف تختفي مع رقم هويتك وكل سجلاتك العسكرية والمدنية، كأنك لم توجد

قط، نحن في عالم جديد وهم قادرون على فعل هذا، ربما تعتقد أني سوف أفعلها بنفسي لكن الفرصة لن تتسنى لي هم سيفعلونها، فقط انسَ الأمر.

- من هم؟

لا ردا

- الحكومة؟

لا ردا

- الفيدراليون؟

التفت راحلًا دون إجابة، بينما راقبته حتى اختفى عن بصري وخرجت من باب الفندق، كان هذا عندما رن هاتف ليونيد بجيبي مرة أخرى..

الفصل الخامس والثلاثون

وضعت الهاتف على أذني وأجبت المكالمة.

أتاني صوت ليلى هوث..

- ريتشر؟

- نعم.

- أنا بحاجة لرؤيتك بسرعة.

- بخصوص ماذا؟

- أنا في خطر، والدتي كذلك..

هناك حميمية وإلحاح في صوتها..

- ما الذي تتحدثين عنه؟

- لقد عدنا لغرفتنا فوجدنا أن أحدهم قام بتفتيشها، وطاقم الفندق أخبرني أن ثلاثة رجال أتوا وسألوا عني..

- أي ثلاثة رجال؟

- لا أعلم هويتهم.

- لماذا تخبريني بكل هذا؟

- لأنهم كانوا يسألون عنك أيضًا، أرجوك تعال وقابلني.

- أنت لست غاضبة بشأن ليونيد.

- أنا أتفهم الأمر في ظل الظروف الراهنة.. أرجوك تعالَ.

لم أقل شيئًا..

فتابعت هي: أنا أطلب مساعدتك.

كانت تتحدث بمزيج من الأدب والرقة، والخضوع، بطريقة فتاة تطلب من رجلها حمايتها.. لكن هناك شيء آخر بصوتها، نوع من الثقة، فهي جميلة لدرجة أن آخر رجل رفض طلبًا لها كان من عشرات السنين، إن كان هذا قد حدث، فتاة مثلها، الطلب بالنسبة إليها مثله مثل الحصول، لا يوجد فارق، لكن صوت سبرينجفيلد تردد داخل رأسي: انسَ الأمر..

قلت لليلى: سأقابلك بعد خمس عشرة دقيقة في ردهة الفندق..

ربما مقابلتها في ردهة الفندق أكثر أمانًا من غرفتها، واستقللت سيارة أجرة متجهًا للفورسيزونز.

***

ردهة الفورسيزونز كانت شبة خالية، رأيت ليلى تجلس مع والدتها بمنضدة جوار نافذة الحديقة، ليونيد لم يكن موجودًا، أمنت المكان بعيني للتأكد من عدم وجود أحد يراقبنا ثم ذهبت إليهم وجلست، ليلى ترتدي سروالًا أبيض وقميصًا أسود، بدت أكثر جمالًا وبساطة من آخر مرة رأيتها، سألتني فور جلوسي: هل أحضرتِ حافظة المعلومات الإلكترونية؟

- كلا.

رغم أنها كانت في جيبي.

- أين هي؟

- في مكان آمن.

- لماذا أتوا هؤلاء الرجال ودخلوا غرفتي وسألوا عني وعنك؟

- لأنك سألتِ عن أمور سرية.

- لكن رجل العلاقات العامة كان متحمسًا للأمر عندما اتصلت للمرة الأولى.

- هذا لأنك قد كذبت عليه.

- عفوًا!!

- لقد أخبرتيه أن الأمر حدث في برلين، هذا كذب، لم تكن برلين مكان الأحداث في ٨٣، الأمور مستقرة هنا، والحرب الباردة شبه متوقفة تمامًا هناك، ربما هناك القليل من المناورات بين المخابرات المركزية والسوفيتية، لكن لا شيء أكثر من هذا، لم يكن هناك تدخل حقيقي من الجيش الأمريكي، جنودنا هناك كانوا يذهبون في دورات تدريبية شبيهة بالجولات السياحية، لم تكن هناك معارك ولا ميداليات، لا أوسمة ولا نياشين، كلا ليس في برلين، ونتيجة لذلك فمن المستحيل أن تحصلي على نتيجة إيجابية من سوزان مارك، أنت لم تأتِ هنا مع والدتك لأن سوزان أخبرتك أنها توصلت لهوية الجندي جون الذي ذهب لبرلين في عام ٨٣..

- إذن لماذا أتينا إلى هنا؟

- لأنك حصلتِ على تعاطفها بعد حديثكم، وأصبحتم أصدقاء، وعندما أصبح الوقت ملائمًا أخبرتيها حقًّا بما تسعى إليه، وكيفية إيجاده، وهي فقط من عرفت حقيقة ما تريدينه.

انتهيت من الكلام وعدت للخلف بظهري ناظرًا إليها، الشخص الصادق سينفعل وتنجرح مشاعره، أما الكاذب الهاوي سيبرر ويعلو صوته، لكنها لم تفعل أيًّا من الأمرين، لقد ظلت صامتة، وعيناها تردان عليّ بصمت، مثل سانسوم عندما سألته، وقالت في النهاية: الأمر معقد للغاية.

لم أقل شيئًا.

فأضافت: لكنه ليس بهذا السوء رغم كونه معقدًا.

- سوزان مارك لن تتفق معك..

تنهدت ليلى، وقالت بصوت خفيض: نعم لقد طلبت مساعدة سوزان، وهي وافقت، وما فعلته تسبب لها بمشاكل مع جهات معينة، نعم أنا السبب غير المباشر لمشاكلها، لكني لست السبب المباشر.. أنا نادمة بشأن كل ما جرى.. أرجوك صدقني.. لو كنت أعلم مسبقًا كل تلك الأمور السيئة التي ستقع لما كنت طلبت منها شيئًا، لكنت رفضت طلب والدتي.

ابتسمت والدتها كعادتها عند ذكر اسم "أمي"..

- أي جهات معينة؟

- الحكومة الأمريكية.

- لماذا؟ ما الذي أرادته والدتك بالضبط؟

وبدأت ليلى في الإجابة..

الفصل السادس والثلاثون

كانت ليلى هوث - وفقًا لما حكته - في السابعة من العمر عند انهيار الاتحاد السوفيتي، ولذا كانت تحكي عن انهيار بلا تأثر، أخبرتني أن والدتها كانت تعمل حقًّا بالجيش الأحمر - الجيش الروسي - وأن الأمور كانت متفاقمة ومحتدة بعد سقوط السوفيت داخل الجيش كانت تعطيني مقدمة للأحوال قبل البدء بالحكي، ثم أكملت بأنه قد تم إرسال والدتها كملحق سياسي وحلقة وصل بين الجيش والصليب الأحمر لأفغانستان عام ١٩٧٩ بعد الغزو السوفيتي، والحرب مشتدة بين الأفغان والروس، بحيث تم إرسال قوات قناصة للمساعدة، زوج سفيتلانا كان قناصًا، وأخوها هو مساعده.. ولأن فرق القناصة الروسية هي الأفضل فقد تكمنوا من المقاومة الأفغانية، وتم تطوير بعدها أسلحة وبنادق خاصة تدعى"سايلنت فال"..

كنت أعلم مسبقًا تلك المعلومة ورأيت بندقية "فال" من قبل..

رأيت شبح ابتسامة خجول على وجه ليلى، وقليل من الفخر الوطني بدولة لم تعد موجودة، لا بد أنها ورثت هذا الفخر من والدتها ؛ لأن تلك البندقية كانت سابقة لعصرها وأبهرت العالم كله فيما يخص التسليح العسكري، تلك البنادق كانت بمثابة كابوس للعدو، أيًا كان، في جزء من الثانية ودون صوت أنت ميت، قلت لليلى: لقد كان هذا سلاحًا جيدًا.

ابتسمت ثم تلاشت ابتسامتها وواصلت السرد، كأنها على وشك حكاية الجانب المظلم من الأحداث في قصتها، حيث تم نقل والدتها لوادي كورينجال، بالقرب من باكستان، أمام جبال الهندوكوش، والحقيقة أن البريطانيين قد كتبوا كل شيء بخصوص أفغانستان إبان إمبراطوريتهم ومستعمراتهم وغزوهم لتلك البلد، قالوا: إن السياسة الوحيدة التي تصلح هي الحرب الخاطفة، لم يكن هتلر قد اخترع تلك الإستراتيجية من الحروب بعدُ، لكنك تفهم مقصدي، يضربون ويختفون ؛ لأن الأفغان شديدو الشجاعة عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن موطنهم، ودومًا - كذا قال البريطانيون - احتفظ برصاصة لنفسك لأنك لا تريد أن تقع أسيرًا، خصوصًا مع نسائهم، هن باسلات ويستمتن في الدفاع عن أراضيهم، وقائد الكتيبة التي عملت بها والدة ليلى كان قد قرأ هذا الكتاب، وقال: البريطانيون فشلوا لأنهم رأسماليون، لكننا - السوفيت - قلوبنا خالصة ولن نفشل، بالطبع هذا كان تفكيرًا أجوف منه لأنه قد فشل في النهاية، مثلما فشل الأمريكيون في فيتنام، على أي حال، إبان مناوشة مع المقاومة تعرضت الكتيبة لفخ، حيث انتظر رجال المقاومة بين الجبال، وتلونوا كالحرباء بلون الصخور والرمال، ثم بدأ الهجوم، أسقطوا المروحية بوابل من النيران ثم انقضوا على جنود المشاة، فاستسلم قائد الكتيبة لكنه تلقى رصاصة خاطئة من أحد جنود الكتيبة، وتم أسر والدتي، تنهدت ليلى بعد ذلك واقتبست كلمات للكاتب روديارد كيبلينج، عن المصير الحتمي والقدر ثم واصلت حديثها، يمكنك تفهم ما فعلته المقاومة الأفغانية من مقاومة

شرسة وعنيفة، العنف رد فعل للعنف في النهاية أليس كذلك؟ والوحشية تصنع المسوخ، وكل الأفعال الشرسة الخاصة بالمقاومة كانت رد فعل لما فعله جنود الاحتلال الذين كانوا يقطعون أجسادهم ويسلخونهم ويبترون أعضاءهم وأنوفهم وأذنهم ويقتلعون أعينهم، لذا كانت رصاصات لمقاومة غاضبة وبلا رحمة، ومثل البريطانيين والأمريكان في فيتنام اعتاد جنود السوفيت حرق مواطني أفغانستان أحياء، ثم صمتت ليلى في تأثر، وطرفت والدتها بعينها، أخذت نفسًا عميقًا وأنا أنظر إليهما، ليلى تحكي تلك التفاصيل كأنها كانت هناك، إلا أنها لم تكن هناك، والدتها هي من حكى لها كل هذا ونقلت لها تلك المشاعر، طرقت ليلى برأسها وأردفت: المقاومون كانوا يكرهون فرق القناصة بالأخص، أعتقد أن الجميع يكره فرق القناصة.. بسبب طريقتهم في القتل، تختبئ بعيدًا وتطلق رصاصتك، مثل قائدي الطيارات الحربية، هل تتخيل بغض العالم للطيار الذي ألقى بالقنبلة الذرية على هيروشيما ونجازاكي؟ والدتي كانت متعاطفة معهم، فقد ذهبت كجزء من الصليب الأحمر رغم انتمائها للجيش السوفيتي، لكنها تحب بلدها، ومن الطبيعي أن تنتمي لجيشها، وكما قلت لك سابقًا والدي كان قناصًا، وأخو والدتي كان مساعده، والدتي كانت حبلى بالمناسبة، كنت بين أحشائها في تلك الأيام، لقد تجمعوا فوق أرضية عسكرية تعود للحرب العالمية الثانية في كورينجال، وهم يتدثرون بمعطف ضخم يعود للحرب العالمية الأولى، والناتج لتلك اللحظة تجلس أمامك الآن، حكت لي والدتي أن المعطف كان به ثقوب رصاصات، مات صاحبة

الأصلي دون أن يتخيل حقيقة أن أحدهم سيستخدم معطفه كغطاء حميمي للعلاقة الزوجية بعد أربعين عامًا، ربما يعود المعطف لملحمة ستالينجراد، لا أعلم حقًا، آه انظر لقد تطرقت للكثير من التفاصيل الفرعية..

لم أعلق، ظللت صامتًا في انتظار أن تكمل حديثها..

مرت الأيام وبعد عدة أشهر عاد والدي مع خالي بعد إتمام مهامهم اليومية، كانوا الفريق الأفضل من القناصة، وكما تعلم فإن الأمريكان تواجدوا بأفغانستان في تلك الفترة..

تغيرت نبرة صوتها مع الجملة الأخيرة، سألتها: حقًّا؟ لا توجد سجلات رسمية بهذا؛ لأن تواجدهم كان بالتنسيق مع المخابرات المركزية، لكني أؤكد لك أنه قد تم إرسال جنود أمريكيين لأفغانستان.. في تلك الأيام كانت الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة.. وكل منهم شكّل عدوًّا للآخر، وحركة المقاومة كانت حليفة للولايات الأمريكية حينئذ قبل أن ينقلبوا عليهم، نفس سيناريو العراق لو فكرت بالأمر.. صلب الموضوع أن ريجان(4) قد أرسل جنودًا أمريكيين لأفغانستان إبان صراعه مع السوفيت.. كما أنه أراد أخذ أسلحتنا الجديدة وتقليدها، وبناء عليه تم إرسال قوات دلتا إلى هناك مرارًا وتكرارًا.. وفي إحدى الليالي، بعد نجاة والدي وخالي ووالدتي من فخ المقاومة وعودتهم للمعسكر آمنين، وجدهم جنود قوات الدلتا الأمريكية في الوادي.. وسرقوا بندقيتهم"سايلنت فال".. ولم يكن هذا أسوأ شيء، لقد قام الجنود بتسليم والدي وخالي لحركة مجاهدين،

لنسائهم بالأخص..لم يكن هناك داعٍ حقيقي لهذا، نعم إن تواجد الأمريكان هناك أمر سري وغير معلن وتوجب إسكات والدي وخالي، لكن هناك حلول بديلة عدة، ربما يقتلهم الجنود الأمريكيون بطريقة سريعة ورحيمة، لكن كلا، لقد اختاروا أن يسلموهم لمجاهدين، ولسبع عشرة ساعة ظلت والدتي تستمع لصراخ زوجها وأخيها وهم يعذبون حتى الموت.. لدرجة أنها لم تعد تستطيع تمييز أصواتهم عن بعض وسط كل هذا الصراخ..

رفعت ليلى عينيها ونظرت إليّ، كدت أن أتحاشى نظراتها لكني حاولت الحفاظ على ثباتي.. وواصلت هي حكايتها...

الفصل السابع والثلاثون

فكرت لثوانٍ وهي تتنهد قبل مواصلة حديثها، وتلك الثواني كانت كفيلة بجعلي أنحى ردة الفعل العاطفية لما حكته فقلت: أنا آسف لكني لا أصدقك.

- لكني أخبرك بالحقيقة.

- كلا.

هززت رأسي نفيًا للتأكيد على رفضي وأردفت: أنا كنت ضابط شرطة عسكرية بالجيش، نحن نعلم أين ذهب الجنود، وطبيعة المهمات السرية، لم يذهب أحد لأفغانستان حينذاك..

- لكن المجاهدين كانوا حلفاءكم..

- نعم، لن أنكر هذا، تلك طبيعة الدول في الحروب، مثلما فعلتم أنتم مع الفيتناميين عندما غزوناهم، أليس كذلك؟

كان هذا سؤالًا افتراضيًا وجدليًا لتوضيح وجهة نظر، لكن ليلى هوث أخذته بجدية ومالت اتجاه والدتها ثم تبادلت معها حديثًا خافتًا بلغتهم الأم، الأوكرانية، اتسعت عينا والدتها وهي تجيبها، عادت ليلى بكتفيها للخلف وقالت لي: كلا نحن لم نرسل جنودًا سوفيتًا لفيتنام، لقد كنا نثق في قدرة إخواننا هناك على الصمود والنصر، وبالفعل تمكن الرجال الصغار ذوو"البيجامات"(5) من هزيمة الآلة العسكرية الأمريكية العملاقة..

ابتسمت والدتها وهزت رأسها محيية كعادتها، قلت لليلى:

مثلما تمكن رجال القرى الأفغان من هزيمة السوفيت، لعل فكرة الغزو والاحتلال دومًا تفشل..

- لقد حصل الأفغان على المساعدة الأمريكية..

- هذا لم يحدث.

- وهل ستنكر أنكم وفرتم الإمدادات العسكرية والمالية لحركة مجاهدين كذلك؟

- مثلما فعلتم أنتم في فيتنام؟

كنت قد بدأت بالشعور بالسأم من هذا الجدال، الولايات المتحدة والسوفيت يسعون لغزو العالم وقتل العزل، ونحن نتباهى بقدرتنا العسكرية، تبًّا لكل هذا، ما أريد معرفته هو ما الذي حدث لسوزان مارك..

- متى التحقت بالجيش يا مستر ريتشر؟

- في عام ١٩٨٤.

- إذن أنت لم تكن موجودًا بالشرطة العسكرية عام ٨٣ لتجزم أن قصتي ليست حقيقية..

- هناك شيء ما يدعى الذاكرة السجلية.. أو السجلات العسكرية لو كان المصطلح الأول غير مألوف لك.

- أنت مخطئ، أمر كهذا لن يتم تدوينه في السجلات العسكرية أبدًا.. خصوصًا إبان حكم رونالد ريجان.. ولن أقول رئاسة، أنت تعلم أن هذا خداع للعامة، أنتم تحصلون على حكام مثلنا بالضبط..

- حتى لو كنت محققة، هناك احتمالية أن والدتك اختلط عليها الأمر، هي لم تكن معهم أليس كذلك؟ لقد رأت ما حدث من المعسكر أو سمعته من أحد الجنود، ربما قام المجاهدون بأسر والدك وخالك بمفردهما..

- وأين اختفت بندقيتهم إذن؟ لو كان الأفغان هم من حصلوا عليها لكانوا استخدموها ضد المعسكر وتمكنوا من قتل أربعين جنديًا على الأقل..

لم أعلق، همست ليلى: أنا أخبرك بالحقيقة.

- أنا رأيت تلك البندقية من قبل، عام ١٩٩٤، أخبرونا أنهم حصلوا عليها وكانت هناك حالة توتر عام بسببها، لماذا سينتظرون أحد عشر عامًا ليرونا البندقية وهم متوترون؟.. الجيش لن يفعل هذا، سيتباهى بالبندقية صباح اليوم التالي لعام ٨٣..

- بالعكس تمامًا، التباهي بالبندقية في عام ٨٣ كان سيتسبب باندلاع الحرب العالمية الثالثة، لأنه يقول إن جنودكم تقاتلوا مع جنودنا بشكل سري وغير قانوني في دولة أخرى بها حرب، لكن إظهارها لكم بعد سقوط الاتحاد السوفيتي هو أمر ملائم للغاية.. قل لي يا مستر ريتشر، عندما أروكم البندقية في ٩٤، هل وقعت تحديثات بعد ذلك؟ تغيرات في السترات الواقية للرصاص والخوذ على الأقل؟

- كلا.

- متى وقع آخر تحديث؟

صمتُ مثل والدتها وأنا أقفز بذهني للماضي وأسترجع الأحداث، لم يحدث شيء حقًّا بعدما أرونا البندقية، أجبتها: آخر تحديث كان في أواخر الثمانينيات..

- وهل من الطبيعي ألا يطور الجيش من نفسه بعد حصوله على هذا السلاح المبهر بمنتصف التسعينيات؟

لم أرد.. بينما جاء نادل ودود يعرض خدماته، وحصل على العديد من الطلبات العجيبة في المقابل، حيث طلبت ليلى ووالدتها - بعد أن ترجمت لها - شايًا بنكهة لم أسمع عنها من قبل، وطلبت أنا قهوة سوداء بلا سكر.. رحل النادل محافظًا على ابتسامته التي تقول: الفورسيزونز قادر دومًا على تلبية احتياجات نزلائه مهما كانت غريبة..

طرقت بإصبعي على المنضدة وسألت ليلى: أكملي حكايتك.. كيف عرفتِ أنك تبحثين عن جندي يدعى جون؟

- عليك أن تفهم الظروف جيدًا حينذاك، السوفيت مهيئون لحرب قادمة مع الغرب، كلنا نستعد لحرب في أوروبا ومع أمريكا، وأقوى جهاز مخابرات في العالم لم يكن الموساد بعد، لقد كان "الكي جي بي".. ولقد احتفظت المخابرات السوفيتية بدائرة معلوماتية كاملة عن الجيش الأمريكي، لذا بعد الهجوم فقد لجأت والدتي إليهم لكنهم نفوا أن لقوات المارينز دخلًا في الأمر، ورجحوا أن الدلتا هي المسئولة، لأنهم تلقوا برقية تشير لقائد كتيبة يدعى جون، حلق مع اثنين من جنوده لأفغانستان صباح هذا اليوم..

وصل النادل، شاب أنيق وإن بدا متقدمًا في العمر، مهذب ولا يزال محتفظًا بابتسامته، ملامحه أوروبية شرقية، ربما كان في الوادي مع والدة ليلى ونزح هنا بدوره، أي شيء وارد، تنهد وأخذت منه القهوة، بينما قام بعرض مسرحي وهو يصب الشاي إليهن، شاي خاص بنكهة لم يسمع عنها أحد، رحل النادل، رشفت من القهوة، في حين احتضنت ليلى كوبها بين يديها.. كأنها تطلب الدفء من ويلات هذا العالم، شردت لثوانٍ وأنا أفكر، أنا أعرف مدى قوة المخابرات السوفيتية بهذا الوقت، هم قادرون بالفعل على تلقي برقية كتلك والتعرف على قوات الدلتا، تخيلت جون سانسوم يسرق البندقية ويسلم والد ليلى وخالها لثأر المجاهدين، أنا أكره الحروب، أمقت فكرة كل تلك الأرواح التي تذهب هباء من أجل مطامع سياسيين يجلسون في مكاتبهم، لكني لا زلت أشكك بحكايتها، انتشلني من أفكاري صوت ليلى وهي تقول: والدتي تعلم بشأن النياشين والأوسمة، وكانت متأكدة أن الجندي المسئول عن سرقة البندقية سوف يحصل على ميدالية شرف، لكن بأي حجة؟ الحرب لم تكن مع السوفيت.. لا بد لهم من عذر كي يسلموه تلك الميدالية، أو يندرج الأمر أسفل "مهمة سرية "..

كنت أعلم أن كلامها صحيح فيما يخص تلك النقطة، نحن لم ندخل حربًا رسمية مع الروس، وكانوا حلفاء لنا إبان الحرب العالمية، وقام تشرشل بإرسال القطن والإمدادات والمؤن لهم والسلاح كذلك خلال الحرب، ورفض الروس كل تلك المعونات وردوا بمزحة أنهم يريدون للحلفاء أن

يشاهدوهم فقط وهم يكسبون الحرب..

- هل تستمع إليّ؟

قالتها ليلى إزاء شرودي فهززت رأسي، ثم تابعت: كنت أتحدث عن الميدالية.

- نعم نعم.. ربما يحصل على ميدالية الخدمة العسكرية، أو الميدالية الشرفية، أو النيشان الخاص بالفرق..

- ولا واحدة منهم هامة بما يكفي لمهمة كتلك.

- شكرًا، لقد حصلت على الثلاثة..

- أنت لم تحصل على اكتشاف عسكري سابق لعصره مثل البندقية الفال.. الأمر سيتطلب ميدالية من نوع خاص جدًّا.

- مثل ماذا؟

- استنتاج والدتي كان ميدالية الخدمة الخاصة..

هززت رأسي موافقًا، من الواضح أن سفيتلانا هوث محللة ذكية وحظت بتدريب فعّال من الكي جي بي، قلت: إذن أنت تبحثين عن رجل قوات دلتا يدعى جون، حصل على ميدالية الخدمة الخاصة في عام ١٩٨٣..

- شهر مارس عام ١٩٨٣، كان رقيبًا في تلك الفترة.

- وأنت جعلتِ سوزان مارك تساعدك في كل هذا؟

- لم أجبرها على شيء، هي كانت سعيدة لمد يد العون..

- لماذا؟

- لأنها كانت منزعجة مما حدث لوالدتي.

"تهز سفيتلانا رأسها وتحييني".

تردف ليلى: وكانت متعاطفة معي، لأني نشأت بلا أب مثلها..

- وكيف توصلت لاسم جون سانسوم؟ ومن فضلك لا تقولي لي حكاية الدعابة الخاصة برجال التحريات الخاصة مرة أخرى..

- تركيبة نادرة من التعقيدات هي التي أظهرت لنا اسم جون سانسوم.. صدفة غريبة وبسيطة ومعقدة في نفس الوقت، كنت أطالع الجريدة في لندن وقرأت عن حملة جون سانسوم الانتخابية، جزء من المقال احتوى على جزء من كتاب سيرته الذاتية، كيف أنه كان رقيبًا في عام ١٩٨٣، كيف حصل على ميدالية الخدمة الخاصة، إلخ إلخ.. وتلك كانت نقطة البداية والشك..

- ما الذي تريدون فعله بهذا الرجل بالضبط؟

بدت الدهشة على ملامح ليلى وهي تتراجع بكتفيها للخلف ثم قالت: نفعله؟ لا نريد فعل أي شيء بالطبع.. نريد سؤاله فقط.. لماذا؟ نعم.. هذا ما تتمناه والدتي وتلك هي رغبتها أيها الرائد ريتشر، والدتي تريد سؤاله عن السبب الذي دفعه لفعلته، هذا كل ما نريده، أن نسأله "لماذا؟"..

الفصل الثامن والثلاثون

أنهت ليلى قدح الشاي ووضعته جانبًا، ثم قالت: هلا أعطيتني حافظة المعلومات الخاصة بسوزان؟

لم أرد..

- لقد انتظرت والدتي نصف حياتها من أجل تلك اللحظة..

- لماذا انتظرت كل تلك المدة؟

- وأي شيء آخر كان بإمكانها فعله؟

لوّحت ليلى بيديها برقة مردفة: لكي تتوفر الفرصة مع المال والوقت والطرق اللازمة للوصول فهذا يعني معادلة تتطلب الكثير من الانتظار..

- لماذا قتل زوجك؟

- زوجي؟

- قلتِ إنه تعرض للقتل في موسكو..

- هذا أمر مختلف، لقد أخبرتك لو كان سانسوم قد أطلق رصاصة في صدغ والدي أو كسر عنقه أو طعنه أو أيًّا كان من الذي يتدرب عليه رجال قوات الدلتا فهذا أمر مقبول، كلاهما جنود في الحرب حتى لو كانت سرية وغير معلنة، لكن تسليمه للطرف الآخر ليتعرض للتعذيب لمدة سبع عشرة ساعة، هذا فعل غير إنساني، فعلة سادية وشريرة.. هل تريد رجلًا مثله في دائرة النواب؟ والدي لم يستطع حتى الدفاع

عن نفسه لأنه بندقيته أُخذت منه.. هلا أعطيتني المعلومات التي توصلت إليها سوزان؟

ملت للأمام وقلت بحرص: اسمعيني جيدًا، أنت لن تتمكني أبدًا من الوصول لسانسوم، نحن في زمن السرية والتكتم، ووفقًا لكلامك الأمر كله غير رسمي، وهناك وكالات فيدرالية تعمل بالفعل لجعل الأمر في طي الكتمان، دعك من الحراسة حول سانسوم، فرصة الحديث شبه معدومة ولن تفيدك أي معلومات توصلت إليها سوزان، لأنك قد سألتِ عنها وعن سانسوم بالفعل واسمك الآن ظاهر بالقضية للعيان، أفضل سيناريو أنهم سيقومون بترحيلك عن البلد وفي لندن ستجدين المخابرات البريطانية بانتظارك، ولسوف تظلين تحت المراقبة طيلة حياتك، هذا أفضل سيناريو، أما الأسوأ هو أنك سوف تختفين تمامًا دون أثر..

كانت سفيتلانا هوث تحدق بالفراغ بينما لأتحدث..

- وبعد أن تختفي بمبدأ الآن أنت موجودة وفي الثانية التالية أنت غير موجودة سوف تستيقظين لتجدي نفسك في جوانتانامو كي تتعفني داخل زنزانة لبقية عمرك، هذا لو لم يقتلوك بالطبع..

ليلى هوث صامتة ولا تعلق.

أردفت: نصيحتي هي نسيان الأمر كله، والدك وخالك قتلوا إبان الحرب، الأشياء السيئة تحدث طيلة الوقت في الحروب..

- نحن نريد معرفة السبب ليس أكثر، نريد سؤاله لماذا

فحسب..

- أنت تعرفين الإجابة عن سؤالك هذا بالفعل، لم يكن هناك تصريح بالحرب، وبالتالي هو لم يمتلك تصريحًا بالقتل، فقط بالسرقة، تلك هي قواعد الاحتكاك العسكرية، هم يأخذون الجنود في محاضرة تعريفية ويلقنونهم تلك الأوامر قبل إرسالهم لمهماتهم..

- والحل كان أن يسلمه للمجاهدين؟

- من وجهة نظره هذا الحل الأفضل، أنت بنفسك قلتِ إن تلك أوقات مضطربة، وربما لو قتله بيده لاندلعت حرب عالمية ثالثة..

- هل رأيت الملف الخاص بسوزان داخل الحافظة؟ هل توصلت هي لتأكيد بشأن هوية سانسوم؟ فقط أخبرني بهذا على الأقل، لن أستطيع فعل شيء دون التأكد..

- لا يجب أن تفعلي أي شيء على الإطلاق..

- ما حدث لوالدي لم يكن بالأمر الصحيح ولا العادل.

- غزو أفغانستان لم يكن أمرًا صحيحًا ولا عادلًا كذلك..

- وماذا عنكم أنتم؟ العراق وفيتنام وباقي البلاد التي غزوتموهم؟

- ليس بالأمر الصحيح ولا العادل كذلك وكان يجب أن نبقى مكاننا..

- هل ستساعدنا؟

- سوف أساعدك في نقل حقائبك للمطار.

- ألا توجد أي وسيلة لتغير رأيك؟ أي شيء أفعله لك؟

- كلا.

أتى النادل ومعه الحساب، لا بد أنه تعلم أشياء عدة جديدة عن نكهات الشاي..

- يجب أن يعرف الجميع حقيقة ما فعله سانسوم.

- لو كان هو حقًّا من فعل كل هذا.

ثم أخرجت هاتف ليونيد من جيبي وتركته فوق المنضدة.

- أرجوك احتفظ بالهاتف.

- لماذا؟

- لأني سأظل مع والدتي هنا لبضعة أيام وأنا أريد وسيلة للاتصال بك لو أردت هذا.

قالتها ببساطة دون نظرات مائعة أو دلال، بلا محاولات إغواء، بل بشكل تقريري كأنها تعرض حقيقة بسيطة داخل محاضرة.. لكنها لو كانت داخل محاضرة لظل الطلبة منبهرين بجمالها طيلة الوقت ولن ينتبهوا لأي حرف تقوله..

أكملت هي: حتى لو لم تكن صديقًا لنا.

شعرت بنبرة مستترة من التهديد أو التلميح بخطر ما في كلامها، أو ربما هي كانت حزينة فحسب.. حزينة وعنيدة ومصرة على الوصول لهدفها..

أعدت الهاتف لجيبي وحيبتها هي ووالدتها برأسي ثم رحلت، عائدًا للشيراتون، مفكرًا أني سألحق سانسوم، لم يكن لينتهي من مؤتمره بعدُ..

الفصل التاسع والثلاثون

لم أصل للشيراتون قبل انتهاء سانسوم من مؤتمره، بسبب الازدحام والتكدس المروري على الأرصفة والشوارع، هذا جزء من السبب، أما الجزء الآخر - كما عرفت فيما بعد - أن المؤتمر لم يستغرق وقتًا طويلًا.. هذا أمر منطقي بعد كل شيء، فرجال الحفلات الخيرية يريدون قضاء أكبر وقت في جمع الأموال بدلًا من التبرع بهم..

"مستر سانسوم عاد لمقر حملته الانتخابية "قالها لي موظف مبتسم، وبعد نصف ساعة كنت أقف أمام مقر حملته، لم يسألني موظف الاستقبال عن سبب زيارتي أو هويتي، هذا لأن سانسوم لم يصبح عضو مجلس الشيوخ بعد، عندما تترشح فأنت تلتزم بما ينص عليه الدستور، وهو السماح لكل المواطنين بمقابلتك والإجابة عن أسئلتهم، أما بعد أن يتم انتخابك سيكون هناك حراس ورجال أمن يمنعون أي أحد من لقائك، دلفت لمقر الحملة، عشرات الشباب المتطوع والمتحمس، مكالمات هاتفية تجري هنا وهناك، ذهبت لشابة بدت أنها حديثة التطوع وسألتها عن مكتب سانسوم، أخبرتني بحماس أنه في الدور الثاني، صعدت أدراجًا بلاستيكية أنيقة ووصلت للطابق الثاني، حيث يوجد عدد آخر من المتطوعين والحواسب الآلية وأجهزة فاكس، بحثت بعيني حتى وجدت مكتبًا زجاجيًا شفافًا، لم يكن هناك شيء مكتوب عليه لكن كان من السهل تخمين أنه مكتب المرشح، هناك العديد من النياشين والأعلام الأمريكية بالداخل، ترى

هل ميدالية الخدمة الخاصة بالداخل أيضًا؟.. هناك موظفة استقبال شقراء تجلس أمام مكتب، ربما هي متطوعة بدورها، لا أعلم ولا أريد العلم لأن سبرينجفيلد كان يقف أمامها، منحنيًا يتحدث معها، ثم التفت ورآني فزفر بقوة واقترب مني مشيرًا بإصبعه وقائلًا كلمة واحدة: الكافتيريا..

ذهبت معه للكافيتريا لكن سانسوم لم يكن هناك، زفر سرينجفيلد مرة أخرى ثم قادني لمكتب آخر مكتوب عليه: للاجتماعات..

ابتسمت لطريقتهم في تبرير وجود مكتب آخر للمتطوعين، طبعًا هذا المكتب الذي يجري فيه سانسوم اللقاءات والمكالمات التي لا يجب أن يعرفها أحد، كان المكتب أصغر من جناح الفنادق بفارق ضئيل، هناك نافذة وصور بإطارات أنيقة، شهادات فخر وتقدير ومقتطفات من جرائد تتحدث بإيجابية عن سانسوم معلقة على الجدار خلف مقعد أحمر كبير جلس فوقه سانسوم، يجلس بعد أن خلع سترته، وفتح ياقة قميصه، هناك قلم يده وأطنان من الورق أمامه، بدا كرجل مرهق للغاية من فرط الجلوس، خلفه بالضبط تستقر على الحائط جزء من جريدة، نفس الجزء الذي وجدته بكتاب سيرته الذاتية، صورة له مع دونالد رامزفيلد وقيادي مشهور في بغداد، مع عنوان: أحيانًا يتحول أصدقاؤنا لأعداء، وأحيانًا أخرى يصبح الأعداء أصدقاء لنا.

هناك باب خلفي يسمح بخروج زائر غامض دون أن يراه أحد، لكن من؟ ولماذا؟ باقي الصور كانت له وهو يصافح

مبتسمًا أو بوجه مقتضب العديد من الشخصيات العامة والمسئولين، إليزابيث كانت تقف جواره بمعظم الصور.. رفع عينيه اتجاهي بعدما جلست أمامه وسبرينجفيلد يقف جواري، وقال سانسوم: أنت مرة أخرى.. حسنًا.. تفضل بالحديث.

- أنا أعلم بشأن مهمتك وسبب حصولك على ميدالية الخدمة الخاصة في مارس لعام ١٩٨٣..

- كيف؟

- بسبب بندقية"سايلنت فال"، تحفة بنادق القناصة في الثمانينيات والتسعينيات كما اعتادوا تسميتها، السيدة العجوز هي أرملة الرجل الذي أخذت منه البندقية، ربما أنك لم تسمع عن ليلى هوث ولا سفيتلانا هوث من قبل، لكنك قابلت رجلًا يدعى هوث في مارس عام ٨٣، لعلك أخذت ميداليته وشارته التعريفية وقمت بترجمتهم، ربما أنك تحتفظ بهم كتذكار لإنجازاتك العظيمة..

لم يكن هناك دهشة على وجهه ولا محاولة إنكار، وإنما قال بحزم ووجه مقتضب فحسب: كلا، إن ميداليته وشارته التعريفية في الحقيقة يقبعان بدرج ما مع ملف تقرير المهمة في قسم العمليات الخاصة..

لم أقل شيئًا..

- اسمه جريجوري هوث، عمره يقارب عمري، كان قناصًا كفئًا على خلاف مساعده، الذي توجب عليه أن يسمعنا ونحن

نتسلل إليهم..

لم أعلق، وساد الصمت لبرهة، ثم تخلى سانسوم عن أسلوبه الدفاعي وارتمى للخلف وهو يقول مرهقًا: يا لها من طريقة لكي يفتضح أمرك، النياشين وسيلة للعرفان والتقدير وليس للعقاب.. ليس من المفترض أن تتسبب ميدالية حصلت عليها في فضح أمري وإهانتي على الملأ، الآن أشعر أن تلك الميدالية أصفاد سميكة حول عنقي..

لم أقل شيئًا.

- ما الذي ستفعله الآن يا ريتشر؟

لم أقل شيئًا.

- حقًا؟

تجاهلته وقلت: هم يكذبون بصدد شيء ما وما يهمني هو معرفة ما حدث لسوزان، لماذا يكذبون؟ لأنهم يدعون أنهما ابنة ووالدتها، وهذا ليس حقيقيًا.. الابنة صارخة الجمال على خلاف الأم، عندما زرتهم للمرة الأولى كانت معي محققة من نيويورك وقد أخبرتني أن الابنة ستصبح نسخة من والدتها بعد ثلاثين عامًا، لكنها مخطئة، لا يوجد شبه بينهم على الإطلاق..

- إذن من هما؟

- أنا مستعد لتصديق أن السيدة العجوز حقيقية، مجندة سوفيتية سابقة وملحقة كهمزة وصل مع الصليب الأحمر،

وقد فقدت زوجها وأخاها في أفغانستان.

- أخوها؟

- مساعد جريجوري..

- لكن الابنة زائفة؟ وما هو غطاؤها؟

- تدعي أنها أرملة مليونير روسي مات في موسكو وتعيش بلندن..

- وهي غير مقنعة في هذا الدور؟

- لديها الملابس الكافية للإقناع والأداء التمثيلي، ربما أنها فقدت زوجها في الحقيقة، لكن.. أعتقد أنها صحفية.

- لماذا؟

- لأنها تعرف الكثير من الأشياء وتمتلك عقلًا فضوليًا وتحليليًا، ولديها حس رائع في سرد الحكايات، وتتحدث كثيرًا لأنها واقعة في غرام الكلمات ولا تستطيع منع نفسها.. كما أنها تمتلك حسًا دراميًا قويًا، حيث تحدثت عن ظروف حمل والدتها، وكيف حدث الأمر أسفل معطف لجندي من الحرب العالمية الثانية، هل مات الجندي فأخذوه ودفنوه بدون معطفه؟ أنها تمتلك خيال المؤلفين دون حاسة المنطق.. أنت تعلم أنه قد تم تدريبنا على خوض حرب مع الجيش الأحمر، لقد درسناهم مثلما درسونا، كل تفاصيلهم، طريقة تفكيرهم، كنا نتوقع أن نكسب، ربما توهمنا قليلًا لكننا توقعنا المكسب، مثلهم بالضبط.. على أي حال أعتقد أنها صحفية

لكن السيدة العجوز كانت بالفعل مع السوفيت..

- أي نوع من الصحافة؟

- ربما صحافة تلفزيونية، هل رأيت مذيعي التلفزيون الأوروبي؟ كلهم نساء صارخات الجمال.

- أي دولة؟

- أوكرانيا..

- والدافع؟

- جزء حقوق إنسان وجزء تاريخي وتحقيقي وجزء فضح مرشح سياسي أمريكي يتفق الجميع على كونه رجلًا مثاليًا..

- هل تقصد أنها تعمل بالقناة التاريخية في روسيا؟

صححت كلامه قائلًا: أوكرانيا..

- وهل سيكون دافعهم هو إخراجنا بعد مرور حوالي خمس وعشرين سنة؟

- كلا ليس إخراجنا نحن بل الروس، هناك توتر متصاعد بين البلدين.. إنهم متفقون بالفعل أن أمريكا شريرة، لكنهم يريدون إقرار أن روسيا ليست مختلفة عنها وأنها آذت أوكرانيا كثيرًا عندما كانت تابعة لها إبان الاتحاد السوفيتي بإرسال جنود من هناك لأفغانستان..

- ولماذا لم يذيعوا القصة حتى الآن؟

- لأنهم يريدون تأكيدًا قبل النشر والإذاعة.. هم ليسوا مثل

جريدة التايمز، لديهم ضمير فيما يبدو..

- هل سيحصلون على هذا التأكيد؟

- أنت لن تعطيه لهم وسوزان مارك ماتت..

- لماذا يدعون أنهما أم وابنتها؟

- لأن الأمر له تأثير عاطفي هائل وجذاب للغاية كتلك اللقطات المؤثرة التي يتم عرضها في برامج التلفاز الواقعي، هل كنت تعلم أن زوجتك تخونك؟ "كلا "ويبكي الجميع بعدها..

- لماذا سينتظرون كل هذا الوقت؟

- يتطلب الأمر أعوامًا لبدء وإنشاء قناة تلفزيونية جادة، ربما أهدروا أعوامًا يتحدثون عن أشياء مفيدة.

- أنت تعرف الكثير من الأشياء بدورك.

قالها سانسوم وهو يهز رأسه بغموض..

- أنا مهتم فقط بما حدث لسوزان مارك.

- أنت تعطيني كلمتك بأنك لن تتحدث عما جرى في أفغانستان.

- لقد رأيت الكثير من الأشياء التي لم يكن لها مفترض أن تحدث في الجيش ولم أتحدث عنها.. لثلاثة عشر عامًا كاملين...

- أنا غير سعيد بسهولة وصول أطراف أجنبية لموظفة مثل

سوزان مارك، وحقيقة إننا لم نعرف أي شيء عن الأمر، كنا دومًا رد فعل متأخرًا في تلك القضية.

لم أحب صيغة نحن التي يتحدث بها لكني آثرت الصمت.. ثم قلت في النهاية عندما أدركت أنه ينتظر ردًا مني: تحدث مع البنتاجون بهذا الخصوص.. والفيدراليون الذين أتوا لرؤيتي من "ووترجيت"..

- سوف أفعل هذا..

ثم صمت سانسوم وهو يفكر ويعيد تقييم الموقف قبل أن يقول لي فجأة: ما هو رأيك بشخصي الآن؟

- هل هذا يهم؟

- أنا سياسي، اعتبره رد فعل تلقائيًا أن أوجه لك سؤالًا كهذا..

- كان يجب أن تطلق رصاصة على رأسه، لم يكن هناك سبب حقيقي لكي يتعذب حتى الموت.

تغير تعبير وجه سانسوم قبل أن يقول بسرعة: لم يكن معنا أسلحة كاتمة للصوت.

- كلا.. هذا ليس حقيقيًا.. كان معك بندقية الفال..

- ماذا عن قواعد الاحتكاك؟

- أنت تجاهلت تلك القواعد بالفعل عندما هاجمته وأخذت بندقيته، والجيش الأحمر لم يكن يملك فريق تحقيق جنائي، لن يستخرجوا الرصاصة ويستنتجوا أنها من الفال..

- إذن ما هو رأيك بشأني؟

- لم يكن عليك تسليمه للعدو.. وهذا هو محور القصة بالنسبة للإذاعة الأوكرانية أو أيٍّ كان.. أن تقف جوارك سيدة عجوز وتسألك "لماذا؟"..

تنهد سانسوم بحزن ثم قال بقليل من الشرود: أتمنى أن يحدث هذا، هل تعلم لماذا؟ لأننا لم نسلمه للمقاومة، لقد أطلقنا سراحهما بعدما أخذنا البندقية، تلك هي الحقيقة.. كانت مخاطرة محسوبة، لأنهم - جنود السوفيت - يخافون من رؤسائهم بشدة، كلا الوصف الأدق هو أنهم يرتعبون منهم.. إن تفقد بندقية كتلك لهو أمر ثمنه باهظ، لذا رأيي أنهم كانوا سيصيحون بالحقيقة دون توقف، لم يكن المجاهدون هم من أخذوها بل القوات الأمريكية.. وطبعًا لأن رؤساءهم يعرفون مدى خوف جنودهم منهم فلسوف يعتبرون أن القصة الحقيقية ليست عذرًا خياليًا يائسًا.. لكننا لم نسلمه للمقاومة، أعتقد أنهم كانوا خائفين للغاية ولم يعودوا للمعسكر، ظلوا يتجولون في صدمة حتى وجدهم أفراد المجاهدين، كما أن جريجوري هوث كان يهاب زوجته؛ لأنها ملحقة سوفيتية ولها علاقات عدة بالكي جي بي.. لكني بالطبع لا أتوقع أن يصدقني أحد..

لم أعلق!

- أنت محق بشأن التوتر المتزايد بين أوكرانيا وروسيا كذلك، لكن هناك توتر داخل روسيا نفسها، هم منقسمون، ولو

حصل حزب كورينجال على قصة كتلك ستحدث زوبعة عاتية هناك.. سيكون الأمر بمثابة الحرب الباردة مرة أخرى..

كنت شاردًا عندما عاد سانسوم لصمته، بعدها رن هاتف مكتبه فأجاب وسمعت صوت امرأة خمنت أنها موظفة الاستقبال تذكره بشأن اجتماع ما، فهي موظفة استقبال وسكرتارية إذن.. أنهى سانسوم المكالمة واعتذر لي بلطف قائلًا: عليّ الرحيل.. سأرسل أحدهم ليرافقك للخروج..

انتبهت في تلك اللحظة أن سبرينجفيلد قد تلاشى منذ فترة، ثم نهض سانسوم ورحل، التفت ونظرت إليه حتى خرج تمامًا من الردهة المواجهة للمكتب، تلاقت عيني بموظفة الاستقبال التي ابتسمت لي ففعلت المثل ثم جلست أنتظر، لم يأتِ أحد، عدت للنظر للصور على الحائط وأنا أتذكر سانسوم وهو يسير خارجًا من المكتب كرجل بريء لا يوجد لديه شيء ليخفيه.

"نحن دومًا رد فعل متأخر في تلك المسألة "هذا ما قاله سانسوم، وبدا لي أنه يكذب ويتحدث بدبلوماسية أكثر من اللازم، وقفت بهدوء متظاهرًا بالشعور بالملل أمام أعين موظفة الاستقبال، وضعت يدي في جيبي وبدأت أتجول ببراءة في المكتب، ثم سرت نحو الحائط كأنها خطوة عشوائية تمامًا، تفحصت عيني الصور، سانسوم يصافح هذا وذاك بابتسامة أو بوجه رسمي، بدأت في عد الوجوه داخل الصور، أربعة وعشرون وجهًا، أربعة رؤساء وخمسة رياضيين واثنان من نجوم هوليوود، وهناك دونالد رامزفيلد وقيادي

مشهور في بغداد وطبعًا زوجته إليزابيث وسبرينجفيلد في العديد من الصور، ثم رأيت الشخص الخامس والعشرين..

كان يقف جوار سانسوم وإليزابيث وسبرينجفيلد وعدد من الشباب المتطوع بالخلفية..

يقف بابتسامة واسعة.. رجل صلب واثق من نفسه.. بعينين تتقدان بالذكاء..

يبدو كاستشاري من نوع خاص وإستراتيجي.. يبدو كشخص قادر على حل المشاكل..

عينان تبدوان كأنهم ينتميان للاعب شطرنج وبطل رياضي في نفس الوقت..

هنا عرفت سبب تمثيلية الكافيتريا التي حدثت منذ قليل..

ومن هو زائر سانسوم الغامض الذي خرج من الباب الخلفي..

لقد رأيته من قبل.. في العربة رقم ستة لقطار الأنفاق بنيويورك، الثانية صباحًا، قبل أن تقتل سوزان مارك نفسها..

هذا هو الراكب الخامس الذي اختفى دون أثر بعد الواقعة..

بعد جريمة منتصف الليل..

الفصل الأربعون

أعدت معاينة كل الصور المعلقة أمامي على الحائط وهم ينظرون إلي في صمت، بينما كان الرجل موجودًا بهم جميعًا، لكن يجب أن تنتبه جيدًا كي تلاحظ حقيقة وجوده، فهو إما في الخلفية، أو يقف في ركن بعيد متواريًا كمحرك دمى خفي في المسرح، وتعبير وجهه يقول إنه هو المسئول عن كل انتصارات سانسوم السياسية، ربما ليس السياسية فقط، إذن الراكب الخامس في قطار الأنفاق يعمل مع سانسوم وقد كان هناك لمراقبة سوزان، مراقبتها فقط أم فعل شيء آخر؟.. سانسوم يكذب، ليلى تكذب، والحقيقة الوحيدة أن سوزان قد قتلت نفسها خوفًا من شيء ما.

انقطعت أفكاري عندما وصل متطوع شاب أرسله سانسوم ليخرجني من المبنى، بعد دقائق كنت أسير شاردًا في الشارع، عقلي محموم بالتفكير.. أشعر أني أعرف الحقيقة لكن عقلي لا يدرك أني أعرفها بعد، هناك شيء ما خاطئ، الكل يكذب بلا توقف، أردت تصفية أفكاري والعودة لنقطة البدء، ذهبت لقطار الأنفاق، انتظرت العربة رقم ستة ثم ركبتها متجهًا للمحطة المركزية، جلست في وجوم ونظرت لمكان شاغر أمامي، تخيلت سوزان مارك وهي تجلس مرتعبة وتتمتم بعبارات خافتة بينما ترتدي سترة شتوية لا داعي لها، وهناك أخرق ما يعتقد أنها مفجرة انتحارية، أمامي جلس مجموعة من عمال البناء بزيهم البرتقالي، تبادلت معهم نظرة سريعة وعدت لأفكاري، ما الذي حدث لك يا سوزان؟ وأين بيتر؟ هل

جايك أخوك يكذب بدوره؟ ترجلت من القطار في المحطة المركزية، تخيلت الشريط الأصفر ورجال الشرطة يحوطون مسرح الجريمة في تلك الليلة بينما المسعفون يحملون ما تبقى من سوزان فوق محفة ما، بينما الراكب الخامس يتسلل بعيدًا عن الأنظار، سانسوم أيها الكاذب اللعين، أيها السياسي المتملق، هل أطلقت سراح جريجوري هوث حقًّا في أفغانستان؟ أم أنك سلمته للمقاومة؟.. واصلت السير وخرجت من المحطة، جلست في مطعم شطائر وتناولت عشاء سريعًا ثم ذهبت لقسم شرطة نيويورك، سألت موظفة الاستقبال عن تواجد ثيريسا لي ثم لمحتها واقفة في الخلف جوار دوشيرتي الذي كان يتحدث عبر الهاتف، كان يستمع أكثر من الحديث، رأتني ثيريسا، وبدا من تعبير وجهها أنها لن تصاب بانهيار عصبي لو لم تتحدث معي، نظرت إلي الرقيبة التي تجلس كموظفة استقبال بتعبير وجه من طراز: ارحل أو اذهب إليها وجرِّب حظك، هذا هو قرارك.. رفعت حاجبي للرقيبة واتجهت لثيريسا لي التي قالت لي بوجوم: أنا لست في المزاج الرائق للحديث عن سوزان مارك..

- هل حدث شيء؟

- كلا.

- لا مستجدات؟

- كلا، لا شيء على الإطلاق.

- لا يوجد شيء بخصوص بيتر؟

- هل أنت قلق حقًّا بشأن ابنها؟

- أنت لست قلقة؟

- كلا، الفتى بخير..

- وملف القضية لا يزال مغلقًا؟

- كتابوت محكم الإغلاق.

قلت بضيق: حسنًا..

نظرت إلي تيريسا بتمعن، ثم قالت: هل هناك مستجدات لديك؟

- أنا أعرف من هو الراكب الخامس.

- لقد كان هناك أربعة ركاب فقط.

- بالتأكيد بالتأكيد والقمر مصنوع من الجبنة بينما الأرض مسطحة..

- وهل ارتكب راكبك الخامس المزعوم هذا جريمة ما في منطقة تخص شرطة نيويورك؟

- كلا.

- إذن ستبقى القضية مغلقة..

انتهى دوشيرتي من مكالمته الهاتفية وألقى بنظرة ذات مغزى لثيريسا لي، كنت أعرف معنى تلك النظرة الجيدة بحكم أني كنت شرطيًا من نوع مختلف لأكثر من عقد كامل، نظرة ارتياح أن هناك قضية كبيرة ومعقدة تم إسنادها لشخص

آخر وارتاح هو من المسئولية، وجهت سؤالًا لثيريسا إزاء تلك النظرة: ما الذي حدث؟

- جرائم قتل في الحي السابع عشر، أربعة رجال تعرضوا للضرب ثم تم قتلهم..

وأضاف دوشيرتي: ضربوهم حتى الموت بالمطارق..

- مطارق؟

- مطارق معدنية يستخدمها النجارون، تم ابتياعهم من متجر بشارع ٢٣ بواسطة شخص مجهول لم يظهر في كاميرا المراقبة، وقد وجدنا المطارق في مسرح الجريمة ملطخة بأجزاء من مخ ودماء الضحايا..

- ومن هم الرجال القتلى الأربعة؟

- لا أحد يعرف بعد، ربما هذا مقصد استخدام المطارق، لقد حطموا عظام وجوههم تمامًا ولا يمكن التعرف عليهم كما أنهم اقتلعوا أسنانهم.. وأصابعهم كذلك؛ لذلك لا يوجد تعرف على الوجه أو بصمات أو حمض نووي من الأسنان..

- هل كانوا قوقازيين، سودًا، يافعين أم مسنين؟

- سود البشرة، ليسوا مسنين كلا، وقد كان معهم بطاقات عمل مزيفة، باسم شركة غير مسجلة ضريبيًا، ورقم هاتف مدون على البطاقة لا يعمل..

كنت أفكر وهو يتحدث لنفسي: رجال التحريات الخاصة الذين كانوا يعملون لدى ليلى هوث..

الفصل الواحد والأربعون

رن هاتف دوشيرتي مرة أخرى فالتقط السماعة وبدأ يستمع، بينما غمغمت تيريسا: نقيب من دائرة ١٧ يخبره بالجديد..

نظرت إليها وقلت بهدوء: عليك فتح ملف القضية مرة أخرى الآن.. لا مناص من هذا.

- لماذا؟

- لأن القتلى الأربعة هم رجال التحريات الخاصة.

رفعت تيريسا رأسها وحدقت بي قبل أن تضيق عيناها وتسأل: ومن أنت الآن؟ وسيط روحاني؟

- لقد قابلتهم مرتين.

- لقد قابلت أربعة رجال يعملون في مجال التحري الخاص، لا يوجد شيء يقول إنهم القتلى.

- أعطوني بطاقات عمل مزيفة.

- كل رجال التحريات الخاصة لديهم بطاقات عمل مزيفة.

- ورقم هاتف لا يعمل؟

- تلك ليست قضيتنا لقد تم إسنادها لفريق آخر.

- هؤلاء الرجال كانوا ضباط شرطة سابقين، ألا تهتمي لهذا؟

- أنا أهتم برجال الشرطة الحاليين.

- لقد ذكروا اسم ليلى هوث.

- أنا غير مقتنعة بكونهم نفس الرجال.

- الأمر كله سلسلة جميلة ولطيفة من المصادفات بالنسبة لك.

بدا أنها على وشك فقد أعصابها وقالت بنفاد صبر: نحن في نيويورك، هناك مئات الأعمال غير القانونية ورجال التحري الخاص والشركات الوهمية.

- لقد ذكروا اسم سانسوم كذلك.

- ليسوا هم.

- هم أول من ذكروا اسمه أمامي.

كنت أتجاهلها عمدًا وبدا أن حنقها يتصاعد.. ثم رفعت يديها كأنها تهدئ نفسها وقالت: لو كانوا هم حقًّا فربما أنهم يعلمون لدى سانسوم وليس هوث، وأرادوا الاطمئنان أنه لا يزال في دائرة الأمان.

- كلا سانسوم لديه رجل يسبقنا جميعًا وهو الراكب الخامس في القطار.

لم ترد.

- ألن تفعلي أي شيء؟

- سأخبر رجال الدائرة ١٧ بشكوكك.

- لن تعيدي فتح ملف القضية؟

- كلا، لن أفعل شيئًا كهذا لحين حدوث جريمة في منطقة صلاحياتي..

- وداعًا إذن، أنا ذاهب للفورسيزونز..

***

كان الوقت متأخرًا واستغرق الأمر وقتًا لحين إيجاد سيارة أجرة، ترجلت منها ووقفت أمام الفندق الفاخر، دلفت بهدوء وسرت في الردهة متجهًا للمصعد، نظرت لانعكاسي في المرآة وأنا أقف بالمصعد بينما هناك موسيقى كلاسيكية تنبعث من الخلفية، تذكرت وأنا أجلس أمام سوزان مارك في عربة القطار قبل أن أتجه إليها، "ربما حديثك معها هو ما دفعها للانتحار"، وصلت للطابق المعني وخرجت بهدوء ذاهبًا لغرفة ليلى هوث، عندما رأيت باب الغرفة، تصلبت واقفًا، أنا أعرف متى يكون هناك شيء خاطئ قد حدث، وهذا الباب الموارب يقول لي إن أشياء كثيرة خاطئة قد حدثت، دفعت الباب بيدي بحرص ودخلت الغرفة، الملاءات مرتبة فوق الفراش، النافذة مغلقة، يمكنني شم رائحة عطر ليلى هوث في الأجواء، لكن لا أثر لها، دخلت غرفة جانبية، لا ملابس، لا شيء، عدت للخلف ووقفت بمنتصف الجناح، ثم عدت أدراجي متجهًا للمصعد، تلك الموسيقى الكلاسيكية تزيد من توتري في تلك اللحظة، هل رحلت هوث؟ هل قام سانسوم بعد زيارتي له بقتلها هي والسيدة العجوز ورجال التحريات الأربعة؟.. خرجت من المصعد وأنا أتذكر حماقتي في استنتاج أن سوزان ستفجر نفسها، ولسبب ما تذكرت نفسي

وأنا أقوم بزيارتي الأخيرة لسانسوم، ذهبت لموظف الاستقبال وسألته: متى رحلت السيدة هوث؟

- من يا سيدي؟

سألني باحترافية وبطريقة تم تدريبه عليها كثيرًا، فقلت: ليلى وسفيتلانا هوث..

بدا من تعبير وجهه أنه لا يعرف عما أتحدث، طلب مني تهجئة الاسم وبحث في الحاسوب الآلي قبل أن يهز رأسه قائلًا: آسف لكننا لم نحظَ بنزلاء بهذا الاسم..

أعطيته رقم الجناح فعاود البحث قبل أن يقول: هذا الجناح لم يتم تأجيره منذ شهور، الحقيقة أنه باهظ الثمن جدًّا وليس من المعتاد أن يكون مؤجرًا أكثر من مرتين أو ثلاث في السنة بخلاف هذا هو شاغر تمامًا..

تأكدت من الرقم في ذاكرتي مرة أخرى قبل أن أقول له: أنا كنت في هذا الجناح بالفعل وقابلت النزلاء، ليلى وسفيتلانا هوث، هلا أعدت التحقق من فضلك؟

حاول الرجل مرة أخرى، واتصل بخدمة الغرف للتأكد، ثم أزاح شاشة الحاسب ليريني النتائج، كما يفعل الموظفون عندما يحاولون إقناعك بشيء ما، تنهدت وأخبرته بشأن الشاي والقهوة في الردهة المطلة على الحديقة جوار المطعم لعله يجد سجلًا ما بحساب الغرف، لا شيء..

هنا اتسعت عينا الموظف في ذعر وهو ينظر خلفي، في نفس اللحظة سمعت أصوات أشياء معدنية..

التفت للخلف لأجد سبعة رجال يقفون خلفي.. أربعة منهم يرتدون زي شرطة نيويورك، يحملون بنادق آلية ويصوبونها نحوي، الثلاثة الآخرون هم الفيدراليون الذي قابلتهم من قبل، وقد كان معهم شيء آخر..

ساحر الكتب

الفصل الثاني والأربعون

سبعة رجال.. سبعة أسلحة.. البنادق الآلية كانت من نوعية "فرانشي س.ب.ا.س عيار ١٢ "الإيطالية، ليست إصدارًا تقليديًا لشرطة نيويورك بالتأكيد، وإنما رجال المافيا في صقلية هم من يستخدمون تلك البنادق، تلك البنادق مناسبة لكل العصور وطلقة واحدة كفيلة بجعل رجل يطير لأميال ويفقد نصف جسده، واستخدام رجال الشرطة لتلك النوعية غير القانونية من البنادق يقول لي بوضوح إنهم فرقة خاصة داخل قسم الشرطة يتم إرسالهم لتولي بعض المهام القذرة، شعرت أني بصدد ابتياع بطاقة يانصيب، لم أكن أبدًا من النوع المتفائل وأربع طلقات من تلك البنادق كفيلة بتحويلي لأشلاء.. الفيدراليون كانوا يحملون مسدسات من طراز غلوك ١٧ التي لا تكشف عنها أجهزة الأشعة في المطارات، مسدسات آلية امتداد بشكل أو بآخر لمسدس البيريتا الإيطالي، عيار ٩ ملم، وهدف كل تلك الأسلحة هو أن أظل رابضًا مكاني دون أدنى حركة، قائد الفيدراليين كان يقف بالمنتصف، وهناك ثلاثة رجال على كل جانب منه، بينما يحمل سلاحًا لم أرَه من قبل سوى في التلفاز، كنت أتذكر هذا السلاح جيدًا من مشاهدتي له على قناة كابل بغرفة نزل بفلوريدا، تكساس، لم تكن قناة عسكرية، وإنما كانت "ناشيونال جيوجرافيك "والحلقة عن إفريقيا، كلا كلا ليس بخصوص الحروب والمجاعات والأوبئة، كانت حلقة تقريرية عن الحياة البرية، والغوريلات.. وتحديدًا عن غوريلا عملاقة وكيفية اصطيادها

بواسطة مسدس تخدير من نوع خاص جدًا، وهذا ما كان يحمله قائد الفيدراليين بين يديه، مسدس تخدير.. مذيع ناشيونال جيوجرافيك كان يبذل مجهودًا في تلك الحلقة للتأكيد للمشاهدين أن عملية الاصطياد تلك إنسانية وأن المسدس مصرح باستخدامه، وشرح تفاصيل هذا السلاح المخدر، وعلاقة الإبرة المجوفة داخل المسدس البلاستيكي بقوانين نيوتن للحركة وأشياء أخرى لا أتذكرها على وجه التحديد، لكن بدا لي أن الغوريلا لا تتفق مع المذيع، عندما أطلقت صيحة ألم وتكورت لتسقط أرضا بعد إصابتها بالمخدر، ثم دخلت الغوريلا في غيبوبة بعد عشرين ثانية واستيقظت في تمام الصحة والعافية بعد عشر ساعت، لكن تلك الغوريلا كانت ضعف حجمي.

شعرت بحافة ركن الاستقبال من خلفي، حسبت احتمالية القفز للخلف والاختباء خلف "الكاونتر" لكني لم أكن سريعًا بما فيه الكفاية لفعل شيء كهذا، التفت بطرف عيني ووجدت أنه قد تم إخلاء كل الموظفين، لا يوجد مكان للهرب، لا مفر.. ظللت واقفًا مكاني.. صوب قائد الفيدراليين المسدس المخدر صوب ساقي، وفي رد فعل تلقائي انقبضت عضلات ساقي في محاولة يائسة لصد المخدر، هذا هراء، لم تفلح الغوريلا في هذا وبالتالي لن أنجح أيضًا.

"لا تأت مرتديًا تلك الملابس".. تلك كانت عبارة إليزابيث سانسوم، شعرت بها تهزأ بي في تلك اللحظة، ولمحت المسعفين ورجال المطافئ في الركن.. حسنًا يا ريتشر، عندما

تفشل كل المحاولات عليك بمحاولة الحديث، قلت لهم بهدوء: لو كان لديكم أسئلة فأنا مستعد للحديث معكم، يمكننا حتى طلب بعض القهوة وتبادل حديث متحضر، ربما قهوة بلا كافيين لتهدئة كل تلك الأعصاب المتوترة، وبما أنه وقت متأخر وأنا متأكد أنكم لا تريدون السهر، أعني أننا سنجد قهوة بلا كافيين هنا بالتأكيد نحن في الفورسيزونز بعد كل شيء..

لم يرد قائد الفيدراليين، لقد أطلق عليّ الرصاصة المخدرة من سلاحه، من على بعد ثمانية أمتار، شعرت بضغط هائل بجسدي، كأني قد تلقيت طعنة من سكين ضخم في ساقي، أنا أعرف شعور الطعنة لأني قد جربته من قبل، وقفت مذهولًا بعدم تصديق بينما الضغط ينساب لجسدي كله وشعرت أني على وشك الانفجار، ثم انتابني غضب مفاجئ وأردت الانقضاض عليهم جميعًا، لو كنت في موضع الغوريلا - وأنا قريب من هذا - لكنت صحت بالباحثين وصيادي ناشيونال جيوجرافيك أن يتركوني لحالي ويعودوا لموطنهم اللعين.. أخفض قائد الفيدراليين سلاحه، وتزايدت نبضات قلبي بسرعة هائلة، وسرت قشعريرة مريعة في أطرافي، حركت رأسي بصعوبة ونظرت للحقنة المستقرة بساقي والدماء المنبثقة من حولها، قلبي يكاد يقتلع ضلوعي الآن، أردت إيقاف نبضات قلبي الهائلة تلك، شعرت أني سأموت، يا للحمقى هذا المخدر اللعين مصمم للحيوانات المفترسة وليس البشر، أردت إيقاف تلك النبضات القاتلة، استندت للخلف على حافة منصة الاستقبال وأنا أكاد أسقط، دوار

عنيف يكتنفني الآن، رأيت حافة ركن الاستقبال تنظر لي بصبر، سوف أسقط على أم رأسي مصدمًا بها، لأن هؤلاء الخرقى قد ضربوني بالمخدر، وهناك رخام معدني من خلفي، رؤيتي تزوغ بشدة، العالم كله يدور، أيها الأوغاد، تبًّا لك يا سانسوم، هنا سقطت، الساعة داخل عقلي، أم أنها البوصلة؟، لم تعد تعمل، ولذا عندما حاولت الابتعاد والسقوط بزاوية مائلة لتجنب حافة الرخام سقطت بشكل عمودي فوقها وارتطمت رأسي بحافة الرخام، بعد هذا أظلم كل شيء من حولي، وبدأت سلسلة من الأحلام المجنونة، التي تتضمن سوزان مارك، كنا في أفغانستان تارة ومرة أخرى نجري فوق قضبان السكة الحديد بينما القطار من خلفنا..

ثم غاب عني الوعي تمامًا بعدها..

الفصل الثالث والأربعون

لا أعلم متى استعدت الوعي بالضبط؛ لأن الساعة داخل عقلي لا تزال معطلة، فتحت عيني ببطء، يا للصداع الرهيب، كنت أرقد فوق مرتبة ما، مقيد اليدين والقدمين، قيود بلاستيكية حديثة، لا أزال محتفظًا بملابسي عدا الحذاء، لسبب ما تذكرت عبارة اعتاد أخي الراحل قولها: قبل أن تنتقد أحدًا عليك بارتداء حذائه "وضع نفسك مكانه "أولًا.. ولذا عندما تبدأ في انتقاده ستكون على بعد أميال منه ولن يستطيع اللحاق بك لأنه حافي القدمين، حركت أصابع قدمي، أنا بلا حذاء الآن، لم أمتلك يدين لأتفحصهم لكني شعرت بجيوبي فارغة، لقد أخذوا كل مقتنياتي.. هنالك تنميلة مريرة تسري بكل طرف في جسدي، لكم من الوقت غبت عن الوعي؟ حركت يدي بصعوبة وأنا أشعر أنها لم تعد تخصني، تلك يد شخص آخر الآن، تحسست لحيتي، محاولًا تخمين كم من الوقت مر من بداية نموها على ذقني، آه ثماني أو تسع ساعات، الغوريلا قد غابت عن الوعي لعشر ساعات.. نقطة لصالح ريتشر إذن، أو ربما يكونون قد استخدموا جرعة أقل في التخدير، أتمنى هذا على الأقل.. بدأت أتفحص محيطي لمعرفة أين أنا، رؤيتي لا تزال زائغة، لكني تبينت أني داخل زنزانة، بلا نافذة، هناك ضوء صناعي، الزنزانة تقبع داخل غرفة مغلقة، قفص حديدي مغلق وأنا بداخله، الغرفة نفسها كانت محكمة المخارج والمداخل، مغلقة بحرص وعناية، شعرت وكأني في قصة تمت كتابتها بالقرن التاسع عشر، في

الشمال حيث محاكم التفتيش الإسبانية، تلك الغرفة أشبه بتابوت كبير صالح للدفن حيًا، هناك دورة مياه وضيعة، لا شيء سواها والمرتبة، آه هناك صنبور كذلك، أدرت رأسي ببطء ونظرت لليسار فوجدت قفصين آخرين جواري لكنهم خاليان، ورغم آلام عنقي تمكنت من رفع رأسي لأعلى ولمحت كاميرا مراقبة، هنا تزايد الألم في ساقي، فنظرت إليها، لا يزال هناك نزيف من الجرح الغائر داخل ساقي، انفتح باب الغرفة ودخل رجل يرتدي قميصًا أبيض لم أرَه من قبل، وقف خلف القضبان المعدنية ونظر إليّ فقلت بصوت مبحوح: هل كانت تلك جرعة قاتلة؟

- كلا.

- هل مصرح لكم باستخدام جرعة قاتلة؟

- كلا.

- إذن اغرُب عن وجهي، فبغض النظر عن مدى الطلقات المخدرة التي ستطلقونها صوبي سوف أعاود الاستيقاظ في كل مرة، وفي إحدى تلك المرات سوف أخرج وألقنكم درسًا لن تنسوه أبدًا، وأنت شخصيًا سوف أجعلك تبتلع تلك الحقنة المخدرة..

- إنه مهدئ ليس أكثر، أحضرته معي لتخفيف ألم ساقك.

- ساقي بخير.

- أنت متأكد؟

- اغرُب عن وجهي.

خرج الرجل من الغرفة وأغلق الباب من خلفه، لاحظت أن الباب مصمم بشكل قوطي كأنه باب يخص غرفة المدير في مدرسة عتيقة.. تمددت فوق المرتبة من جديد ورميت رأسي للخلف، لم يكن هناك وسادة وآلمني عنقي مرة أخرى، هنا دخل اثنان من الفيدراليين الغرفة، القائد ومساعد له يحمل بندقية "فرانشي".. وقف الرجل ذو البندقية جواري وبيننا القضبان كحاجز، بينما وقف قائدهم أمام باب الزنزانة وضغط كودًا ما فانفتح الباب بشكل آلي.. تحرك الرجل ذو البندقية ودخل الزنزانة مع القائد الذي ابتسم عندما رآني أنظر لشيء معدني في يده، وألصق الرجل الآخر فوهة البندقية في عنقي كرد فعل لأي فكرة قد تواتيني بشأن الهجوم على القائد وسلب السلاح المعدني منه.. انحنى القائد واستخدم الأداة المعدنية في فك الأصفاد عن يدي وقدمي.. فوهة البندقية لا تزال ملتصقة بعنقي.. كانوا يتوقعون أن أقف بعد فعلهم لهذا، وعليه فقد ظللت مكاني، عليك دومًا أن تحبط حس الانتصار لدى خصمك وتأتي برد فعل غير متوقع.. لكنهم حاصلون فيما يبدو على نفس التدريب الذي حصلت عليه، لم يبدُ عليهم إحباط أو غضب من رد فعلي، لقد رحلوا في صمت وهدوء وقال القائد قبل أن يغلق باب الغرفة: هناك قهوة وشطائر في هذا الركن..

خرجت من الزنزانة بصعوبة ونظرت لمنضدة تنتظرني أن أصل إليها، كل مقتنياتي تقبع فوق تلك المنضدة، فرشاة

الأسنان، بطاقة عمل تيريسا لي، بطاقة عمل رجال التحريات الخاصة، حافظة المعلومات التي ابتعتها من راديو شاك.. جلست بإرهاق فوق مقعد مقابل لباب خشبي آخر مصمم بشكل فيكتوري عتيق.. صببت لنفسي الكثير من القهوة وجلست أشربها في صمت عندما دخل القائد الفيدرالي ونظر إلى رزمة الأموال المستقرة جواز سفري ثم أشاح بنظره عنها كأنما الأموال مسألة حساسة وسألني وهو يشير لجواز سفري: لماذا هو منتهي الصلاحية؟

- لأن لا أحد يستطيع إيقاف الزمن.

- لماذا لم تجدده؟

- لا حاجة لدي كي أجدده.

- متى كانت آخر مرة سافرت بها خارج الولايات؟

- كان بإمكاني الذهاب والحديث معك كما تعلم دون الحاجة لاستخدام سلاح مخدر كأني حيوان هارب..

- لقد حذرناك عدة مرات وأنت أثبت أنك غير متعاون.

- كان بإمكانك إصابتي بالشلل.

- لكن هذا لم يحدث، لا ضرر ولا ضغينة..

- لم أرَ هويتك بعد ولا أعرف اسمك.

لم يرد الرجل، ثم قال: لا اسم ولا هوية وانسَ مسألة المحامي وحقوقك الشخصية، إنه عالم جديد كما تعلم..

- حسنًا، حظ سعيد في هذا العالم الجديد الذي لا تكفون عن الحديث عنه..

ثم رفعت رأسي فجأة كأني قد تذكرت شيئًا ما بخصوص جواز سفري وأسندت القهوة جانبًا لآخذ جواز السفر وأتفحص شيئًا ما، لكني رجل مخدر ومترنح، انسكبت القهوة على سروال الرجل ففعل ما يفعله أي حد مكانه وقفز للخلف محاولًا تجنب السائل الساخن، في حين أخذت أنا جواز السفر وفتحته ثم أعدته لموضعه بعدما تأكدت من تاريخ الصلاحية، ونظرت للرجل قائلًا: معذرة.

سرواله مبلل تمامًا ورأيت الصراع الداخلي الذي يمر به، يكمل الاستجواب بسروال مبلل أم يأخذ استراحة ويذهب ليغيره، قراره كان إكمال الاستجواب بحالته الحالية.. أحضر منشفة وجفف المنضدة وبذل مجهودًا جبارًا كي لا يأتي برد فعل، هذا كان رد فعل في الآن ذاته.

- متى آخر مرة قمت فيها بالرحيل خارج الولايات؟

- لا أتذكر.

- مكان ميلادك؟

- لا أتذكر.

- الجميع يعرفون مكان ميلادهم.

- لقد كان هذا منذ وقت طويل.

- سنظل هنا طيلة اليوم لحين تجاوب.

- غرب ألمانيا.

- والدتك فرنسية؟

- كانت فرنسية.

- وما جنسيتها الآن؟

- متوفاة.

- آسف.

- ليس خطأك.

- هل أنت متأكد من كونك مواطنًا أمريكيًّا؟

- أي نوع من الأسئلة هذا؟

- سؤال مباشر.

- وزارة الدفاع أعطتني جواز سفر.

- وهل كانت بيانات استمارة طلب الحصول على الجواز حقيقية؟

- لقد وقعتها أليس كذلك؟

- بالتأكيد.

- إذن بياناتي حقيقية.

- أنت ولدت في دولة أجنبية، كيف حصلت على الجنسية الأمريكية؟

- لأني قد ولدت في قاعدة عسكرية أمريكية بغرب برلين

وأنت تحصل على الجنسية من أبيك، وأبي كان جندي مارينز أمريكي.

- هل بإمكانك إثبات كل هذا؟

- هل أنا مضطر لهذا؟

- الأمر مهم.. كونك مواطنًا أمريكيًا من عدمه سيكون له تأثير هائل فيما سيحدث لك..

- كلا، مقدار صبري الذي أوشك على النفاد هو الذي سيحدد ما سيحدث في الخطوة التالية..

دخل الرجل الآخر ذو البندقية، نظر إلينا، وتبادل نظرة مع القائد ثم خرج من الغرفة، استرقت النظر للخارج، لم يكن هناك أحد، لا محللين يجلسون أمام حواسب ولا أفراد شرطة ولا أحد سواهم.. سألني القائد: هل كانت والدتك جزائرية؟

- لقد أخبرتك أنها كانت فرنسية.

- بعض الجزائريين يحملون الصفة الفرنسية.

- كلا، الفرنسيون فرنسيون والجزائريون جزائريون.. هذا ليس بعلم رياضيات ولا فيزياء.

- بعض المهاجرين الجزائريين يحصلون على الجنسية الفرنسية.. والمغربيون كذلك..

- لم تكن تلك هي الحالة مع والدتي..

- هل كانت والدتك عربية؟

ابتسمت له وقلت وقد بدأت أستعيد عافيتي من المخدر اللعين: من اللطيف بالنسبة لك أن نتحدث عن والدتي، هذا أفضل من الحديث عن والدتك أنت أليس كذلك؟

- علامَ ترمي؟

- والدة سوزان مارك كانت بائعة هوى ومدمنة، ربما والدتك كانت زميلة لها..

- هل تحاول إثارة غضبي؟

- كلا، أنا لا أحاول فعل هذا، أنا أثير غضبك بالفعل، انظر لوجهك المحمر وسروالك المبلل، تدور حول نفسك بتلك الأسئلة الخرقاء، أنت وصمة عار لأي محقق يحاول إدارة استجواب فعّال..

- ما يحدث ليس بمزحة.

- لكنه في طريقه ليصبح مزحة سخيفة.

تناول الرجل حافظة المعلومات بعصبية ولوّحها في وجهي صائحًا: أنت أخفيت تلك عنا عندما فتشناك من قبل، سوزان مارك أعطتك إياها في القطار.

- حقًّا؟

- نعم.. لكنها خالية، وصغيرة للغاية.. أين الحافظة الأخرى؟

- حافظة أخرى؟

- الحقيقية.

- أنا ابتعت تلك الحافظة من راديو شاك..

- لماذا؟

- أعجبني شكلها.

- أنت تحب اللون القرمزي؟

- بالتأكيد، ربما أكثر مما تحبه أنت.

تزايد احمرار وجهه..

- أين أخفيت الحافظة الحقيقية؟

لم أرد.

رأيته يحسب خطوته التالية في الهجوم قبل أن يقول بصرامة: أنت تعمل لصالح ليلى هوث، هاتفك يحمل مكالمات عدة مع رقمها، ومعك بطاقة أعمال فريق التحريات الذي قامت بتوظيفه..

- هذا ليس بهاتفي.

- لقد وجدناه في جيبك.

- وليلى هوث لم تكن في الولايات طبقًا للفورسيزونز.

- هذا لأننا أخبرناهم أن يقولوا لك هذا.. أنت قابلتها هناك مرتين.. قبل أن تختفي هي قبل موعدك الثالث معها..

- من هي بالضبط؟

- كان عليك طرح هذا السؤال قبل الذهاب والعمل لديها..

- أنا لم أعم.. آه لا عليك.. أنت أغبى من أن تفهم..

رأيته يقاوم الرغبة في تسديد لكمة لأنفي وقال مجزًّا على أسنانه: أين ليلى هوث؟

- ألم تقوموا باختطافها بسلاح مخدر هي الأخرى؟

- أين هي؟

- تبًّا لك.

لم يرد الرجل.. قلت له مبتسمًا: أنت كنت تراقبها وفتشت غرفتها ولا تعرف أين هي؟ يا لك من رجل بارع في عملك، امرأة كتلك استطاعت خداعك والهروب من تحت أنفك..

بدا أنه محرج قليلًا من كلامي، لكني لم أرَ داعيًا حقًّا لهذا، لا يوجد شيء أسهل من الهروب من فندق كبير، أنت تفعل ذلك دون فعله حقًّا، ترسل حقائبك، توهم المراقبين أنك بصدد الرحيل وتذهب بعدها لغرفة أخرى حجزتها تحت اسم آخر في نفس الفندق، ولا بد أنها - على الأقل - قد حجزت لليونيد غرفة هناك..

- أين هي؟

- من؟

رأيت ملامحه ترتجف من الغضب وهو يجيب: أخطر شخص قابلته في حياتك.

- هي لم تبدُ لي بتلك الخطورة..

- هذا ما يجعلها شديدة الخطورة..

التقط بطاقة عمل ثيريسا لي وسألني: ما هو مقدار ما تعرفه المحققة؟

- لماذا هذا مهم؟

- أنا بحاجة لاستعادة حافظة المعلومات الحقيقية ومعرفة مكان هوث وأيضًا إدراك هوية كل من رأى ما الذي يوجد من معلومات في حافظة سوزان مثل المحققة..

- لا أحد يعرف أي شيء والجميع يكذب.

- أنت لن تحصل على نقاط مكسب بالمقاومة، هلّا أجبت أسئلتي..

- لا أشعر برغبة في الحديث..

- إنك بحاجة لأخذ الأمر بجدية.

قلت له ببطء: صدقني، أنا آخذه بكل جدية..

- أخبرنا من يعرف هذا؟

- أنا لست بقارئ أفكار.. لا أعرف مقدار ما يعرفه الآخرون..

انفتح الباب ودخل الرجل الآخر، منتظرًا إشارة من القائد الذي أومأ له برأسه، رفع الرجل المسدس وأطلق حقنة مخدرة أخرى، حاولت القفز مبتعدًا لكنها استقرت أعلى ذراعي، أطلقت سبة ثم غبت عن الوعي..

الفصل الرابع والأربعون

استيقظت مرة أخرى شاعرًا بالغضب أكثر من أي شيء آخر، كنت محتقنًا بشدة من حماقة تخديري أكثر من مرة، أخبرتني الساعة داخل عقلي - بعد أن عادت للعمل أخيرًا - أننا في السادسة صباحًا، إذن فقد غبت عن الوعي لمدة ثماني ساعات أخرى، هنا فهمت جيدًا وسيلة تعذيبهم المختارة، التخدير.. بدلًا من الصعق الكهرباء وقطع الأعضاء والغرق بكيس الماء، ما يفعلونه هو إطلاق هذا المسدس التارت اللعين مرة تلو الأخرى لحين ما أتحول لشخص يهذي مصابًا بالزهايمر أو أموت، أو أتحدث إليهم بجدية.. كنت جوعان بشدة، وظمآن.. ناهيك عن غاضب.. هنا استوعبت أني لم أكن وحدي، على يساري جلست تيريسا لي داخل قفص حديدي، وفي الزنزانة الثالثة جلس جايكوب مارك.. وكلاهما بلا حذاء..

كلاهما شرطة والآن هما سجينان مختطفان معي في تلك الزنزانة السرية... كانت تلك هي اللحظة التي انتابني فيها القلق.

***

كلاهما كانا ينظران بانتظار إفاقتي، تيريسا لي ترتدي قميصًا أبيض وسروالًا قماشيًا خفيفًا، لقد أخذوها من بيتها إذن، جايكوب مارك يرتدي زي الشرطة دون سلاحه، أخذوه منه، وقالت لي: تلك الغرفة ملغمة بأصوات التصنت.

- بالتأكيد، لكنهم يعلمون مكاننا بالفعل ولا أعتقد أنهم

يستحقون سماع حديثنا..

- ربما يجب أن نكون صامتين ولا نتحدث على الإطلاق..

- لا أعتقد أن الأعراف العسكرية ستمنعنا من مناقشة الجغرافيا..

لم ترد لي، جايكوب كان ممتقع الوجه، وبعدم ارتياح تجنبت تيريسا نظراتي.

- أنت تعتقدين أنني أتلاعب بك؟

أنت تعتقدين أني موجود هنا كنوع من الوشاة، يهوذا الذي يعمل لدى الفيدراليين...

- اصمت، لا أريد الحديث معك.

- أنا لست موجودًا لدفعك بالحديث عما تعرفيه مهمًّا.

- لا أريد معرفة سبب وجودك ولا أي شيء آخر عنك.

- بمَ تفكرين يا تيريسا؟

- هل تريد معرفة حقًّا بما كنت أفكر؟

- بلى.. حقًّا..

- لماذا من بين كل القطارات تواجدت أنت بقطار الثانية صباحًا بعربة رقم ستة؟

- قوانين الطبيعة، وعينا الجمعي به كلمة قطارات، طبيعة شخصية تبحث عن العزلة والهدوء الذي... والناتج عربة ستة الأقل ازدحامًا بالأنفاق، أردت بعض الهدوء والعزلة.

- لكن المشاكل تحاصرك أينما ذهبت كأنك رجل جاذب للمشاكل.

كدت أن أقول لها إن "المشاكل هي عملي "وهو اقتباس من ريموند تشانلر لكني فضلت عدم استفزاز أسير زميل في تلك اللحظة.

- أنا متنقل يا تيريسا، اتسكع من مكان لآخر دون هدف ولا خطة، أنا مستكشف.. أسافر وأرتحل كعابر سبيل لأرى الحياة المدنية التي لم أرها لمدة ثلاثة عشر عامًا كاملة وأنا في الجيش والقواعد العسكرية بالبلدان المختلفة..

- أنت لا تمتلك حقائق، أنا لم أرَ متشردًا من قبل مثلك، أين حتى حقيبة جمع الأموال أو مساعدة القطط.

- أنا لست بشحاذ، قلتها مندهشًا وأردفت موضحًا: أنا متنقل فحسب، جوالة.. أسافر بلا متاع ولا أحتاج شيئًا معي..

ثم سألتها بطريقة محايدة تشعرها أننا في المركب ذاته: هل غموا عينيك وأنت في طريقك إلى هنا..

- لم يغموا عيني، نحن في مستودع وبيت آمن للاستخبارات، هذا المستودع هو مركز رجال مطافئ مهجور، بالقرب من قرية جريينويش..

- ومن أين تعلمين هؤلاء الرجال؟

لم ترد عليّ مباشرة بل نظرت لكاميرا المراقبة، "لا تقلقي بشأنهم، هم يريدون معرفة من يعرف ماذا ولذا وضعونا

سويًا.. علينا أن نتحدث ونقنعهم أننا لا نرى أي شيء.. لم تعلق المحققة، كانت شجاعة وعنيدة، وتحاول إخفاء الأنثى الخائفة بعيدًا الآن، سألتني: أنت متأكد من هذا؟

- بالطبع.

- حسنًا.

- ما الذي تعرفينه مهمًّا؟

- لم أرَ هويتهم عندما أتوا للقائك، ولم أرَها الآن عندما أتوا من أجلي..

- ولكن؟

- أحيانًا عدم إظهار هوية هو أشبه بإظهارك لهوية..

- من هم إذن؟

- رجال في الحرس الوطني مرخصون للقتل يعملون لدى وزارة الدفاع والأمن القومي..

- آه كان عليّ توقع هذا، وزارة الدفاع هم دومًا الأغبى والأكثر رعونة وتهورًا..

رفت تيريسا عينيها بسرعة للكاميرا كأني قد أهنتها للتو..

- لا تقلقي، هم الفيدراليون يبدون كرجال جيش سابقين، وهم بدورهم يعرفون مدى غباء وزارة الدفاع، وملخص كلامك أن هؤلاء الرجال يعملون بشكل مباشر مع البيت الأبيض..

بمزيج من الإرهاق والقلق سألت لي: وما الذي يريدونه حقًّا؟ أو كلا لا تخبرني، لا أريد معرفة شيء.

- حسنًا.

- لكن الأمر كبير بما فيه الكفاية ليتضح أن هؤلاء الرجال يعملون مع البيت الأبيض؟

- نعم.

- تبًّا.

- متى أتوا إليك؟

- الثانية صباحًا، كنت نائمة.

- هل كان معهم رجال شرطة..

هزت تيريسا لي وهي تشعر بالخيانة..

- هل تعرفتِ على أيٍّ من رجال الشرطة؟

هزت رأسها، وقالت كأنها تبصق: فرق قوات داخل القوات، يعملون بسرية داخل قسم الشرطة مع قسم مكافحة الإرهاب، يكتبون قواعدهم الخاصة وكل هذا.. ولا يدفعون ضرائب، لديهم سيارات خاصة.. هل كنت تعلم ذلك؟

- كلا.

نظرت تيريسا لساعتها وصاحت: نحن قرابة السادسة.

التفت للزنزانة الأخرى وسألت جايك: ماذا عنك أنت؟

- أخذوني قبلها، قرابة العصر، أنا هنا منذ البداية أراقبكم وأنتم نيام..

- لا أخبار عن بيتر؟

- كلا.

- آسف بشأن هذا..

- أنت تشخر وأنت نائم يا ريتشر هل كنت تعرف هذا؟

- لقد أطلقوا عليّ مخدرًا خاصًا باصطياد الغوريلات داخل جسدي فأعذرني قليلًا..

- أنت تمزح.

أريته مكان الجرح في ساقي وكتفي..

صاح جايك: خدروك مرتين، هذا جنون، كان ممكنًا أن تموت في لحظتها أو تفقد عقلك..

- وهم أخذوك من مقر عملك؟

- نعم، تلقيت إشارة استدعاء باللاسلكي وخرجت من قسم الشرطة لأجدهم في انتظاري..

- لن يبحث عنك مخفر الشرطة، لقد تلقوا أوامر عليا بذلك، أنت موضع شبهات الآن..

ورددت تيريسا: مثلما يحدث عندما ينقضون رجال الشئون الداخلية..

- لماذا دوشيرتي ليس معنا؟

- هو لا يعلم مقدار ما أعرفه، الحقيقة أنه كان يتجنب القضية كالثعبان منذ البداية ألم تلاحظ هذا؟

- لكنه شريكك..

- اليوم هو شريكي وبعد أسبوع سوف ينسى اسمي تمامًا، أنت تعلم كيف تدور تلك الأشياء..

وأضاف جايك: هناك ثلاث زنازين فقط هنا، ربما دوشيرتي في مكان آخر..

سألتهم: هل تحدث أحد منهم معكم؟

هزوا رؤوسهم نفيًا.

- هل أنتم قلقون؟

هز كلاهما رأسه بالإيجاب.. ثم أضافت لي: وأنت؟

- لنقل إني أنام بضمير مستريح ولكن لا بد أن هذا أثر المخدرات.

أحضروا لنا طعامًا في السادسة والنصف صباحًا، وجبة حقيقية من البطاطا والبيض واللحم المقدد مع قهوة وقد التهمتها كالغوريلا..

في السابعة صباحًا أخذوا جايكوب مارك خارج قفصه من أجل التحقيق.. بلا قيود ولا أصفاد..

تبقى كل من ثيريسا لي وأنا متجاورين بالزنزانتين، كانت تبدو عليها أمارات الإعياء والاكتئاب، وغمغمت هي بشرود:

لقد فقدت العديد من الأصدقاء عند سقوط البرجين، رجال مطافئ ومسعفون وليس رجال شرطة فحسب، ثم ظهر العالم الجديد الشجاع الذي نحياه الآن، كل هذا الجنون الذي أعقب سقوط البرجين في سبتمبر..

لم أرد عليها، كنت أراجع كل شيء داخل عقلي، تيريسا لي تتحدث لي، وكذا فعل سانسوم وليلى هوث ورجال التحريات الخاصة والفيدراليون، الكل يتحدث إلي بدون توقف عدا سوزان مارك..

في السابعة والنصف أعادوا جايكوب مارك، الذي كان يعرج، وأخذوا تيريسا لي دون أصفاد ولا أغلال كذلك، نظر إليّ جايك وكور قبضته وفرد إصبعه في شكل مسدس وصوبه ناحية الجرح في ساقة، همست: مسدس تخدير؟ أومأ برأسه: "أين أحذيتنا؟ "هز رأسه بمعنى أنه لا يعرف، وأشار للباب وبدأ يعد على أصابعه وهو يصف في صمت، حارسًا خلف الباب، رجل معه الفرانشي، والقائد.. هززت رأسي لجايكوب، أفضل الطرق لقتال شيء ستكون إما من الخارج أو من الداخل، أنا افضّل من الخارج و...

انقطعت أفكاري عندما اكتشفت مرور نصف ساعة أخرى وهم يعيدون تيريسا لي ويأخذونني للاستجواب مرة أخرى..

الفصل الخامس والأربعون

أخذوني بلا قيود ولا أغلال، معتقدين أني خائف من مسدس التخدير، والحقيقة أنني لا أمانع النوم، وإنما أحبه مثل القهوة، لكني لا أعتقد أن تعرض جسدي لثلاثة طلقات تخديرية كفيلة بإسقاط حيوانات برية ضخمة هو أمر صحي.

قال الرجل في المنتصف كعادته: اجلس يا سيد ريتشر..

ذهبت لمقعد في غرفة جديدة أصغر حجمًا وجلست فوقه، أمامي يقف قائد الفيدراليين ورجل البندقية وشخص ثالث انضم إليهم، ثلاثتهم متأهبون ومتحفزون لكن هناك شعور من الطمأنينة على وجوههم بعد استخدامهم لمسدس التخدير مرتين اتجاهي، هذا جعلهم يشعرون بالتفوق وأني في حالة مزرية، لا يوجد خطر من هذا الحيوان المخدر الآن، كان بإمكاني رؤية القليل من الاسترخاء في عيونهم، والإرهاق كذلك.. اتجهت صوب المقعد في بطء يائس ولمحتهم يفكرون بشأن الاستجواب وماهية سؤالهم القادم، إرهاقهم جعلهم يتخلون عن بعض الأشياء المهمة، مثل كونك لا تترك أبدًا الأسير في زاوية بعيدة عنك، الحقيقة أنه فور تحركي صوب المقعد ذهبوا هم لمقاعدهم، لكني لم أصل للمقعد، لقد صحت كغوريلا غاضبة ورفعت المنضدة لتسقط فوق معدة الرجل الثالث الذي تأوّه وتقوس حول نفسه، في نفس الثانية رفعت ساقي ودفعت - لم أركل لأني كنت حافيًا - الرجل الثاني صوب الحائط قبل أن أقفز كثور هائج قد أفاق للتو من التخدير رافعًا ذراعي ومكور قبضتي في هيئة لكمة

وسقطت عليه لاكمًا إياه في نصف وجهه، هناك عدد من الثواني قد مرت بالفعل، وهذا كان كافيًا للقائد كي يستوعب ما قد حدث ويخرج مسدسه المخدر من غمده، أمسكت يدي يده وتلاقت عينانا قبل أن يتلقى لكمة أطاحت بأنفه ورجت رأسه ثم لويت يده ليسقط المسدس المخدر بين يدي، تراجع للخلف ورفع يديه مهدئًا لكني أطلقت الحقنة المخدرة لتستقر في ذراعه وشاهدته وهو يترنح قبل أن يسقط فاقدًا للوعي، كان الاثنان الآخران ينظران إليّ في دهشة فرفعت المسدس المخدر مبتسمًا وأسقطتهم فاقدَيِ الوعي بدورهما.. قاومت الدوار الذي انتابني ناظرًا إليهم بتشفٍّ، سيحصلون على واحد مماثل قريبًا، رفعت المسدس وخرجت من الغرفة، حقيقة إنه مسدس بلاستيكي فارغ من الحقن المخدرة، لكن الانطباعات الأولى مهمة، دعك من أني قد فتشتهم بالفعل ولم أجد معهم أسلحة أخرى، لا ذخيرة حية ولا شيئًا، فقط أغمدة فارغة، تلك هي قواعد الاستجواب، لا تدخل بمسدس مع المتهم في الغرفة، وجدت نفسي في الممر وهناك ثلاث غرف أمامي وخزانة ذات قفل إلكتروني، فتشت الغرف الثلاث، لم أجد شيئًا ولا أحدًا، حواسب آلية لا تعمل، مكاتب قديمة ومقاعد مهترئة، ذهبت للخزانة، حاولت فتحها لكن القفل بحاجة لكلمة سر لا أعرفها، أصابني هذا بالحنق، لأني كنت أعرف مسبقًا أن الأسلحة داخل الخزانة الإلكترونية، عدت أدراجي لآخر الممر ودخلت الغرفة حيث يجلس كلٌّ من ثيريسا لي وجايكوب مارك.. نظر كلاهما إليّ بدهشة لكوني بمفردي ومسدس التخدير في يدي، لا بد أنهم سمعوا الجلبة واعتقدوا

أني أتعرض لضرب مبرح أو شيء من هذا القبيل.. هتفت لي: ما الذي حدث؟

- لقد خلدوا للنوم.

- كيف؟

- لا بد أن حديثي معهم كان مملًا للغاية.

- تبًا، نحن الآن حقًا في مشكلة.

- ولم نكن في مشكلة قبل ذلك؟

- لم نرتكب شيئًا خاطئًا قبل مهاجمتهم.

- لا تكوني ساذجة يا ثيريسا..

لم ترد هي واتجهت أنا للزنزانة وبدأت أتفحص القفل والمقبض، على خلاف باقي المكان كانت الزنزانة حديثة الصنع ومحكمة، تحفة هندسية إلكترونية مصممة من أجل رفاهية السجناء، لجعلهم يقضون عمرهم كله في بؤرة واحدة، سألت ثيريسا: هل تريدين مني إخراجك؟

- لا تستطيع فعل ذلك.

- بافتراض أني أستطيع إخراجك، هل تريدين ذلك؟

- لماذا سأرغب في البقاء هنا؟

- لأن هروبك سيجعلك رسميًا مجرمة في نظرهم، لكن بقاءك هنا سيعزز من كونك بريئة.

لم ترد.

التفت لجايك ووجهت له نفس السؤال فقال: هل وجدت أحذيتنا؟

- كلا لكن بإمكانك استعارة حذائهم، نفس المقاس تقريبًا.

- وماذا عنك أنت؟

- سأجد متجر أحذية قريبًا لا تقلق بشأني.

- سوف تخرج من هنا حافي القدمين؟!

- لقد مررت بما هو أسوأ..

- كيف ستخرجنا من هنا؟

- حلول القرون الوسطى في الهرب لا تفشل أبدًا لكن عليكم اتخاذ القرار بسرعة لأننا لا نملك الكثير من الوقت.

- قبل أن يستيقظوا؟

- كلا، قبل أن تغلق متاجر الأحذية.

- حسنًا أنا أريد الخروج.

قالها جايك فالتفت لثيريسا التي غمغمت: لا أعلم، أنا لم أفعل شيئًا خاطئًا.

- هل تريدين البقاء هنا وإثبات ذلك؟

لم ترد.

تابعت: هل تعلمين ما الذي كانوا يخافونه في الجيش الأحمر الروسي؟ البقاء ومحاولة إثبات براءتهم لرؤسائهم..

هزت لي رأسها وتمتمت: مرارًا وتكرارًا.

- نعم.

- حسنًا، أنا أريد الخروج أيضًا.

نظرت إليهم وقلت: حان وقت الخروج إذن.

***

خرجت للغرفة حيث العملاء الفيدراليون النائمون، قائدهم كان راقدًا تمامًا ولوهلة اعتقدت أني قتلته، ربما جرعة مخصصة لشخص في مثل حجمي قادرة على قتل شخص أصغر في البنية، لكني تحسست نبضه ووجدت أنه لا يزال حيًّا، لا ضرر ولا ضغائن شخصية على حد قوله، قمت بتقييدهم من باب الاحتياط بأسلاك الحواسب المغلقة وربط أيديهم في المقاعد الحديدية المثبتة فوق الأرض، ثم خلعت جواربي ولففتها حول رأس أحدهم الذي كان ينزف من رأسه، أتمنى أن يُقَدِّر هذا عندما يستيقظ، ثم خرجت من الغرفة بعدما تأكدت من أن الفيدراليين قد أصبحوا خارج الصورة..

الفصل السادس والأربعون

استغرق مني الأمر دقائق من التجول لاكتشاف أني داخل مبنى مهجور، نقطة آمنة يستخدمها الفيدراليون في تحقيقاتهم غير القانونية، النسخة المصغرة من جوانتانامو، بحثت حتى وجدت مرآبًا مهجورًا وبوابة مغلقة، حاولت الخروج منها بلا جدوى، تلفت حولي حتى وجدت نافذة مواربة، هشمتها وقفزت منها لأسير بالخارج حافي القدمين.. سرت مسرعًا من زقاق طويل ينتهي بشارع الحي السادس، لم ينتبه أحد من المارة لقدمي، والأرض كانت ساخنة للغاية إثر أشعة الشمس، تحسست نقودي التي أخذتها مع مقتنياتي من فوق منضدة التحقيقات وأخذت سيارة أجرة لأقرب ميدان ثم دخلت متجر أدوات نجارة متذكرًا ما قاله المحقق دوشيرتي عن المطارق المعدنية، لم تكفِ النقود فدفعت باستخدام بطاقة الدفع الإلكترونية عالمًا أن تلك العملية ستظهر على حواسب الفيدراليين لكني لم آبه لهذا الأمر، أخذت المطرقة وخرجت من المتجر، أخذت سيارة أجرة أخرى عائدًا للحي السادس ثم سرت مسرعًا عبر الزقاق للمبنى المهجور، عندما رأيت طبيبًا يسير للمبنى، كان يرتدي معطفًا طبيًا وسروالًا قماشيًا ويحمل حقيبة إسعافات، نظرت للسماء فوجدت أن الشمس قد بدأت في الغروب، هذا موعد بدء نوبته إذن، يستلم الأسرى من الفيدراليين للتأكد من كونهم أحياء حتى موعد الاستجواب التالي، تسللت خلفه حتى دخل المبنى، وصرنا نحن الاثنان بالداخل، شعر بوجودي من

خلفه فالتفت مذعورًا رافعًا يديه في وضع دفاعي، انقضضت عليه محيطًا عنقه بذراعي، جثا فوق ركبتيه وهو يشهق وقد كف عن المقاومة، ضغط على عنقه بذراعي وهو يتشنج قبل أن أطلق سراحه ليرقد فوق الأرض وهو يسعل ثم رفع رأسه، كدت أن أهدده لكن بدا لي من تعبير وجهه أنه قد فهم الأمر جيدًا، أشرت إليه أن يقف وأمسكته من ياقة معطفه الطبي وسرنا سويًّا للغرفة حيث الفيدراليون الثلاثة، شهق عند رؤيتهم وشعرت بالأدرينالين يتدفق بجسده، أردت أن أريه مدى فداحة الأمر وأني أنا من يتولى زمام قيادة الأمور الآن، همست له بصوت مخيف: هل تعرف كلمة السر للزنازين الإلكترونية؟

- ك.. كلا.

- إذن كيف تعطي المساجين الحقن المسكنة للألم؟

- عبر القضبان.

- ماذا لو تعرض سجين لنوبة ما؟

- عندها أجري اتصالًا بالمسئولين.

- أين معداتك الطبية؟

- في خزانتي.

- أرني إياها.

ذهبنا للخزانة وفتحها الطبيب فسألته: هل تستطيع فتح خزانة الأسلحة؟

- كلا، لا أمتلك كلمة للولوج سوى للخزانة الطبية.

استقرت بخزانته عدد من الحقن الطبية والضمادات وحقن مخدرة..

هذا أمر منطقي بعد كل شيء، تخيلت اجتماع القادة في البنتاجون وهم يعدون هذا المكان السري، المسئول الطبي يصر إبان النقاش أن تقبع الحقن المخدرة بحوزة الطبيب وليس بحوزة العملاء الفيدراليين، وفي النهاية يستسلم القائد العسكري لهذا المطلب ويواصلون الاجتماع..

- ما هو مقدار المخدر الكلي داخل تلك الحقن؟

- مقدار كافٍ.

- لإسقاط غوريلا؟

- كلا، مقدار معدل للقدرة البشرية.

- ومن الذي حسب هذا المقدار؟

- المصنع.

- وكانوا يعلمون نية الاستخدام؟

- بالطبع.

- وأين اختبرتموها؟

- جوانتانامو.

غمغمت وأنا أنظر إليه: نحن دولة ديمقراطية رائعة أليس كذلك؟

لم يعلق!

- ماذا عن الآثار الجانبية؟

- لا توجد آثار جانبية.

- أنت تعلم لماذا أسال أليس كذلك؟

أومأ برأسه، كنت أعيد تعبئة المسدس بالحقن المخدرة ونحن نتحدث، لم أعرف طريقة محددة لفعل هذا ولم أتلقَّ تدريبًا لاستخدام تلك المسدسات لكني لجأت للمنطق والاستنتاج وتمكنت في النهاية من تعبئة المسدس بالمخدر بعد أربعين ثانية، نظرت للطبيب وسألته: هل تريد أن تستلقي أرضًا؟

لم يرد!

- كي تتجنب أذية رأسك عند سقوطك.

رقد الطبيب أرضًا.

- هل تحبها في الذراع أم الساق؟

- هي تعمل بشكل أسرع في المناطق العضلية.

- إذن انقلب على بطنك.

فعل ذلك وأطلقت الحقنة المخدرة صوب مؤخرته..

انتهيت من تقييده وذهبت لثيريسا وجايك.. وقالت ثريسا فور رؤية المطرقة: تلك زنزانة إلكترونية لن تنفتح عند تهشيمها.

- ومن قال إني أنتوي تهشيم الزنزانة؟ سأحفر في الأرض ولسوف تزحفون للخروج.

- هل ستتحمل الزنزانة الفراغ أسفلها؟

- تلك مقامرة عليكم أخذها، طرق القرون الوسطى في الهرب كما تعلمين، إبان تفشي وباء الكوليرا قاموا بحفر أنفاق في البنية التحتية للهروب بطرق مماثلة وكانوا يستخدمون مناجل حديدية وليس مطارق..

ابتسمت تيريسا لي رغمًا عنها معلقة: إذن سوف أزحف كالفئران عبر مواسير الصرف الصحي، أو أعلق هناك كفأر متسخ بانتظار الفيدراليين، في كلا الحالتين أنا في ورطة ممتلئة بالوحل..

- جرعة من التفاؤل لن تضر أحدًا..

ثم نظرت إليها فقالت: هيا بنا.

ومن على بعد غرفتين سمعت هاتفًا أرضيًا يرن، بدأت أحفر بالمطرقة، قلت لتيريسا: قفي فوق المرحاض، لنحاول أن نحافظ على توازن القضبان.

رفعت يدي وهويت بالمطرقة بينما الهاتف لا يزال يرن..

طاخ.. طاخ..

تعالى صوت رنين هاتف من غرفة أخرى.. رنين مختلف وأكثر عجالة..

تلاحقت أنفاسي وتزايد تصبب عرقي وأنا أحفر..

هويت بالمطرقة..

هاتف ثالث يرن..

حفرت بيدي مسرعًا، ثيريسا لي تنظر بقلق..

الهواتف كلها ترن..

جايك يسير حول نفسه بتوتر..

المطرقة تهوي..

يدي داخل الأسفلت المهشم..

الهواتف ترن..

عقلي يتخيل ما الذي سيحدث، قوات فرق خاصة في طريقها للمبنى الآن بأسلحة لا تحتوي على حقن مخدرة..

واصلت الحفر، لم تكن البقعة متسعة بما فيه الكفاية، وكذلك الوقت المتبقي، صحت في ثيريسا: هيا..

كانت امرأة ذكية وامتثلت لصيحتي في ثوانٍ، قفزت أرضًا وبدأت في الزحف، لا أعلم إن كانت الطريقة ستفلح أم لا، تلك هي المقامرة، واصلت محاولة توسيع الحفرة بيدي وهي تزحف ثم جذبتها، سقطت بين ذراعي وهي تلهث وملطخة بالغبار، لقد نجحت طريقة العصور الوسطى..

اندفعنا نحن الاثنان صوب زنزانة جايكوب مارك مكررين الأمر ذاته..

الهواتف ترن..

أربع أيد أسرع من اثنتين، أنا أهوي بالمطرقة وثيريسا منحنية تحفر بيديها، جايكوب ينظر إلينا بتأهب..

يقفز، يزحف، ثيريسا تسحبه وأنا أحفر..

نصف جسده خارج الزنزانة وهو يئن..

واصلت الحفر، أطلقت ثيريسا لي سبة وهي تسحبه، هيا يا رجل، رميت المطرقة وبدأت بسحبه بدوري..

أخرجناه، وتوقفت الهواتف كلها عن الضجيج..

الفصل السابع والأربعون

خرجنا عدوًا من المبنى بعدما أخذت ثيريسا لي حذاء أحد الفيدراليين وارتدى جايك ملابس الطبيب، الحذاء كان أكبر من قدم ثيريسا لكن ليس بفارق هائل، وبدا لي جايك مقنعًا للغاية في دور الطبيب الشباب، سرنا وسط زحام الحي السادس والجو الحار، انعطفنا يسارًا كقرار عشوائي دون هدف معين ودخلنا شارعًا آخر، لكنه كان قرارًا حكيمًا لأن بعد ثوانٍ من انعطافنا سمعنا صوت سرينة القوات الخاصة وهي مسرعة صوب زقاق حيثما المبنى، وأمامها سيارة خاصة بها رجال ذوي حلل سوداء، المباحث الفيدرالية، وكانوا سيروننا لو لم ننعطف يسارًا.. سارعنا الخطا خروجًا من الحي السادس، مررنا جوار مطعم لم يُعِرْنا أحد من رواده انتباهًا وقد عذرتهم؛ لأن رائحة الطعام كانت شهية للغاية، كنت أتضور جوعًا، تحسست جيبي حيث هاتف ليونيد الذي أوشكت بطاريته على النفاد، بطاقة الدفع الإلكتروني وفرشاة أسناني في جيبي الآخر، حافظة المعلومات الإلكترونية الفارغة مستقرة بجيبي الخلفي، ذهبنا لماكينة سحب نقدي، هناك طابور لعين لا يتحرك، تبادلنا النظرات ونحن نقف نستمع لسرينة الشرطة من على بُعد، تزايد التوتر على وجه جايك، وحاولت ثيريسا الاحتفاظ برباطة جأشها، حان دوري فقط لأجد أن الماكينة شديدة البطء وهناك حد أقصى للسحب اليومي، قمت بسحب ما تمكنت منه من نقود وفكرت أن بطء الماكينة هذا متعمد، البنوك تتعاون مع قوات الأمن وهناك

بلاغ عن هاربين يهددون الأمن القومي، لنبطئ كل ماكينات سحب النقود إذن ونرسل دوريات شرطة إليهم، أخذت النقود وابتسمت قبل أن أرحل لكاميرا المراقبة أعلى الماكينة.. ذهبنا بعدها وابتعت بطارية إضافية لهاتف ليونيد وشاحن ثم اتصلت بدوشرتي، لم يرد فتركت له رسالة بريد صوتي وأغلقت الهاتف؛ لأن ثيريسا تقول لي: باستطاعتهم تعقب الهواتف الخلوية عبر الشرائح.

لم أكن أعرف تلك المعلومة، وتحركنا بعدها مرة أخرى، وتزايد صوت سرينة دوريات الشرطة من حولنا، ابتعت حذاء مناسبًا لقدمي واستقللنا سيارة أجرة بعيدًا عن منطقة الخطر..

تبادلنا نظرات إعياء مفاداها أننا بحاجة لطعام، الكثير منه، جلسنا في مطعم نتناول البرجر والبطاطا المقلية مع الكثير من القهوة ثم قالت ثيريسا: هلا أخبرتنا بما يجري حقًّا؟

- كنت أعتقد أنك لا تريدين التورط!

- لقد عبرنا الخط الأحمر وأنت متورطة بالفعل..

- هؤلاء الرجال لم يرونا هوياتهم، والعملية كلها غير قانونية، لقد تم اختطافك وهربتِ من المجرمين، رسميًا على الأقل..

- أنا أعلم أنهم فيدراليون وقد سرقت حذاء أحدهم وهو مخدر، هذا تخطيط مسبق، أنا متورطة مثلك بالضبط.

نظرت لجايك لأرى إن كان يريد التورط أكثر هو الآخر، تنهد وهز كتفيه، بمعنى أنه غارق في الوحل.. فحكيت لهما كل ما

أعرفه، عن ما حدث في مارس عام ١٩٨٣ وجون سانسوم وجريجوري هوث، ووادي كورينجال، كل التفاصيل..

قالت لي بعدما انتهيت: والآن هناك قوات أمريكية في وادي كورينجال بدلًا من الروس.

- لقد كانوا أوكرانيين.

- هل هناك فارق؟

- الأوكران يعتقدون هذا ولا يحبون فكرة أن الروس قد وضعوهم في الجبهة..

وعلق جايك: أنا متفهم لمسألة اندلاع الحرب العالمية الثالثة في حالة قتل سانسوم لجريجوري لكن الأمر كله قد حدث في الثمانينيات، ولم يعد هناك شيء اسمه الاتحاد السوفيتي الآن، لماذا الأمر فجأة أصبح ذا أهمية؟

- لأن السياسة لها طرقها في ربط الماضي العسكري بالمستقبل، تلك فضيحة أخلاقية في تاريخ مرشح سياسي قبل موسم الانتخابات.. الأمر مهم وخطير.. هو خطير لأنه لا يزال سرًّا في حين لو عرف ألفا شخص بحقيقة ما حدث لأصبح الأمر كله عاديًا، لن يستطيعوا قتل وإخفاء ألفي شخص للتستر على أمر كهذا.. لكن ثلاثة أفراد مثلنا، من السهل إخفاؤهم.. ريتشر ليس متزوجًا، أنت بلا عائلة، وأنا كذلك، لن يهتم أحد عند اختفاء رجلين مثلكما ومحققة وحيدة مثلي..

- وماذا عن زملاء العمل؟

- الشرطة تتلقى الأوامر منهم.

- هذا جنون مطبق.

- إنها قوانين العالم الجديد.

- وماذا عن حقوقنا؟

- لا يوجد شيء كهذا.

صمت جايك وهو ممتقع الوجه، في حين أنهيت أنا قهوتي بصمت، وقلبت لي هاتف ليونيد في يديها وضغطت زر التشغيل، مرت دقيقة قبل أن تقول: هناك رسالة من دوشيرتي..

بدت أنها سعيدة أن دوشيرتي لم يتخلَّ عنها بعدُ، قرأت الرسالة بوجه متمعن، ظلت تقلب شاشة الهاتف بإصبعها لفترة وتخيلت رسالة متعددة الصفحات على شاشة هاتفها، رسالة طويلة تبقي الهاتف يعمل لفترة طويلة، تخيلتهم يتعقبون مكاننا بواسطة شريحة الهاتف، مرت الدقائق ببطء لتخبرنا مدى طول الرسالة وشارك تعبير وجه تيريسا ليرينا مدى سوء محتوى الرسالة، قالت تيريسا في النهاية: أنت محق بشأن الرجال الأربعة القتلى هم نفس رجال التحريات الخاصين بليلى هوث، لقد قتلوهم ومثّلوا بجثثهم.

لم أقل شيئًا..

أردفت تيريسا: وباقي الرسالة يحمل أخبارًا صادمة، ليلى هوث لم تدخل نيويورك أبدًا في السجلات الرسمية، اسمها

غير موجود بأي سجل بيانات حكومية، وسوزان مارك لم تُجْرِ أيَّ اتصالات للندن..

الفصل الثامن والأربعون

أطفأنا الهاتف وتحركنا بسرعة مبتعدين عن المكان، تلك هي قاعدة الهرب الأولى، سرنا لمحطة الأنفاق وأخذنا القطار المتجه للشرق، جلسنا نحن الثلاثة متجاورين بينما تساءل جايك: هل كلام ليلى هوث زائف أم كلام الحكومة؟ من الذي قتل الرجال الأربعة؟ ما هو السبب الحقيقي الذي دفع بأختي للانتحار.

أجابته ثيريسا: كل الاحتمالات متساوية.

أجبته أنا: ليلى هوث تكذب..

- وأنت تستطيع الجزم بهذا؟

- بلى.

- كيف؟

- ليونيد، لقد عرف أني رأيته، مرتديًا زي العمال البرتقالي الذي رأيت خمسة رجال يرتدونه بعدها في قطار كهذا، لقد كان يريد لي ملاحظته، ومهاجمته، لأنه أراد مني أخذ هاتفه، ومعرفة رقم الفورسيزونز، الحديث مع ليلى هوث كان فخًّا انقدنا إليه ونحن نعتقد أننا نفعل الأمر بمحض إرادتنا، خطتهم الاحتياطية كانت الذهاب لقسم الشرطة والتبليغ عن الأمر كحادثة اختفاء سوزان، في كل الأحوال كانوا سيظهرون في الصورة ويحكون حكايتهم، لأنهم يراهنون أن حكايتهم الملفقة تلك ستتيح لهم الوصول للمعلومات التي

كانت بحوزة سوزان، أنا لا أعلم من هم بالضبط ولا ماهية المعلومات بحوزة سوزان، لكني أعرف الآن أن ليلى هوث ليست بصحفية، لقد كنت مخطئًا بشأن هذا، هي بارعة في التمويه وتمثل عدة أدوار في الوقت ذاته.. لم أعد متأكدًا حتى من كون السيدة العجوز حقيقية.. ولا أمتلك أدنى فكرة عن مكانهم بعد اختفائهم من الفندق.. لكن ليلى هوث لديها مكان آمن يخصها بخلاف الفورسيزونز وهي لجأت إليه، كلا، لقد ذهبت إليه، امرأة كتلك لا تلجأ ولا تحتمي، لقد قال لي الفيدرالي إنها أخطر شخص سأقابله في حياتي، وقد بدا مقتنعًا بصدق ما يقوله، أمثال ليلى هوث لديهم دومًا مكان علانية ومكان خاص، هي ذهبت للمكان الخاص، ربما فيلا ما بمجمع سكني فاخر وآمن، لأنها ستحتاج عدة طوابق وقبو، امرأة كتلك لديها فريق كامل يعمل لديها.. وهم بحاجة لبيت واسع من أجل هذا الفريق، رجال التحريات أخبروني أن هذا الفريق سيكون شديد الوحشية، وتلك الوحشية أظهرت صدق رجال التحريات الخاصة القتلى، رجال ليلى هوث قتلوهم بالمطارق ومثلوا بالجثث ؛ لأن ليلى - مثل الحكومة - تحاول التخلص من كل الذيول المتبقية للأمر وقطعها تمامًا.. كل من تعامل مع هوث قد مات باستثنائنا، حقيقة اختطافنا من قبل الفيدراليين قد أجلت مسألة لقائنا بفريق ليلى هوث البربري..

توقف القطار في محطة شارع ٢٣، انفتحت الأبواب، لم يدخل أو يخرج أحد، تيريسا كانت تحدق بالأبواب، نظر إليها جايكوب وقال: لو أن "الأمن القومي "لا يستطيعون تعقب ليلى هوث، فهم لا يستطيعون نفي أنها هي الفتاة الجميلة

التي قابلت بيتر في الحانة.

- هذا أمر وارد جدًّا.

انغلقت أبواب العربة وتحرك القطار..

***

رفعت ثيريسا رأسها وقالت بشرود: ما حدث لرجال التحريات الأربعة هو خطؤنا، لقد أخبرنا ليلى بشأنهم وتسببنا في مقتلهم.

- شكرًا للفت انتباهي لتلك النقطة.

"ربما حديثك معها هو ما دفعها للانتحار".. تذكرت جملتها الأخرى التي قالتها لي أيضًا بمحطة أنفاق وتنهدت ناظرًا بطرف عيني لجايك.. ترجلنا من العربة في محطة شارع ٣٣ لأننا لم نرد الذهاب للمحطة المركزية، هناك العديد من الشرطة هناك، صعدنا الأدراج وسرنا بالشارع لحي ماديسون، كنت أشعر أني أفضل حالًا بعد مقدار النوم الذي حصلت عليه إثر المخدر والطعام والقهوة، على خلاف لي وجايك اللذين بديا بغاية الإرهاق، ثلاثتنا بلا أصدقاء أو عائلة أو مأوى نذهب إليه، مطاردون من الجميع، غمغمت لي: نحن بحاجة لخطة..

أعجبتني حالة المربع السكني الذي كنا نقف به، يقع بشارع جانبي بعيد عن الأنظار، مبانٍ متراصة متجاورة، وقفنا على الرصيف أمام عدد من الحانات يخرج منها الثمالى، ومن الشقق السكنية خرج البعض ليمشوا كلابهم، رجل معه

جرو صغير وفتاة معها كلب كبير، كنت أحب نوعية الكلاب الصغيرة تلك، هم يعتقدون أنهم ملوك العالم، تجولنا شرقًا وغربًا حتى وجدنا نزلًا مناسبًا بدا أن به عددًا من الغرف الشاغرة، وربما بقليل من النقود الإضافية نستطيع التسجيل دون أوراق رسمية، لمحت نظرة خبيثة على وجه الموظف وهو يسجل الغرف، ربما اعتقد أن هناك شيئًا ما سيدور بيني وبين تيريسا ؛ لأنها كانت تنظر إلي بطريقة غريبة، أعطانا غرفة كبيرة في الجزء الخلفي من النزل، من نوعية الغرف التي لن يقيم بها سياح أبدًا حتى لو كانوا اقتصاديين، شعرت بالراحة البادية على وجه لي وجايك لوجود غرفة تضمن لهم القليل من الراحة أخيرًا، غرفة من النوع التي ستحبها لو قضيت بها ليلة واحدة فحسب ولن تشعر بأي راحة في الليلة الثانية..

قالت لي بإرهاق: نحن بحاجة لمساعدة لن نستطيع الاستمرار هكذا، ننتقل من نزل لآخر.. تلك ليست بحياة.

- لقد كانت تلك هي حياتي لآخر عشرة أعوام.

- حسنًا أنا أتحدث عن الناس الطبيعية، علينا حل المعضلة.

تدخل جايك بتردد وقليل من الحماس: لكنك قدمت الحل بالفعل، المشكلة سوف تنحل تلقائيًا لو عرف ألفا شخص بالسر، لنخبر الجميع ونخرج من دائرة الخطر.

- تقصد نلجأ للصحافة.

- بالطبع.

- وهل سيصدقوننا؟

- علينا أن نكون مقنعين.

- ربما سياسة الصحف هي تفقد القصة مع الحكومة قبل النشر.

- وماذا عن حرية الصحافة؟

نظر كلانا لجايك في صمت ففهم ما نريد قوله.. أضفت أنا: سانسوم لديه الكثير ليخسره، نعم هو الحكومة، لكنه قد أرسل رجله لتعقب سوزان، علينا الاتصال به.

نظروا إلي غير مصدقين لما قلته فأردفت: لديه الكثير ليخسره.

ونظرت إلى تيريسا.

- أرسلي لدوشيرتي في الصباح رسالة مفاداها أنك تريدين رقم مكتب سانسوم، اتصلي بالأخير بعدها، أخبريه أنك شرطية وأنك تعرفين بشأن رجله على متن قطار الأنفاق، وأنك تعرفين أنه يكذب ويخبئ عددًا لا بأس به من الأسرار..

الفصل التاسع والأربعون

نظرت تيريسا إلي وقالت: أنا قلقة بشأن الأخبار التي يخفيها سانسوم.

- ما نعرفه أن سانسوم حاز على عدد كبير من النياشين، مما يدل أنه قد ارتكب العديد من المهام السرية.. كل المهام القذرة غير المصرح بها التي تحتاج الحكومة لفعلها وليس الجيش فحسب، تلك أحد الاستخدامات الرئيسية لقوات الدلتا، والمحرك الرئيسي لهم ليس سوى المخابرات المركزية، اغتيالات، ثورات وانقلابات في بلدان أخرى، عمليات تخريب داخلية..

- مثل موت المارشال تيتو في يوغسلافيا، هل سانسوم هو القاتل؟

- أعتقد أن تيتو أصابه المرض لكني أعتقد أيضًا أن سانسوم كان خطة احتياطية للتخلص منه فقط في حالة لو تحسنت صحته.

- وموت بريزنهيف في ١٩٨٢، وتلاه شيرينيكو..

- هل أنت باحثة تاريخية فيم يخص الاغتيالات؟

- أيًا كان، كل تلك الاغتيالات المفترضة ساهمت في حصول جورباتشوف على السلطة ليسقط بدوره الاتحاد السوفيتي، هل كنا نحن المتآمرين خلف كل هذا؟ هل تورط سانسوم في كل تلك الجرائم؟

- ربما، لا أعرف، لكن عندما تفكرين بالأمر فإن سرقة بندقية سوفيتية والتسبب بمقتل الجنود ليس بقرار عشوائي، تلك خطوة أولى من المخابرات في سلسلة طويلة من العمليات التخريبية ضد السوفيت، كل مهمة تحتاج لهدف ملموس قابل للتحقيق، خصوصًا لو أن من يضع الخطة المخابرات، وعندما تتعاون معهم قوات الدلتا، فنحن أمام تخطيط إستراتيجي واضح وفكرة التخبط بعشوائية وسط صحراء أفغانستان لمقابلة جنود سوفيت وسرقة سلاحهم لا تبدو منطقية كعملية عسكرية مستقلة، أعتقد أن تلك المهمة كانت جزءًا من أشياء أخرى فعلها سانسوم.

- لا أعلم الأمر يبدو كاستنتاج قائم على العديد من التكهنات.

- كلا لقد قضيت الأيام السابقة وأنا أستمع للعديد من الحكايات لكل الأطراف المتورطة في موت سوزان، الكثير من حكاياتهم لم تكن منطقية ورد فعل الفيدراليين على الأمر كله شديد الغرابة، كأن السماء على وشك إمطار حمم بركانية، أعتقد أن تخميني صحيح على الأقل فيما يخص أن سانسوم يخفي العديد من الأشياء، وعندما تحدثت مع الأخير في مكتبه بدا أنه يخفي طنًا هائلًا من القلق.

- ربما أنه قلق بصدد الانتخابات.

- سرقة بندقية من العدو في الحرب الباردة ليست بالفضيحة الكارثية التي قد يعتقدها البعض لمرشح سياسي.

- همممم!

- لقد كان يعرف اسم القناص الروسي، جريجوري هوث، وقد افترضت أنه احتفظ بميدالية اسم الجندي كتذكار، لكنه أنكر هذا، أخبرني أنها موجودة بدرج تقارير العمليات الصامتة، أو غير المصرح بها، أو العمليات السرية للغاية، أعتقد أنها كانت زلة لسان منه.. وعندما تحدثنا عن القناص ومساعده أخبرني سانسوم بزلة لسان أخرى وهي أنه لم يمتلك كاتمًا للصوت، الحقيقة هنا أنه من المستحيل لقوات الدلتا أن تذهب بمهمة عسكرية ليلية دون كواتم للصوت، مما يقودني لاستنتاج آخر، سرقة البندقية الفال كانت عارضًا جانبيًا، مصادفة ليس أكثر، سانسوم كان هناك لأداء مهمة أخرى عندما تعثر بالجنود الروس وسرق سلاحهم الحديث... كنت أعتقد أن الأمر متمحور حول البندقية فال، لكني الآن لا أعتقد هذا.. مهمة سانسوم في أفغانستان بمارس عام ١٩٨٣ لا تزال غير معلومة..

لم يعلق أي من جايكوب أو ثيريسا... أردفت: سانسوم شديد القلق الآن، وحالته تلك قد تساعدنا في استخلاص بعض المعلومات منه، منذ بدء الأمر وليلى هوث تبحث باستماتة عن المعلومات بحوزة سوزان، وكذلك الفيدراليون، لقد أخبرني الفيدرالي أنه يريد خزانة المعلومات الحقيقية، لأنه قد فتش التي معي، وعلى حسب قوله بخلاف كونها فهي صغيرة المساحة، مما يشير إلى أن هناك ملفات كبيرة تم تخزينها في حاسبة المعلومات الحقيقية التي كانت مع

سوزان.

- لكن سوزان لم تحمل خزانات معلومات معها، لم نجد شيئًا.

- هذا حقيقي ولكن الجميع افترض أنها امتلكت واحدة.

لمحت استياءً باديًا على وجه جايك قبل أن يقول فجأة: لماذا أدخلوا سوزان في خططهم الجهنمية تلك.

نظرت له ثيريسا بتعاطف رغم موقفها الحالي وقلت أنا: هذا ما نحاول معرفته، لذا يجب أن نتصل بسانسوم، لقد حاول مساعد سانسوم واسمه سبرينجفيلد أن يهددني، كلماته كانت بالضبط أني سأدخل طريقًا لا يوجد مجال للخروج منه، مثل صخرة تزيحها لتخرج الثعابين من أسفلها، الأمر لا يتعلق بشيء حدث منذ خمسة وعشرين عامًا، تلك الثعابين قد ماتت، الأمر له علاقه بثعابين حالية.. مستعدة تمامًا للهجوم.

فكرت ثيريسا بعناية وهي تجول بذهنها متخيلة مكالمتها مع سانسوم بعدما أخذت الرقم من سانسوم، تستعد للمكالمة وتحاول تحليل وفهم شخصية سانسوم، تمتمت لي: هو يرتكب العديد من زلات اللسان أليس كذلك؟

- لقد كان ضابطًا لسبعٍ بقوات الدلتا عشرة أعوام، لا يبقى هناك تلك المدة لو ارتكب عددًا غفيرًا من الأخطاء، ربما هو لم يقع بزلة لسان واحدة، ربما هو كان ينصب فخًّا..

هنا سألتني لي سؤالًا غريبًا: هل يثق سانسوم بسبرينجفيلد؟

- جدًّا بطريقة لم أرها من قبل..

- لماذا لا تتصل أنت به؟

- لأني سأكون مشغولًا بالبحث عن ليلى هوث.

- لن تستطيع إيجادها.

- لديها فريق، ربما هم من سيجدونني.. لديهم صورتي وكل شيء وأنا أبغي تسهيل الأمر عليهم والخروج للأماكن المكشوفة..

- سوف تستخدم نفسك كطُعم.

- أنا طُعم رائع صدقيني.

- وهل نسيت أن الشرطة والحكومة والفيدرالية والمخابرات يبحثون عنك؟

- ستكون ليلة حافلة إذن.

- حاول أن تظل حيًّا.

- دومًا.

- متى سترحل؟

- الآن.

الفصل الخمسون

آه إنها مدينة نيويورك في الواحدة بعد منتصف الليل، أفضل وأسوأ مدينة يتم مطاردتك بها، الشوارع دافئة، الزحام غير متكدس، بعضهم يسير في الشارع، آخرون يجلسون بمقاهٍ وحانات، بعض المتشردين ينامون فوق الأرصفة.

سرت بمحاذاة الرصيف وعقلي لا ينفك عن التفكير، الحقيقة أني لم أتلقَّ تدريبًا في فن الاختفاء، فقد كانوا يختارون الرجال الأصغر حجمًا من أجل هذا، تكفيهم نظرة واحدة لحجمي ليهزوا رءوسهم ويدركوا أني غير صالح للاختباء والتسلل، رجل مثلي سيتم رؤيته دومًا، هناك سيارة شرطة تمر بكسل من على بعد، واصلت السير، وأنا أحاول معرفة السر الذي يخفيه سانسوم، وما تسعى إليه ليلى هوث، لماذا كانت سوزان تضع يدها في حقيبتها؟ تذكرت ما قالته تيريسا بشأن المعلومات بحوزة الأولى، هل احتفظت سوزان بالمعلومات داخل عقلها؟ ثم قررت أن تفجره بعد ذلك؛ لأنها لم تتحمل بشاعة ما عرفته؟.. سرت بجوار متجر ملابس مغلق، وهذا قاد عقلي للتفكير بشأن سترة سوزان الشتوية، أحيانًا أشعر أن الحل أمامي بالفعل لكني لا أستطيع الوصول إليه، لمحت رجلًا يسير من على بُعد ولوهلة اعتقدت أنه يتبعني قبل أن أدرك أنه ثمل، يسير مترنحًا، ربما أنه يتظاهر بكونه ثملًا، أم أن جنون الارتياب قد أصابني أخيرًا، لكني أتوقع ظهور فريق وليس رجلًا واحدًا، تلاحقت الأفكار داخل عقلي، سبرينجفيلد، الراكب الخامس، رجال التحريات الأربعة،

الفيدراليين، جون وإليزابيث سانسوم، ليلى هوث.. أي أسرار تلك التي يخفونها جميعًا، هل بيتر لا يزال حيًّا؟ أم أنه قد لحق بوالدته، انعطفت يسارًا وأدركت أني قد سرت لمدة ساعة كاملة، جلست بأريحية فوق منصة انتظار حافلات، مر فأر أمامي واختفى داخل بالوعة صرف، أحيانًا أشعر أنهم - الفئران - يشمئزون منا ومما نفعله ببعضنا البعض، جلست لمدة ربع ساعة دون أن يظهر أحد ثم وقفت واتجهت لشارع ٢٢ بالقرب من برودواي، كان هذا عندما ظهروا أخيرًا..

الفصل الواحد والخمسون

الثالثة صباحًا..

برودواي..

رأيت الفتاة التي كانت تروّض كلبها، مررت جوارهم ولمحني الكلب فنبح بانزعاج، التفتت إليه مبتسمًا لأؤكد له أني لست مصدر خطر بأي شكل للفتاة، ثم لمحت سيارة سوداء بأضواء ساطعة قادمة من منعطف شارع ٢٣، فأبطأت من مسيرتي، وكذا فعلت السيارة لدرجة تشعرك أنها تسير على قدمين، دخلت الفتاة مع كلبها بناية سكنية ورأيت حارس أمن يجلس خلف مكتب الاستقبال، في حين توقفت السيارة السوداء، رأيت رجلين يجلسان بداخلها وأحدهم يتحدث عبر الهاتف طالبًا نوعًا ما من الدعم، لقد وجدناه، استندت على جدار خلفي ونظرت للسيارة منتظرًا، ظل راكبوها ينتظرون بدورهم، كنت أقف بالقرب من مدخل الأنفاق، خرج الرجلان من السيارة وهم يرتدون بزات سوداء، هنا واتتني فكرة أنهم فيدراليون وليسوا بفريق ليلى هوث، أزعجتني تلك الاحتمالية بشدة، اقترب الاثنان مني بنفس اللحظة التي بدأ ركاب قطار منتصف الليل في الخروج من المحطة.

- جاك ريتشر؟

قالها أحدهم فلم أرد.

- نحن من المباحث الفيدرالية.

نظرت لهم بصمت.

- ابقَ مكانك ولا تتحرك.

كنت أرتدي حذاء رياضيًا لكني لم أشعر برغبة في العَدْو.

- أبقِ يديك حيثما نستطيع رؤيتهما.

كانت يدي بجيبي تحسس بطاقة دخول محطة الأنفاق، لم أخرجها فقط كي أرى رد فعلهم، أنا أعلم أنهم تلقوا تدريبًا بخصوص سلامة العامة، وهناك ركاب يخرجون من حولنا في تلك اللحظة، هم سيشهرون أسلحتهم فقط للضرورة، أحيانًا يكون المرء مخطئًا، لقد شهروا أسلحتهم وكرر أحدهم: لا تتحرك.

راهنت نفسي أن مدخل المحطة ذو اتجاه واحد، لم يكن رهانًا ماديًا بل من نوعية الرهانات المتعلقة بالحياة نفسها، ابتسمت لهم وتراجعت خطوة للخلف، لوح أحدهم بالمسدس صائحًا: ولا حركة.

هنا سيظهر نفع الحذاء الرياضي، حافظت على ابتسامتي، وقفزت للخلف عبر البوابة، استقررت أمام الحاجز الإلكتروني ووضعت البطاقة، سمعت صياح بعض الركاب من حولي، انفتحت البوابة وأنا أسمع الفيدراليين يصيحون بالركاب وهم يحاولون الوصول، وعندما التفت إليهم كان الحاجز قد انغلق، لا يوجد موظفون الآن ليفتحوا لهم، والرهان الآخر الذي عقدته مع نفسي هو عدم امتلاكهم لبطاقات محطات أنفاق، نظر إلي الاثنان بغضب ومسدساتهما في أيديهما، والرهان

الثالث كان عن عدم رميهم لي بالرصاص في محطة الأنفاق، أحيانًا يكون المرء على صواب..

التفت وصعدت على متن القطار ولم ألتفت ملوحًا لهم قبل أن أختفي عن أنظارهم.

الفصل الثاني والخمسون

كنت أجلس داخل عربة القطار متجهًا لمحطة الشارع ٥٧ والحي السابع عندما تخيّلت سوزان مارك تجلس أمامي مرة أخرى، أغمضت عيني محاولًا رسم خارطة لنيويورك في ذهني.

إن اختيار ليلى هوث لفندق الفورسيزونز يقول لي إن بيتها الآمن في الأغلب في محيط نفس المنطقة، في مانهاتن على الأقل، وأنا شبه متأكد من كون بيتها الآمن عبارة عن فيلا من طابقين، والآن لنفكر.. هناك منطقة سكنية كاملة عبارة عن فيلات متعددة الطوابق في شرق مانهاتن.. ترجلت بالمحطة التالية وغيرت القطار تجنبًا للوصول وإيجاد عدد من الفيدراليين بانتظاري؛ لأنهم قد بلغوا البعض بوجهتي، خرجت من المحطة متجهًا بالحافلة لشرق مانهاتن.. وفي تلك اللحظة حاولت التظاهر عقليًا بأني أنا سوزان، ها هي تجلس داخل عربة أنفاق مرتدية الأسود، وسترة ثقيلة لتقيها من العدو، لا وعيها جعلها ترتدي زيًا قتاليًا، هي لم تكن ذاهبة للفورسيزونز بهذا الزي، لقد كانت ذاهبة لموقع ليلى هوث الآمن، عدت للخارطة داخل عقلي، شرق مانهاتن، فيلات متعددة الطوابق، كلهم يقعون بين منطقة ٤٢ وحي ٥٩، هناك مليونا احتمالية إذن لمكان تواجد ليلى هوث.. حقيقة إن احتمالية تواجدها بشرق مانهاتن أفضل حالًا من فكرة البحث في نيويورك كلها، لكني لم أرقص من الحماس بعد، عبرت ميدان ماديسون سيرًا على الأقدام ومررت من خلف الفورسيزونز، الشارع هادئ

وشبه خالٍ، وصلت لجنوب المتنزه ونظرت لشرق المنطقة ٥٨، هناك بعض الفيلات المتراصة، واصلت البحث، معتمدًا على تخمين تمكن صحته بنسبة واحد في المليون، مررت برقعة ساتون السكنية وليكس، بدت تلك المنقطة كمكان مثالي للاختباء.. سرت شرقًا وغربًا.. شمالًا وجنوبًا..

منطقة ٥٧..

منقطة ٥٦..

لينيجستون..

واصلت السير وبدأ الإرهاق واليأس في التمكن مني..

لم يظهر أحد، لم يتبعني أحد ولم يباغتني أحدهم بهجوم مفاجئ.. لمحت سيدة عجوزًا ترتدي ملابس رياضية وتنزه كلبها أمام عدد لا بأس من الحدائق الجذابة، عمرها يناهز الثمانين، كنا متقربين من بعضنا البعض بمسافة تكفي بتبادل الحديث، نظر لي كلبها بتعجب بينما قالت هي: مساء الخير.

الحقيقة أننا نقترب من شروق الشمس وتقنيًا نحن في الصباح الباكر، قلت لها: مرحبًا.

- هل تعلم أن تلك الكلمة هي اختراع حديث؟

- أي كلمة؟

- مرحبًا.. لقد اخترعوا تلك الكلمة مع الهاتف، لأن الناس كانوا بحاجة لكلمة يفتتحون بها حديثهم بعدما يرفعون السماعة.. الحقيقة أن كلمة "هالو "مشتقة من كلمة "هالوووي

"التي تعبر عن الدهشة أو الصدمة المؤقتة.. ربما الناس كانوا مندهشين من رنين الهاتف بعد اختراعه..

ابتسمت لها ورددت: هذا محتمل بشدة.

- هل تمتلك هاتفًا؟

- كلا لكني قد استخدمته من قبل وسمعت رنينه وكل شيء.

- هل تنزعج عندما يرن؟

- بالتأكيد، لا أحب فكرة أن يناديني أحدهم بالجرس كلما أرادني..

- أنت أول شخص يتفق مع وجهي نظري تلك بخصوص الهاتف، حسنًا الوداع الآن.. لقد سعدت بالحديث معك..

ابتسمت وأنا أراقبها راحلة، ربما كانت سوزان مارك ستبلغ عمرها وتنزه كلبًا كهذا لو لم تفجر رأسها أمامي، التفت واتجهت جنوبًا، وبعد ساعتين من البحث المتواصل رأيت ليونيد يخرج من سيارة ذهبية اللون !

الفصل الثالث والخمسون

ترجل ليونيد من السيارة الذهبية ووقف على بعد عشرين مترًا مني، سمعت صرير محرك سيارة أخرى تتوقف خلفي، نظرت للخلف ورأيت رجلًا آخر يترجل منها ويقف خلفي.. خطة إستراتيجية جيدة للمحاصرة.. ليونيد يرتدي ملابس سوداء تتيح له مرونة الحركة، يقف متأهبًا، ضخم البنية، عريض المنكبين، ولم يبدُ أنه قد نسي مسألة الضربة التي تلقاها مني سابقًا، الرجل الآخر كان داكن البشرة، أقصر قامة من ليونيد، كلاهما يحدقان بي، إما أن تقاتل أو تهرب، إنها المعادلة التقليدية المعتادة، لكن الحقيقة أن ليونيد والرجل سيكونون أسرع مني لو جريت، كل الناس أسرع مني نظرًا لحجمي، السيدة العجوز إياها أسرع مني.. كما أن احتمالية أن يلحقوا بك بعد العدو ليست جيدة، لذا بقيت مكاني في المنتصف بينهم.. اقترب كل منهما مني بمقدار خطورة، في نفس الآونة كأنهم قد تدربوا سويًا مرارًا وتكرارًا على مثل هذا الهجوم، ربما يعلمونني كيفية الاختفاء في الجيش لكنهم بالتأكيد علموني كيفية القتال بعدما رأوا حجمي، لقد أرسلوني لساحة التدريب، وبينما ليونيد والآخر يقتربان مني، مر بذهني شريط سريع من الذكريات.. كطفل ولد داخل قاعدة عسكرية فلقد تلقيت تدريبات مختلفة لأن هذا كان دومًا هدف القادة، دعهم ينهالون من الثقافات المختلفة، كلا لا تدعهم يتدربون على التاريخ والأدب والثقافة بل المهارات القتالية.. جودو.. كونغ فو.. ملاكمة.. رفع أثقال.. عدو..

تمارين ضغط وخلافه.. كلمات المدرب تمر في عقلي "السرعة واستخدام العقل كأنك في مباراة شطرنج"، "استخدم ثقل كتفك في اللكمة"، "اركل بكل قوتك".. يقترب ليونيد مني.. رأيته يرتدي قفازات حديدية في يديه، نظرت للآخر فوجدته يرتدي المثل.. تراجعت للخلف وألصقت ظهري بالجدار، هناك مساحة أمامي الآن تكفي لتولي زمام الأمور وهم يقتربون..

القاعدة الأولى عند قتال رجل يرتدي قفازات حديدية هي ألا تتعرض للكماته.. القاعدة الثانية هي ألا تتلقّى لكمة في وجهك.. وكملحوظة إضافية فإن تلك القفازات قادرة على تهشيم ضلوعك..

الحل الأمثل عند قتال رجل، أو رجلين في مثل حالتنا تلك، يرتدي قفازًا حديديًا، هو أن تخرج مسدسًا وترميه بالرصاص، دون الحاجة الفعلية لأي تشابك بالأيدي، لكني كنت أعزل، وأرتدي حذاءً أخرق لن يتيح لي فرصة الركل بشكل فعال، دعك من أفلام ستيفن سيغال، لن أستطيع مد ذراعي وكسر أيديهم دون احتكاك مباشر مع القفازات..

"استخدم عقلك كأنك في مباراة شطرنج".

ليلى هوث بحاجة للمعلومات، تعليماتها لهم أن يوسعوني ضربًا لكنهم بحاجة إليّ على قيد الحياة.. تلك هي الأخبار الجيدة، أما عن الجانب السيئ فحدّث ولا حرج، ضلوع وعظام مكسورة..

ظللت واقفًا.. أنتظر.. وهم يقتربون ببطء..

توقف ليونيد وقال: لا حاجة بك كي تتعرض للأذى، بإمكانك أن تأتي معنا بإرادتك وتتحدث مع ليلى.

- وأين هي؟

- لا تحلم بمعرفة المكان، سنضع عصابة عين على وجهك قبل أن نتحرك..

- لا أعتقد أني متحمس لارتداء عصابة عين، لكن لا توجد حاجة لك أيضًا كي تتعرض للأذى، بإمكانك الرحيل وإخبار ليلى أنك لم تجدني.

- هذا كذب.

- لا تكن عبدًا للحقيقة يا ليونيد، الحقيقة أمر مؤذٍ في أغلب الوقت..

هناك ميزة واحدة في مقاتلة رجلين، على أحدهما أن يعطي إشارة للآخر لبدء الهجوم، لو انتبهت للتفاصيل فلسوف يلتقط ذهنك تلك الإشارة..

- هل أنت غاضب بشأن ما حدث في محطة القطار يا ليونيد؟

هز رأسه وأجاب: لقد تركتك تضربني، تلك كانت الخطة طبقًا لما أرادته ليلى..

راقبت عينيه.

- أخبرني عنها.

- ما الذي تريد معرفته؟

- من هي بالضبط؟

- اذهب واسألها.

- أنا أسألك أنت.

- هي امرأة لديها هدف محدد..

- وما هو؟

- اذهب واسألها.

- أنا أسألك أنت.

لم يرد، لقد انتهت المحادثة، وشعرت بتأهبهم.. واصلت مراقبة عينيه، تتسعان.. تحدقان.. رفعت ساقي ودفعت بها صوب الجدار لأحصل على قوة دفع وأنا أندفع نحوهم ضامًّا يدي لصدري وفاردًا كوعي كطائرة، آلية الدفع من الجدار أعطتني سرعة زائدة، شققت الهواء بينهم وضربت كلًّا منهم في وجهه ثم قفزت للخلف محافظًا على توازني، وقمت بالرقص بقدمي للأمام والخلف كي أحيرهم بأي اتجاه سوف أستقر، انطلقت لكمة كالقنبلة في فك ليونيد وملت لأسفل متفاديًا لكمة من الآخر قبل أن أقبض على يده وألويها، سمعت صوت العظام وهي تتهشم، فتح فمه ليصرخ لكني باغته بسيف يد في حنجرته ولكمة أخرى أسقطت عددًا لا بأس به من أسنانه، انقض عليّ ليونيد من الخلف وأحاط عنقي بذراعه فرميت برأسي للخلف لأرج رأسه، ثم انزلقت

من بين يديه والتفت للخلف موجهًا لكمة لصدره وأخرى في وجهه قبل أن أستدير بسرعة وأركل الآخر في نصف وجهه فقط ليطير للخلف ويسقط بلا حراك، التفت مرة أخرى لليونيد الذي بصق دمًا ونظر لي في غل، دُرنا حول بعضنا البعض، ونحن نتبادل نظرات ثابتة، كل منا في وضع الاستعداد للجولة الثانية، ثم صرخ ليونيد وهجم محاولًا تسديد لكمة لمنتصف وجهي لكني انزلقت مرة أخرى بسرعة وركلته فيما بين ساقيه، ثم اعتدلت واقفًا لأضربه برأسي في وجهه مرة أخرى، زاغت عيناه وتلقى خطافية يسرى كادت أن تدق عنقه، ثم سقط أرضًا كبالون مثقوب بعدها..

انحنيت لاهثًا وقمت بتفتيشهم، أخذت هواتفهم المحمولة ولم أندهش عندما وجدت صورتي معهم، كلاهما فاقد الوعي وربما سوف يعانون من ارتجاج ما، ربما يفقدون الذاكرة، المسعفون لا يمزحون عندما يسألون المصاب بالارتجاج فور إفاقته عن التاريخ والتقويم.. أمسكت بهاتف ليونيد وبحثت عن الرقم المنشود ثم بعثت الرسالة التالية: "ليلى، اتصلي بي".

وضعت الهاتف بجيبي وأخذت مفاتيح ليونيد قبل أن أقفز داخل سيارته وأدير المحرك لأرحل بسرعة.

الفصل الرابع والخمسون

ركنت السيارة وتثاءبت، نظرت لعدد من الفئران القادمين من أنابيب الصرف لكي يتغذوا، وفي الرابعة صباحًا غفوت للنوم.. ثم استيقظت عندما اهتز الهاتف داخل جيبي، فتحت ونظرت للشاشة فوجدته رقمًا خاصًا غير مسجل، وضعت الهاتف على أذني وتنحنحت قبل أن أجيب..

- مرحبًا.

تذكرت جملة السيدة العجوز،"مرحبًا" كلمة جديدة تم اختراعها.

أتاني صوت ليلى هوث الناعم.

- أنت قررت إعلان الحرب إذن.

- من أنت بالضبط؟

- ستعرف عما قريب.

- أنا بحاجة للمعرفة الآن.

- أنا أسوأ كابوس ستمر به في حياتك.

- أنا أرتعد خوفًا.

- سخريتك تلك لن تفيدك كثيرًا، ولديك شيء يخصني.

- لم لا ترسلين المزيد من رجالك لاسترجاعه، سوف أستمتع بالتمرين الجسدي وأن ألقنهم درسًا لن ينسوه.

- لقد حالفك الحظ تلك المرة ليس أكثر.

- أنا دومًا محظوظ.

- أين أنت؟

- أقف أمام بيتك.

توقفت هي عن الحديث لثوانٍ قبل أن تقول: كاذب.

- لكنك قد برهنت للتو أنك في بيت، وتنظرين من نافذتك في تلك اللحظة، شكرًا لكل تلك المعلومات.

- أين أنت؟

- في ساحة المبنى الفيدرالي.

- تكذب مرة أخرى.

- من المؤسف انعدام الثقة الحالي بيننا.

- لم لا تخبرني بمكانك ولننتهِ من الأمر كله.

- أنا بالقرب منك، في المنطقة ٥٦، في الحي الثالث.

سمعتها تفتح فمها كي ترد ثم أسكتت نفسها، لكني خمنت ما كانت ستقوله من طريقة ردها، نبرة عجولة ونافذة للصبر، كادت أن تقول: هذا ليس بالقرب مني.

أنا الآن أعلم أنها ليست في المنطقة ٥٦ ولا الحي الثالث بشرق مانهاتن..

- سوف أعطيك فرصة أخيرة، أين أنت؟ فقط أعطني ما

أريد وسوف أتركك لحالك، يمكنني حتى توظيفك.

- أنا لا أبحث عن فرص عمل.

- هل تبحث عن فرص البقاء حيًّا؟

- أنا لست خائفًا منك يا ليلى.

- هذا ليس ما قاله بيتر مولينا.

- أين هو؟

- راقد أمامي في تلك اللحظة.

- حيًّا؟

- تعالَ واكتشف بنفسك.

- لقد ترك رسالة لمدربه الرياضي.

- ربما كانت تلك رسالة قبل موته، ربما أخبرني هو باسم مدربه وأنا أعذبه، هناك احتمالات عدة.

- أين هو يا ليلى؟

- لا أستطيع إخبارك بهذا لكني أتطوع بإرسال من يأخذك له..

لمحت سيارة شرطة تمر من على بعد..

- أنت فتاة الحانة إذن التي أخذت بيتر.

- نعم.

سألتها مجددًا وأنا أتذكر وجه سوزان مارك: هل هو حي؟

- تعالَ واكتشف بنفسك.

- وقتك أوشك على النفاد يا ليلى، أنت قتلت أربعة أمريكيين وتسببت بانتحار خامس.

- أنا لم أقتل أحدًا.

- رجالك هم من فعلوا هذا.

- لقد رحلوا عن القارة بالفعل، لا يوجد إثبات واحد ضدي.

- من أنتم بالضبط؟

- أنت تطرح الكثير من الأسئلة.

- رجالك قاموا بمهامهم بناء على أوامرك، هذا تواطؤ وتآمر في نظر القانون.

- لا يوجد اتهام دون أدلة.

- أنا لا أتبع القانون ولسوف أجدك.

- أتمنى أن تفعل هذا.

نظرت لسيارة الشرطة التي بدأت في التوقف.

- تعالي وقابليني يا ليلى، أو اختفِ تمامًا.. في الحالتين أنت خسرت بالفعل.

- نحن لا نخسر أبدًا.

كدت أن أسألها من أنتم مرة أخرى ثم عدلت عن هذا..

خرج شرطيان من سيارتهما..

بقيت مكاني، لن يكون الأمر لطيفًا لو تحركت مبتعدًا عنهما، هذا تعريف آخر في القاموس لكي تكون مثيرًا للشبهات، لم أكن الرجل الوحيد في المتنزه، بالرابعة صباحًا سوف تجد عددًا غفيرًا من المتشردين وفاقدي الأهلية، نظرت للسيارة التي أخذتها من ليونيد، هي قريبة بدرجة كافية تسمح لي بالقفز داخلها قبل وصول الشرطين الذين كانوا يصوبون كشافاتهم ويتفقدون فاقدي الأهلية النائمين في المتنزه، ولم يكن هذا بالأمر الجيد على الإطلاق، هم يقتربان، نقلت نظري بينهما وبين السيارة.. لم أكن الشخص الوحيد الذي شعر بأن وصول الشرطيين ليس بالأمر الجميل، فمن حولي تحرك بخلسة الكثير من المتشردين... في النهاية تسلل الملل للشرطيين اللذَين عادوا أدراجهم للسيارة ورحلوا مطفئين كشافاتهما، نظرت للهاتف في يدي، لا أعتقد أن ليلى هوث لديها قدرة على الولوج للقمر الصناعي وتعقب أثري بواسطة شريحة الهاتف، كنت أفكر فيما قالته هي.. "نحن لا نخسر أبدًا "... نحن دومًا كلمة لها دلالة قوية، ما هو الكيان أو المنظمة التي تمثلها ليلى هوث؟ لا يوجد لديّ أدنى فكرة، هل هي منظمة مثل القاعدة؟ تركت السيارة ورحلت واضعًا الهاتف داخل جيبي ومتجهًا لمحطة الأنفاق، لا أعلم أن هذا سيكون خطأ كبيرًا سأندم عليه بعد قليل..

الفصل الخامس والخمسون

كان مدخل محطة "منطقة الاتحاد "واسعًت وكبيرًا، إذ شعرت وكأني داخل النسخة الأخرى من الفورسيزونز، إلا أن تلك النسخة موجودة أسفل الأرض، الساعة العملاقة المعلقة فوق الجدار قالت لي إن الوقت الآن السادسة صباحًا، موظفو الصباح والعصافير المغردة قد بدأوا بالاصطفاف داخل المحطة بالفعل، اتجهت لمنصة الجرائد، كانت حافلة بالجرائد الورقية والصباحي، ارتكزت عيني على عنوان متصدر كل الصحف تقريبًا وهو "المباحث الفيدرالية تطارد ثلاثة هاربين".. التفت خلفي لأجد رجلين شرطيّين ينظران إليّ بتمعن، لقد أبلغهم الفيدراليون أني هربت بواسطة قطار الأنفاق وهكذا سرت للفخ بحماسة، مررت جوار رجل يجلس أرضًا ويعزف الفيولين، كان بارعًا للغاية ويعزف بشغف وهو مغمض العينين، تظاهرت بالاستماع إليه شاعرًا برجلي الشرطة يقتربان مني، بدأت السير مجددًا للساحة حيث الحواجز الإلكترونية والطوابير التي تهم بالعبور للجهة الأخرى استعدادًا لركوب القطارات المتجهة لوجهاتهم، نظرت للخلف فرأيتهم - الشرطيين - يدفعان طريقهما وسط الزحام متجهين إلي، ثم رأيت أربعة شرطيين آخرين يظهرون من خلفهم بعدما تلقوا النداء عبر اللاسلكي.. تلفت حولي لأجد اثنين آخرين يظهران من كل جانب، العدد الكلي ثمانية رجال شرطة في كل صوب من حولي والناتج أني محاصر تمامًا..

الفصل السادس والخمسون

كنت محاصرًا كفأر في المصيدة، سرت ببطء عابرًا الحاجز الإلكتروني ببطاقة ركوب مترو الأنفاق التي أحملها بيدي، بينما رجال الشرطة الثمانية يحدقون بي ويتبعونني ببطء كمجموعة من الأسود التي تحيط بفريستهم بشكل بدائري، سرت بتؤدة واقفًا على حافة الرصيف بانتظار القطار، وعلى الجهة الأخرى من الرصيف لم أرَ رجل شرطة واحدًا، هذا لأنه قد تم استدعاؤهم جميعًا من حولي الآن، أيديهم على أغمدة أسلحتهم، ينظرون إليّ بصرامة، تعليماتهم واضحة، مجرم خطير هارب ذو مهارات عسكرية، يجب توخي الحرص واستخدام القوة المطلقة معه، بدءوا يتحركون ناحيتي، ولم يأتِ أي قطار، لا بد أنهم أصدروا تعليماتهم بتعطيل القطارات لحين القبض علي، تذكرت سوزان مارك، وجهها المرتعب، وأيًا كان الذي حدث لابنها بيتر، ومرت عبارة ثيريسا لي بذهني "لعل حديثك معها هو الذي دفعها نحو الهاوية".. نظرت بعيني للقضبان الكهربائية التي تنتظر مرور عجلات عربات القطار من فوقها، لم تبالِ تلك القضبان بشيء، لا بموت سوزان مارك ولا بما يحدث الآن، هناك فأر يعبث في الركن، نظرت إليه، ثم للقضبان، ولرجال الشرطة، وجوههم جادة ولا تمزح، على الأقل هذا الفأر ليس داخل مصيدة مثلي، ركزت بصري صوب القضبان، فالبشر يخافون القضبان الكهربائية بشدة، ليس فقط بسبب القطار الذي سيهم بتمزيق أجسادهم لو مروا من فوقها، كلا، ولكن بسبب الصواعق التي ستمر

بأجسادهم لو خطوا فوقها، بإمكاني القفز من الرصيف بهذا الحذاء المطاطي العجيب الذي أرتديه وتفادي حواف القضبان الكهربائية، بإمكاني الوصول للجهة الأخرى من الرصيف حيث لا يوجد رجال شرطة والهرب عدوًا حتى أخرج من محطة الأنفاق حيث الشارع والعراء والشمس الساطعة، بدا لي كل هذا كحلم بعيد منال لا أمتلك سوى ثوانٍ معدودة لتحقيقه؛ لأن اقترابهم يتزايد بسرعة مخيفة الآن، لكنهم سيقفزون خلفي ويتحاشون القضبان بدورهم، وسيطلقون الرصاص، لا في ساقي بل في ظهري؛ لأن الأدرينالين المصاحب لسحب مسدسك من غمده لن يجعلك تحكم التصويب.

هنا سمعت صوت القطار القادم، بينما فر الفأر مبتعدًا، نظرت للضوء القادم من النفق، القطار يقترب، وكذلك رجال الشرطة، تلك هي فرصتي الوحيدة، قفزت وسط شهقات المارة، واستقرت قدمي بين القضبان الكهربائية، صيحات الشرطة من حولي، نظرت يمينًا، القطار يقترب بسرعة مهولة ووجه السائق مندهش وقد فغر فاه مذهولًا ثواني معدودة، الرصيف الآخر ينظر لي منتظرًا، عدوت كالأرنب وأنا أقفز متفاديًا القضبان، الهواء يرتج من حولي مع قوة القطار القادم، قفزة أخرى، القطار يقترب، لا بد أنهم يصوبون أسلحتهم لظهري الآن وأحدهم بصدد إطلاق الرصاص بعدما تغلبوا على دهشتهم.

بدأت في التسلق بسرعة.

انزلقت ساقاي وكادت أن تلامس أحد القضبان.

القطار يطلق نفيرًا مهولاً.

وجه سوزان مارك.

قفزت واستقر جسدي على الرصيف المقابل.

مر القطار جواري بسرعة غاضبة، اعتدلت واقفًا دون النظر للخلف وجريت بأقصى سرعة، قفزت فوق الحاجز الإلكتروني وصعدت السلم عدوًا، خرجت من المحطة وارتطمت أشعة الشمس بوجهي..

أحيانًا يمكنك تحقيق أحلامك..

الفصل السابع والخمسون

قضيت الساعات التالية حتى العاشرة صباحًا في التجول والتبضع دون شراء شيء وكافأت نفسي بالطعام والقهوة، لا أحد سيتوقع أن الرجل الهارب سيقضي وقته داخل المقاهي والمطاعم والمتاجر، وإنما يتوقعون هروبه واختفاءه في أزقة وخلافه، وفي العاشرة وصلت لميدان ماديسون حيثما اتفقت مع تيريسا وجايك على لقائهم هناك..

كان كلاهما يجلس جنبًا لجنب بالميدان جوار منطقة هرولة وتنزيه كلاب، هناك قليل من التوتر يجتاحهم إثر حتمية الوضع الحالي، لكن في النهاية هما اثنان من المواطنين يجلسان وسط المئات في ميدان عام، ربما هذا يقلل من احتمالية الخطر نوعًا ما، الأشجار والحدائق تحيط بنا، الصيادون تجذبهم الأهداف المتحركة، وليس رجلًا وامرأة يجلسان داخل متنزه جوار مهرولين وكلاب أليفة تقوم بمسيرتها اليومية، على الأقل هذا ما آمله، جلست جوارهم فأرتني تيريسا خبرًا بجريدة كانت تحملها بين يديها وقالت: انظر..

عنوان الخبر هو: المطاردة.

وأردفت تيريسا: يقولون إننا قد أطلقنا النار على ثلاثة رجال من المباحث الفيدرالية.

- أربعة، لا تنسي الطبيب.

- لكنهم لا ينقلون الأمر بدقة كأننا قد استخدمنا أسلحة

حقيقية وليس مخدرة، يجعلون الأمر يبدو وكأننا قد قتلناهم.

- هم يريدون بيع الجرائد ليس أكثر.

- نحن حقًّا في مأزق.

- أنا أعلم هذا مسبقًا ولست بحاجة للجرائد كي تخبرني بهذا.

تنهدت تيريسا ونظرت من حولها ثم رفعت رأسها للسماء، بينما يجلس جايك جوارها واجم الوجه ومستغرقًا بالتفكير.

أردفت تيريسا: دوشيرتي أرسل لي العديد من الرسائل النصية، لقد كتبتهم على تلك الأوراق لأني أردت إطفاء الهاتف تجنبًا للتعقب، لقد ظل يبعث لي برسائل طيلة الليل، مفاداها أن أربعة رجال قد غادروا الولايات من مطار كينيدي بعد مقتل رجال التحريات، ودائرة الشرطة بالقسم ١٧ تضعهم في خانة المشتبه بهم.

- وهم محقون، ليلى هوث أخبرتني أن رجالها الذين قاموا بالقتل قد سافروا خارج البلاد بالفعل.

- هل قابلتها؟

- كلا لقد اتصلت بالهاتف الذي أخذته من ليونيد مرة أخرى بعدما وجدني هو ورفيق له ولم تسرِ الأمور وفقًا لمخططاتهم.

- واعترفت لك بقتل رجال التحريات الأربعة؟

- بشكل أو بآخر نعم.

- وأين هي؟

- لا أعلم على وجه التحديد لكني أعتقد أنها بمكان ما بالحي الخامس، ربما جنوب منطقة ٥٩، لأن تلك أقرب منطقة من الفورسيزونز، وتخميني أن بيتها سيكون على مقربة من الفندق لتسهيل أمر فرارها..

قالت تيريسا مفكرة: لقد جال رجال القسم ١٧ سيارة محترقة، واستنتاجهم أن الرجال الذين سافروا من مطار كينيدي قد استخدموا تلك السيارة للخروج من مانهاتن.

- نعم وقد أخبرتني ليلى كذلك أنهم قد دمروا السيارة.

- هناك نقطة أخرى، الرجال الأربعة لم يسافروا لروسيا أو أوكرانيا، لقد ذهبوا لطاجيكستان.

- ها؟

- ألا تعلم أين تقع؟

- كلا.

- طاجيكستان تقع جوار أفغانستان، وهما ملاصقتان لحدود باكستان.

- ولماذا لم يسافروا مباشرة لباكستان؟

- لقد تساءلت بشأن نفس الشيء، لا بد أنهم من أفغانستان أو طاجيكستان نفسها.. ربما أنهم لم يريدوا الذهاب لأفغانستان مباشرة لتجنب النقاط الأمنية والتفتيش، ربما سيعبرون الحدود من طاجيكستان لأفغانستان بواسطة

شاحنة أو سيارة نقل.. ووفقًا للأمن القومي فهؤلاء الرجال الأربعة قد وصلوا للولايات منذ ثلاثة أشهر.. ومعهم سيدتان، واحدة في الستين والأخرى في السادسة والعشرين من العمر.. مروا بواسطة قسم الهجرة والأمن القومي يؤكدون أن جوازات سفرهم سليمة..

- إذن فكل ما أخبرتنا به ليلى هوث لم يكن سوى كذبة كبيرة جميلة.

صمتنا لبرهة من الوقت نستوعب حقيقة أن ليلى ليست بأوكرانية الأصل ولا روسية.. لم يكن هناك وادٍ ولا فال ولا شيء، شعرت أن أحدهم يفتح أدراج عقلي ويخرج المعلومات ليمسحها واحدة تلو الأخرى، لكن أحدهم أوقفه من فتح الأدراج وقال: بعض المعلومات حقيقية بشأن الفال وجريجوري هوث وفقًا لسانسوم.

تنهدت في حيرة وعاودت النظر لثيريسا..

- لقد بدا لي أن جوازات سفرهم التي رأيناها بالفندق كانت أوكرانية.

- تلك جوازات مزيفة أو على الأقل لم تكن هي الجوازات التي استخدموها في المطار.

تذكرت عيني ليلى الزرقاوين، لقد بدت أوكرانية أو روسية ولم تبدُ أنها من أفغانستان.

- هل يمكن لمواطن أفغاني الحصول على جواز سفر من تركمانستان؟

كنت أعلم أن ثيريسا لديها خبرة بتلك المعلومات بحكم كونها شرطية بدائرة نيويورك، ربما هي تمتلك معلومات أكثر من المخابرات المركزية بشأن هذا الأمر ؛ لأنهم يتلقون تدريبًا شاملًا عن أفغانستان وباكستان والدول المجاورة من الفيدراليين للتعامل مع الأعداد الغفيرة للمهاجرين القادمين من هناك..

أجابتني: كل شيء محتمل، قانونيًا نعم لو تقدم المواطن الأفغاني بطلب هذا.

قلت ببطء: هل تعلمون أن بعض الأفغان لديهم عيون زرقاء وبشرة بيضاء.. إنهم قلة في التعداد السكني هناك لكنهم متواجدون.

- أنت تعتقد أن ليلى هوث من أفغانستان؟

- لقد كانت تمتلك معلومات وافرة بشأن الحرب هناك مع السوفيت.

- ربما هي أجرت بحثًا ما وقرأت بعض الكتب.

- كلا، لقد وصفت المشاعر والأجواء بشكل واقعي وحقيقي للغاية كما أنها كانت تعرف معلومات غير مصرح بها مثل البندقية الفال.

تبادلت ثيريسا نظرة ثاقبة قبل أن تسألني: ما هو استنتاجك بالضبط؟

- هناك احتمالية جديدة الآن وهي أن ليلى هوث من قبائل

المجاهدين في أفغانستان، وأن سفيتلانا هوث كانت تحارب هناك بالفعل لصالح المقاومة وليس الجيش الأحمر، تذكري الأقاويل عن بسالة وقوة نساء المقاومة الأفغانية.

- في تلك الحالة فإن سفيتلانا حكت الأمر بالعكس، هي لم تكن ضحية لتعذيب زوجها وأخيها، هي كانت المرتكب لتلك الأفعال.

عدنا للصمت لعشرين ثانية مرة أخرى لنستوعب تلك الاحتمالات..

في الآن نفسه كنت أقلب نظري بالميدان حولنا، كن حذرًا.. انظر ولا تتمعن بالنظر، استمع ولا تصغِ، كلما اندمجت في التفاصيل كلما قل احتمالية نجاتك، لكن لم يكن هناك أحد يراقبنا في تلك اللحظة، لم يظهر أحد فجأة لمهاجمتنا.. رأيت جايك يتقلب بموضعه، وهناك تعبير جديد على وجهه بسبب فكرة اجتاحت عقله فجأة، كنت أعلم جيدًا ماهية تلك الفكرة وكون السؤال الذي سيطرحه، قال لي بصوت مبحوح: هل ذكرت لك ليلى هوث أي شيء عن بيتر؟

- نعم، هي الفتاة التي قابلته بالحانة.

صمت جايك ثم أردف بوجه ممتقع: أين هو الآن؟

- هو هنا في نيويورك وفقًا لها.

- هل هو.. بخير؟

- لقد رفضت إخباري بتلك المعلومة.

- هل تعتقد أنه بخير؟

لم أرد.. هتف جايك: تحدث معي يا ريتشر.

تنهدت ونظرت له ثم قلت: كلا..

كرر جايك بغباء وبنوع من الإنكار: كلا أنت لن تتحدث معي.

- كلا أنا لا أعتقد أنه بخير.

- لكن.. ربما يكون بخير أليس كذلك؟

- نعم يا جايك، من الممكن أن أكون مخطئًا.

- ما الذي أخبرتك به هي بالضبط؟

- عندما أخبرتها أني لست بخائف منها كان ردها أن هذا ما قاله بيتر مولينا.. وعندما سألتها عما حدث له وهل هو على ما يرام أم لا أخبرتني أن آتي وأكتشف الإجابة بنفسي..

- إذن فهناك احتمال أنه بخير.

- محتمل ولكن لنحاول أن نكون واقعيين.

- بشأن ماذا؟ لماذا ستقوم امرأة من المقاومة الأفغانية بإيذاء بيتر؟

- لكي تبتز سوزان.

- لماذا؟ أليس من المفترض أن البنتاجون يقوم بمساعدة أفغانستان؟

- لقد قام بعض أعضاء المقاومة بالانضمام للأعمال الخاصة

غير القانونية بعد رحيل السوفيت عن أفغانستان، مثل قيام بعض جنرالات النازيين والسوفيت بفعل المثل بعد انهيار دولتهم، أعتقد أن ليلى هوث لديها أهداف خاصة.. أهداف خطرة.

الفصل الثامن والخمسون

هتف جايك وقد فقد رباطة جأشه: لا بد أن أذهب للشرطة وأخبرهم بما يحدث لبيتر.

كان يتحرك بالفعل عندما انحنيت صوبه، بينما أمسكت ثيريسا بذراعه وهمست له: فكر جيدًا بما تفعله.

فصاح بها: بيتر ضحية اختطاف، لا بد للشرطة أن تفعل شيئًا.

- لن يفعلوا شيئًا سوى إخبار الفيدراليين أن أحد الهاربين الثلاثة كان بالحماقة الكافية للذهاب إليهم، وحينها ستجد نفسك في المعتقل الفيدرالي ولن يكترث أحد بشأن ابن أختك، لديهم أهداف أكثر حيوية مثل ليلى هوث وهذا كل ما يهتمون به..

كاد جايك أن يصيح بشيء آخر فقلت: عليك مواجهة الحقيقة يا جايك، بيتر ميت بالفعل..

ارتجف صوته ودمعت عيناه وهو يقول: هناك احتمالية أنه.. حي.

- أسرع طريقة لإيجاده هو الوصول إلى ليلى هوث.. ويمكننا الوصول إليها قبل الفيدراليين.

- حقًّا؟

- انظر لتاريخ الفيدراليين معنا، لقد هربنا منهم ولم يجدونا حتى الآن.. أنا لن أثق بهم كي يجدوا كتابًا داخل المكتبة

العامة، صدقني نحن لا زلنا متوقفين.

كنت أتحدث معه كأني أقوم بتهدئة طفل وتحاشيت نظرات ثيريسا..

- كيف سنجدها إذن؟

عدت بظهري للخلف وقلت لثيريسا: سانسوم، هل تحدثتِ معه؟

حاولت ثيريسا إخفاء نبرة اليأس في صوتها عن جايك وهي تجيبني: نعم، تحدثت معه، لكنها لم تكن مكالمة طويلة، أخبرني أنه لن يستطيع ملاقاتي، لكنه سيرتب موعدًا بوقت لاحق، عندما قلت له إني أفضِّل إبقاء الهاتف مغلقًا، أكد لي أنه سيتواصل معي بواسطة دوشيرتي، بعد ذلك اختفى الأخير تمامًا ولم يرد على رسائلي أو اتصالاتي، فجربت الاتصال بقسم الشرطة من هاتف عمومي فقط ليخبروني أن دوشيرتي غير متوفر.

- وما الذي يعنيه هذا؟

- أنهم قبضوا عليه.

كنت أعلم ما يعنيه هذا وما الذي ستقوله ثيريسا الآن، والسبب الحقيقي الذي جعلها تكتب محتوى الرسائل وتعطيها إياي في شكل ملاحظات ورقية، قالت ثيريسا: أنت تفهم جيدًا ما الذي يعنيه الوضع الحالي أليس كذلك؟ سوف أسلم نفسي، دوشيرتي زميلي ولن أتركه يواجه هذا الجنون وحده بسببي..

- أنت قلت إنه سينسى أمرك بعد عدة أشهر من القبض عليك.

- لكنه لم يفعل هذا وقد حاول مساعدتي بالفعل.

- تسليمك لنفسك لن يجدي أي أحد نفعًا.

- لن أتركه وحده.

- كل ما ستفعلينه هو شطب نفسك من المعادلة ليس أكثر، ستجدين نفسك في زنزانة وجوارك دوشيرتي.. كونك بالخارج أفضل بكثير من الجلوس داخل زنزانة.

- الأمر مختلف بالنسبة إليك، ستكون بلا أثر غدًا، لكني أعيش هنا، حياتي بالكامل..

- وماذا عن سانسوم؟

- عليك الاهتمام بهذا الأمر بنفسك، كما أنه بدا غريبًا على الهاتف، لا يمكنني تحديد بأي جانب هو حقًّا..

أعطتني بعدها هاتف ليونيد والشاحن، ثم وضعت يدها على ساعدي برفق، كنوع من لافتة لطيفة تتمنى لي الحظ بها، بعد انهيار شراكتنا الثلاثية المؤقتة، ثم نظرت لي ولجايك وهزت رأسها قبل أن تقف، هنا وقف جايك وقال بعزم بعدما بدا أنه توصل لقرار هو الآخر: أنا أدين لبيتر بالمحاولة على الأقل، ربما سيضعونني في زنزانة لكن هناك احتمالية أن يذهبوا ويبحثوا عنه بعدما أخبرهم بما حدث له..

نظرت إليه قائلًا: يمكننا الذهاب والبحث عنه.

- نحن لا نملك الموارد لفعل هذا.

تنهدت ونظرت لثيريسا وجايك ثم غمغمت: هل أنتم متأكدون من أنكم تريدون فعل هذا؟

إجابتهم كانت بالتأكيد، ورحل الاثنان.. راقبتهم وهم يسيرون خارج الميدان، باحثين عن سيارة شرطة قريبة ليسلموا أنفسهما، فقمت ورحلت بالاتجاه الآخر نحو المنطقة ٥٩ بالحي الخامس، شرق مانهاتن..

الفصل التاسع والخمسون

يقع ميدان ماديسون قبالة جنوب شارع ٢٣، ويستمر لـ١١٥ مربعًا سكنيًا، بعدها يأتي البرونكس، وقد استخدمت هذا الطريق في الوصول لإستاد "فريق اليانكي "وخطتي كانت البحث من هناك وصولًا للمنطقة ٥٩، وقد بدأت من شارع ٥٦، بالشمال.. متجاهلًا الجنوب حيثما كادت ليلى أن ترد قائلة: هذا ليس مكاني.

استقللت حافلة بطيئة للغاية، وقد ساعدني هذا في تفحص الأحياء من نافذتها، كما أن كونك راكبًا بحافلة يجعلك شبه خفي وبعيدًا عن الأنظار، توقفت عن كوني الرجل الخفي بعدما ترجلت من الحافلة ولمست قدماي شارع المنطقة ٥٩، هناك عدد من السياح ورجال الشرطة كما هو معتاد في تلك الأماكن، عبرت الشارع متجهًا "لسنترال بارك "وواصلت السير، ابتعت "تي شيرت "أسود مكتوبًا عليه "نيويورك "ونظارات سوداء، وقبعة بيسبول، وقمت بتغيير ملابسي داخل المتجر.

مرت أربع ساعات منذ تبادل رجال الشرطة أوصافي عبر اللاسلكي بعد هروبي من محطة الأنفاق، والمرء ينسى بعض التفاصيل بعد أربع ساعات، أضف لهذا الملابس الجديدة والقبعة، كل هذا يعمل لصالحي كما آمل، كما أن الكتابة فوق "التي شيرت "مع قبعة البيسبول والنظارات تجعلني أبدو كسائح أحمق متحمس ليس أكثر..

والحقيقة أني كنت بالفعل سائحًا أحمق ومتحمسًا ولا

أمتلك فكرة عما أفعله، في محاولة إيجاد بيت آمن دون دليل واضح بدت لي كأمر شديد الحماقة في تلك اللحظة، أنا فقط أتجول وأهيم بيأس واضح، حاولت التخلص من طريقة التفكير تلك وبدأت أتجه للبيوت الموازية للفورسيزونز، على بعد مسافة مشي معقولة منه، خمس أو عشر دقائق، متجاهلًا الجنوب تمامًا.. وكذلك استثنيت شارع ٥٧ بسبب التعطل المروري الدائم به، هذا لن يفيدها في هروبها السريع من الفندق..

هنا واتتني فكرة أخرى، ربما أنها آثرت إيجاد بيت تستطيع الوصول إليه سيرًا ومتجنبة مخاطرة الزحام المروي تمامًا، هذا يعطي شارع ٥٨ أفضلية، سرت به ومررت بالبوابة الخلفية للفورسيزونز، كانت بنفس فخامة المدخل وهناك سيارات فارهة في ساحة الانتظار، مرسيديس ولينكولن ورولز رويس وغيره.. كلها سيارات يقدر سعرها بملايين الدولارات..

وقفت جوار ساعي الفندق ونظرت أمامي، أين سأذهب الآن؟ لم يكن هناك سوى مبانٍ سكنية أمامي، وجوارهم معرض لوحات، التفت ونظر لبعد حيث رصيف بعيد به بقعة أرض خالية، نظرت يمينًا، بنايات أخرى، بعضها قديم وبعضها جديد، بإمكاني تخيل ارتفاع أسعارهم بعد إنشاء الفورسيزونز بينهم، ثم لفت انتباهي ثلاثة مبانٍ عتيقة، أحدهم مهجور تمامًا، نوافذ متسخة، قوالب قمامة، إسكان حكومي تم إنشاؤه في السبعينيات قبل قدوم الفورسيزونز

في الثمانينيات، كان هذا عندما واتتني فكرة جديدة، ليلى هوث ليست مليونيرة أوكرانية، وليست قادمة من لندن، كل هذا كذب، وأيًّا كان هويتها فلا بد أن هناك ميزانية محدودة تحكمها، وقد أنفقت هي من تلك الميزانية الكثير بالفعل، الأجنحة بالفورسيزونز وفرق التحريات، تذاكر الطيران، والحقيقة أن تكلفة ابتياع فيلا ذات طابقين بمانهاتن ستقارب العشرين مليونًا، وعشرات آلاف للإيجار، يمكن ليلى هوث الحصول على خصوصيتها هي ورجالها باستخدام مبنى عتيق مهجور كأحد المباني الثلاثة التي أنظر إليها الآن، لن يوجد حارس عقار، ولا جيران متطفلين، لا أحد يبالي بما يحدث داخل تلك المباني، يعتقدون أنها مأوى للمشردين والمدنيين ليس أكثر.. عبرت الشارع للجهة الأخرى حيث المباني، هناك شرطي يقف في نهاية الرصيف بالركن على بعد خمسين مترًا لكنه لم يكن ينظر باتجاهي، عاودت النظر للمباني وأنا أقلب كل الاحتمالات داخل عقلي، محطة الأنفاق ليست ببعيدة هنا، وكذلك الفورسيزونز، بينما شارع ٥٦ والجنوب بعيدون عن هنا، ونبرة صوت ليلى هوث أكدت لي أنها بعيدة بدورها عنهم، رغم أنه بدا كمنطق مستحيل قياسه لكني شعرت أني أبحث عن مبنى مماثل لهؤلاء الماثلين أمامي الآن، مبنى قديم ومهجور.. ربما لم يكتمل بناؤه بعدُ أو آيل للتساقط.. أضف لذلك أني أميل لاحتمالية أن سوزان مارك كانت متجهة للمنطقة ٥٩، وكانت تنتوي الاتجاه شمالًا بعدها، بالقرابة من ميدان ليكس والمتنزه، أغمضت عيني وتجولت بالخريطة داخل عقلي، بنايات حديثة، شركات، فنادق،

فيلات، شرق مانهاتن، أعتقد أن تلك المباني هي الوحيدة الذي تنطبق عليها الشروط..

هناك احتمالية لا بأس بها بالنسبة لي أني أقف وأنظر لمخبأ ليلى هوث الآن..

محتمل، ليس مستحيلًا، أنا أؤمن بدرجة ما من الحظ لكني لست مجنونًا، وعليه فأنا أؤمن بالمنطق أيضًا.. والأخير قد قادني لتلك المنطقة..

هنا حدث شيء آخر.. عزز من قوة منطقية الاحتمالية الدائرة بعقلي..

لقد خرج سبرينجفيلد من زقاق جانبي ووقف جواري، نظر بدوره للمبنى وقال دون أن يلتفت ناحيتي: هل تعتقد أنها هنا؟

الفصل الستون

كرر سبرينجفيلد سؤاله وهو يقف جواري: هل تعتقد أنها هنا؟

لم أرد لأني كنت مشغولًا بتفقد البشر والسيارات من حولي لكني لم أرَ مؤشرًا أنه جاء بصحبة الفيدراليين وقوات التدخل السريع والشرطة، التفت إليه فكرر السؤال للمرة الثالثة، قلت له: أين سانسوم؟

- في بيته.

- لماذا؟

- إنه يرى أن الأمر معقد للغاية، وأني أفضل منه في حل أمور كتلك.

هززت رأسي موافقًا، في العادة الجنود أكثر كفاءة من القادة في أمور الساحة..

- حسنًا يا سبرينجفيلد، ما هو عرضك؟

- عرضي؟

- الصفقة التي ستعرض إبرامها معي.

- لا يوجد عروض ولا صفقات بيننا، ليس بعد..

- لكنك ستقدم عرضًا أليس كذلك؟

- ربما علينا أن نتحدث أولًا.

- أين؟

- حدد أنت المكان.

هذا أمر ملائم بالنسبة لي، تحديدي للمكان ينفي احتمالية وجود شرك مخطط له، وأي فخ أو مكيدة سينصبها ستكون ارتجالية..

- هل تحفظ شوارع تلك المدينة.

- آه هه.

- حسنًا، انعطف يسارًا مرتين واذهب لشرق شارع ٥٧، سأكون خلفك بفارق عشر دقائق.. سوف ألاقيك هناك.

- أي نوع من الإمكان سأجده هناك؟

- نوع الأماكن الذي يحتوي على الكثير من القهوة.

- حسنًا.

ثم ألقى نظرة أخيرة للمبنى ورحل بعدها.. فور اختفائه عن أنظاري عبرت الشارع بخطا سريعة ودخلت من البوابة الخلفية للفورسيزونز آخذًا منعطفًا مختصرًا ثم خرجت من البوابة الأمامية، تفقدت الأرجاء وعدت للفندق حيث المقهى الذي جلست به سابقًا مع هوث، وصلت قبل سبرينجفيلد بأربع دقائق مما أعطاني الفرصة للتفقد إن كان سيصل وحده أم مع فريق.. لكنه وصل وحده وخلال عشر دقائق، وتلك هي مسافة السير المعتادة للوصول لو لم تقابل أحدًا أو تجري مكالمات هاتفية..

بداخل المقهى الفاخر ذهب رجل يرتدي ملابس رسمية لتحية سبرينجفيلد فور وصوله، لم يكن نادلًا، ربما أنه مشرف استقبال أو موظف يحمل لقبًا فاخرًا ما بالمقهى ليبرر ثمن القهوة الباهظ، لكن سبرينجفيلد استقبله بنظرة باردة جعلت الرجل يتراجع للخلف كأنه قد تلقى صفعة، توقف سبرينجفيلد وجالت عيناه بحثًا حتى رآني..

جلس أمامي وقال: لقد قابلت آل هوث هنا..

- مرتين، إحداهما كانت هنا.

- هل تعلم أن مجرد الحديث معهم يعد جريمة؟

- وفقًا لمن؟

- وفقًا لقانون الأمن القومي والأعراف العسكرية.

- من هي ليلى هوث؟

تجاهلني وأكمل حديثه: والقفز على قضبان الأنفاق يعد جريمة كذلك، ربما ستواجه خمسة أعوام في السجن لمسألة القضبان فحسب.

- لقد هاجمت أربعة رجال فيدراليين كذلك لا تنسَ هذا.

- لا أحد يكترث بشأنهم ولمهامهم غير الشرعية.

- جميل جميل.. من هي ليلى هوث؟

- لا أستطيع الإفصاح والكشف عن تلك المعلومات.

- إذن لماذا نحن هنا؟

- ساعدنا وسوف نساعدك.

- كيف؟

- نستطيع إسقاط كل التهم عنك.

- وما الذي يجب عليّ فعله؟

- أنت تعلم ما نريده.

- خزانة المعلومات الخاصة بسوزان.

أومأ سبرينجفيلد برأسه ووصل النادل حاملًا مياهًا معدنية وقهوة.. قام بوضعهما بعناية فوق المنضدة ورحل، أمسكت بقدح القهوة ونظرت لسبرينجفيلد قائلًا: لا أعلم مكان خزانة المعلومات..

- أعلم هذا، لكنك آخر من تحدث مع سوزان مارك، وهي أخذت الخزانة قبل رحيلها من البنتاجون، النظرية أنك ربما تكون لمحت أو رأيت شيئًا ما يكون ذا عون لنا في إيجاد الخزانة.

- لقد رأيتها وهي تفجر رأسها.

- لا بد أنك قد رأيت شيئًا آخر.

- ماذا عن رجلكم على متن القطار؟ ألم يرَ شيئًا ذا فائدة.

- كلا.

- ما الذي يوجد داخل خزانة المعلومات؟

- لا أستطيع الإفصاح أو الكشف عن تلك المعلومات.

- وأنا لا أستطيع مساعدتك إذن.

- لماذا تريد أن تعرف؟

- يمكنك القول إني أحب معرفة كنه المشاكل التي أتورط بها.

- إذن وجه سؤالًا لنفسك.

- أي سؤال؟

- السؤال الذي كان يجب أن تسأله لنفسك من البدء، أهم سؤال في الحقيقة، لكنك لم تطرحه أبدًا يا عقل الدجاجة.

نظرت له مندهشًا ثم قلت: هل نحن في مسابقة ألغاز الآن.

- فكر يا ريتشر، استخدم عقلك ولو مرة واحدة منذ بدء هذا الأمر.

قطبت جبيني، وانطلق عقلي يبحث عن السؤال الذي لم أطرحه، وكان يجب علي سؤاله منذ البدء، نقطة البداية كانت داخل العربة رقم ستة بقطار الأنفاق، حيثما جلست سوزان مارك، وحيدة وخائفة، في العقد الرابع من عمرها، شعرها أسود وناعم، ملابسها سوداء، تحتضن حقيبتها، الراكبة رقم أربعة التي فجرت رأسها، كانت أمًّا وأختًا لأحدهم، تعيش بمنطقة أناندل بفيرجينيا.. الموظفة المدنية بوزارة البنتاجون..

نظرت لسبرينجفيلد وقلت بروية: ما هي وظيفة سوزان مارك الحقيقية؟

الفصل الواحد والستون

لاحت ابتسامة خافتة على وجه سبرينجفيلد الذي قال: أخيرًا.. كانت تعمل كمشرف مسئول عن المعلومات التقنية بقسم التكنولوجيا.

- لا أعرف ما الذي يعنيه هذا.

- يعني أنها مختصة بمعرفة كلمات السر لعدد من الحواسب الآلية الهامة.. لم تكن تلك حواسب هامة لدرجة إطلاق صواريخ أو تشغيل مفاعل نووي أو شيء كهذا، لكنها امتلكت تصريحًا بالولوج للأرشيف وملفات الموظفين، هذا يشمل فرق الدلتا.

- فرق الدلتا لها قسم خاص بملفاتهم في فورت براج، شمال كارولاينا وليس البنتاجون.

- الشبكة كلها متصلة وتصب في البنتاجون بنهاية الأمر.. كل شيء يوجد بكل مكان واللامكان الآن.

- وهي امتلكت حق الولوج لكل شيء؟

- كان هذا خطأ غير مقصود.. التقنيون يساعدون بعضهم البعض عبر غرف محادثة خاصة، كانوا يعلمون بشأن هذا الخطأ وكيف أنه قد يتسنى لشخص واحد منهم الولوج لكل المعلومات لكنهم تغاضوا عن هذا الأمر ؛ لأنهم افترضوا أن هناك ثقة متبادلة..

تذكرت ما قاله جايك عن سوزان.. "لقد كانت بارعة في

استخدام الحاسوب".

- إذن فهي امتلكت القدرة على الولوج لكل ملفات فرق الدلتا.

- نعم.

- لكن سانسوم ترك الجيش قبل انضمامي إليه بخمسة أعوام، لم يكونوا قد اعتمدوا على الحواسب الآلية في هذا الوقت وخصوصًا بالنسبة للأرشيف..

- عمر الجيش الأمريكي يناهز التسعين عامًا، هو عجوز للغاية وذاكرته ضعيفة، والأوقات تتغير، كل تلك الدفاتر الورقية قد تم اختزالها إلكترونيًّا للحفاظ على تلك الذاكرة.. أنت تعلم أن ذاكرة الجيش مهمة..

- وسوزان قد نسخت تلك الذاكرة.

- نسختها وطبعتها ومسحت النسخة الأصلية من الحاسوب.. واحتفظت بكل شيء في خزانة معلومات إلكترونية ونحن لا نعلم مكان تلك الخزانة..

- ولماذا سوزان مارك؟

- إنها تطابق كل المواصفات المنشودة، وحيدة وتعاني من أزمة عاطفية، في منتصف العمر، هدف سهل للغاية.. وابنها كان عنصرًا ممتازًا كوسيلة ضغط..

- لماذا مسحت النسخة الأصلية؟

- لا أعرف.

- ماذا يوجد في النسخة الأصلية؟

كاد أن يقول لا أستطيع الكشف عن تلك المعلومات فقلت بنفاد صبر: ليلى هوث جاءت هنا بسرعة فائقة للحصول على تلك المعلومات، لا بد أن هناك خائنًا ما بالبنتاجون قد سرب إليها المعلومات.

- حقيقي.

- هل تعلم هويته؟

- ليس بعد.

- وأنت لا تستطيع إخباري بما يوجد داخل النسخة الأصلية ولا سبب رغبة ليلى هوث في أخذ المعلومات.

- كلا، لا أستطيع الكشف عن تلك المعلومات.

- أنت تردد تلك العبارة كثيرًا كأنك واقع في غرامها.

- أنا أعنيها كذلك.

- من هي ليلى هوث؟

ابتسم وهز يده بمعنى أنه لا يستطيع الكشف أو الإفصاح عن تلك المعلومات..

- حسنًا يا سبرينجفيلد، يمكنك سؤالي وبإمكاني إعطاؤك تخمينات، يمكنني الكشف والإفصاح عنها وربما يمكنك تصحيحي..

هز كتفيه ثم سألني: من هي ليلى هوث؟

- أعتقد أنها أفغانية.

- أكمل.

- هذا ليس بتعليق واضح.

- أكمل.

- كانت تعمل مع المقاومة ثم غيرت مسارها وانحرفت للأعمال غير القانونية، ربما تجارة السلاح..

- أكمل.

- لكن هل منظمات تجارة السلاح لهم قادة من النساء؟

- طالما القائد بارع فأي أحد يصلح، كما أن هذا عنصر تمويه رائع، يبحث الإنتربول عن رجال أعمال بينما نساء شابات فائقات الجمال تتولى القيادة الحقيقية..

- وهناك امرأة تدعى سفيتلانا قاتلت مع المجاهدين، الذي يعرفون أن الأمريكان قد سرقوا بندقية فال من السوفيت، وقد انتحلوا اسم الجندي، جريجوري هوث، للحصول على قصة وهمية تضمن لهم تعاطفًا إنسانيًا كضحايا حرب..

- لماذا؟

- لأن تلك المنظمة تريد إثباتًا موثقًا أن الحكومة الأمريكية قامت بمهام عسكرية غير شرعية في هذا الوقت، وهذا يبدو هدفًا غريبًا لمنظمة تجارة سلاح، إلا لو أرادوا ابتزاز الحكومة، أو إحداث انقلاب عسكري ما أو حربًا أهلية بدولة فقيرة لبيع

السلاح ويريدون مباركة الحكومة الأمريكية من أجل هذا، ربما يريدون ابتزاز سانسوم نفسه كمرشح سياسي وضمان ولائه لهم في المستقبل..

- أكمل.

- والحكومة في حالة ذعر من الفضيحة السياسية وتسعى بشكل شخصي لتصفية الأمر.

- أكمل.

- أعتقد أنك كنت مع سانسوم في تلك الليلة بأفغانستان، لقد كان مهمة سياسية وليست عسكرية كذلك، سرقة الفال كان محض مصادفة ونقطة إضافية ليس أكثر، ربما أنت أخذت نيشانًا عسكريًا كذلك..

- نحن لم نكن في حالة رسمية مع أحد في هذا الوقت، يمكنك تفهم رغبتنا في إبقاء الأمر سريًا.

- وأنت تعلم أن ليلى هوث قد قتلت أربعة رجال، وربما ابن سوزان مارك كذلك.

- نحن غير متأكدين لكننا نعلم بوجود تلك الاحتمالية.

- لماذا لم تقبض على ليلى هوث إذن؟

- أنا مدير أمن لمرشح سياسي، لا يمكنني القبض على أحد.

- لماذا لم يفعل الفيدراليون ذلك إذن؟

- هم يعتبرون ليلى هوث عدوًا من فئة "أ "بمعنى أنه عدو

شديد الخطورة والأهمية، لكنها ليست مطلوبة الآن، لا أحد منهم يعتقد أنها تقوم بأي عملية حالية..

- هذا محض هراء ويعني أنه فقط لا يستطيعون إيجادها.

ابتسم سبرينجفيلد ثم قال: حقيقي.

- وأنت سعيد بشأن هذا؟

- ليلى هوث لا تمتلك خزانة المعلومات، وطالما هي لا تمتلكها فهي ليست بمشكلة بالنسبة لي..

- أعتقد أن عليك اعتبارها مشكلة.

- هل تعتقد أنها توجد داخل هذا المبنى؟

لم أرد، أردف سبرينجفيلد: لا تذهب للبحث عن ليلى هوث.

- أنت قلق بشأني الآن؟

- سوف يتوصلون لنفس استنتاجنا، إنه حتى لو لم تعلم مكان الخزانة، فأنت رأيت شيئًا ما سيساعدهم في التوصل إليها، ولسوف يحاولون استخراج تلك المعلومات منك بأبشع الطرق.. وربما يخبرونك إبان كل هذا بما يوجد داخل الخزانة، ولو حدث هذا سيتوجب على الحكومة الأمريكية قتلك.

- جميل جدًّا.

- لنقل فحسب إن محتوى تلك الخزانة كفيل بجلب الخزي والعار للرائد سانسوم والحكومة الأمريكية سواء..

أتى النادل وسأل إن كنا نريد شيئًا آخر فأجابه سبرينجفيلد

بالإيجاب وطلب المزيد من القهوة لي وله مما أخبرني أن لا يزال بجعبته الكثير من الكلام..

- احكِ لي ما حدث بكل دقة على متن القطار يا ريتشر..

- لماذا لم تكن أنت هناك بدلًا من رجلكم الذي أرسلتموه؟

- لقد كنت في تكساس مع سانسوم عندما عرفنا بالأمر وكان علينا إرسال أحد قريب من نيويورك..

- ولماذا لم يرسل الفيدراليون أحدًا للقطار؟

- لقد أرسلوا اثنين بالفعل امرأتين (رودريجوز ومايل) كانتا تعملان بالتخفي، الحقيقة أنك دخلت العربة الخطأ في التوقيت الخاطئ..

تذكرت الركاب، ثلاثة منهم عملاء حكوميون والرابعة هاربة موشكة على الانتحار، أحيانًا يكون حظي رائعًا للغاية.. قلت لسبرينجفيلد: لقد كانوا بارعين في التخفي، كلاهما في الحقيقة.. لكن كيف عرفتهم أنها سوف تستقل القطار؟

- كنا نتعقبها.

- لماذا لم تقبضوا عليها؟

- الفيدراليون أرادوا تعقبها لمعرفة هوية من الذي ستقابله..

- ثم تدخلت أنا وتحدثت إليها مما جعلها تعتقد أن أمرها قد انكشف وقتلت نفسها.

- بالضبط.

نظرت لانعكاس وجهي على زجاج المنضدة، كان وجهي ممتقعًا وشعرت بقبضة تعتصر معدتي، شعرت أني مدين بالكثير لسوزان مارك...

- لم يكن هناك خزانة معلومات مع سوزان.

- أنت متأكد من هذا؟

- نعم.

- لقد فتشنا بيتها وسيارتها ولم نجد شيئًا.

- هل فتشتم عربة القطار.

- بالطبع.

قلت له بصوت حانق: ماذا يوجد داخل خزانة المعلومات اللعينة تلك؟

لم يرد، وبدأ هاتف ليونيد يرن في جيبي مرة أخرى..

الفصل الثاني والستون

نظر إليّ سبرينجفيلد بصمت، بينما أخرجت الهواتف الثلاثة ووضعتهم على المنضدة قبالتي ونظرت للهاتف ذي الشاشة المضيئة الذي لم يتوقف عن الاهتزاز، رقم غير مسجل، أجبت الهاتف..

أتاني صوت ليلى هوث.

- ألا تزال في نيويورك؟

- نعم.

- بالقرب من الفورسيزونز.

- ليس بالضبط.

- اذهب هناك إذن، لقد تركت لك طردًا خاصًا مع موظف الاستقبال.

- متى؟

لم تأتني إجابة، لقد أنهت المكالمة، نظرت لسبرينجفيلد وقلت: انتظرني هنا.

ذهبت للردهة ومنها لقاعة الاستقبال، أعطيت الموظف اسمي وسألته أن هناك طردًا ينتظرني، بحث لدقيقة ثم أعطاني الطرد، سألته: هل رأيت من ترك الطرد؟

- رجل أجنبي.

- هل رأيته من قبل؟

- كلا يا سيدي..

حملت الطرد وعدت لسبرينجفيلد.

نظر لما أحله وقال: هدية من ليلى؟

- نعم.

تحسست الطرد وسألني بنوع من القلق: هل تريد الانتظار قبل فتحه؟ ربما يكون قنبلة؟

- لا أعتقد هذا، أيًّا كان الذي بداخله فهو خفيف.. سآخذ المخاطرة على أي حال..

فتحت الطرد وأخرجت ما به وقلبته بين أصابعي أمام أعين سبرينجفيلد ثم قلت: أسطوانة..

- DVD في الواقع.

قالها سبرينجفيلد، كانت أسطوانة مدمجة ذات صنع محلي، قلت: أنا لا أمتلك مشغل أسطوانات.

- لا تشاهد محتواها إذن.

- أعتقد أنه يجب عليّ مشاهدة محتواها.

سألني سبرينجفيلد بغتة كأني سوف أنسى وأجيبه فجأة: ما الذي حدث على متن القطار يا ريتشر؟

- لا أعرف.

ثم أعدت تقليب الأسطوانة بين يدي، فقال سبرينجفيلد:

بإمكانه مشاهدة محتواها على الحاسوب كما يفعل البعض مع الأفلام.

- لا أمتلك حاسوبًا.

- الفنادق بها حواسب.

- لا أريد البقاء هنا.

- هناك فنادق أخرى.

- لنذهب للشيراتون إذن.

***

وصلنا للشيراتون بسيارة سبرينجفيلد، وقد تأكدت من أحدًا لم يتبعنا، ذهبنا ركن رواد الأعمال وفتح لي باب مكتب ببطاقة آلية، أخبرني أنه سينتظر بالخارج، فذهبت وجلست أمام حاسب آلي وأنا أفكر بالغوريلا والمسدس المخدر في قناة ناشيونال جيوجرافيك، أشعلت الحاسوب ووضعت به الأسطوانة المدمجة، وحركت الفأرة لضغط زر التشغيل، عندها اتصلت بي ليلى هوث مجددًا..

الفصل الثالث والستون

أتاني صوتها الناعم عبر الهاتف متسائلًا بهدوء: هل شاهدت بعد؟

- كلا.

- أعتقد أنك عليك المشاهدة.

- لماذا؟

- لأن المحتوى تعليمي ومفيد للغاية.

تلفت حولي بالغرفة ووجدت رجلين آخرين يجلسان أمام حواسب، سألتها: هل هناك صوت؟

- كلا، بإمكانك اعتباره فيلمًا صامتًا، مع أن فكرة صوت ستضيف فاعلية بلا شك.

لم أعلق، سألتني: أين أنت؟

- في قاعة رواد أعمال بفندق.

- الفورسيزونز؟

- كلا.

- وهناك حواسب آلية بقاعة رواد الأعمال؟

- نعم.

- هل بإمكان أحد آخر رؤية الشاشة؟

لم أقل شيئًا.

- هيا شاهد ولسوف أبقى معك على الهاتف وأخبرك بالتعليقات كنسخة خاصة من فيلم مع تعليقات المخرج في الخلفية.

لم أقل شيئًا.

ضحكت وأضافت: نسخة المخرج الخاصة دون تدخل المنتجين والرقابة.

حركت الفأرة وضغطت تشغيل.. وأمامي كانت هناك غرفة شبه مظلمة عدا ضوء خافت في المنتصف وبها رجل عارٍ تمامًا مقيد ومكمم الفم فوق مقعد حديدي، ينزف دمًا وعرقًا ورأسه يتأرجح يمينًا ويسارًا.

- ما الذي تراه؟

سألتني ليلى برقة.

- رجل مقيد.

- استمر بالمشاهدة.

- من هو؟

- سائق أجرة قام بمهمة لصحفية أمريكية.

تلفت حولي ووجدت الرجال منصبين داخل الشاشات أمامهم، عدت للمشاهدة، الرجل يحاول هز رأسه بعنف، ربما يحاول دق عنقه، يبغي الموت بدلًا من المصير الحتمي الذي ينتظره.. هنا دخلت سفيتلانا هوث الغرفة، حاملة سكينًا في

يدها.. نظر الرجل مرعوبًا للسكين في يدها.. اقتربت سفيتلانا منه، بلامبالاة كأنها تنظر لوجبة طعام، ثم شقت بطنه بالسكين فقالت ليلى: إنها تنتهي منه الآن.

- كيف تعرفين؟ أنت لا ترين الشاشة.

- بإمكاني تخمين الجزء الذي وصلت إليه من خلال أنفاسك.

التمعت السكين أمام الشاشة، ورفعتها سفيتلانا أمام عيني الرجل المحتضر ونظر الأخير إليها برعب لا يصدق..

حدقت بالشاشة ثم قلت عبر الهاتف: أنت مخبولة.

- هذا ما قاله بيتر مولينا.

- لقد رأى الفيديو.

- هاها، الفيديو لم ينتهِ بعد، بيتر مولينا سيظهر الآن.

تلفت حولي، لا أحد يرى ما أراه الآن، قمت بتقديم الفيديو مستخدمًا الفأرة، بينما ليلى تقول: في النهاية يأتي الموت.

مع سرعة التقديم تزايد اهتزاز رأس الرجل ومعاناته حتى تحول لجثة هامدة، أردت إخبارها أنها مخبولة مرة أخرى لكني صمت لأنها كانت ستخبرني مجددًا أن هذا هو ما قاله بيتر..

- استمر بالمشاهدة، هل تعلم ما الذي كان يصيح به بيتر وهو يرى الفيديو، كان يصيح بسائق الأجرة كي يتحمل، تلك حماقة بالطبع لأنه كان يحدث جثة هامدة، والفيديو الأول عمره أشهر..

- أنت مريضة، وكذلك ميتة بالفعل، هل تعلمين هذا؟ أنت في منتصف الطريق والشاحنة لم تصدمك بعد لكنها في طريقها.

وهنا سألتني في رقة: وأنت تلك الشاحنة؟

- بإمكانك المراهنة على هذا.

- واصل المشاهدة.

أوقفت التقديم عندما ظهرت ليلى في الفيديو واقتربت من جثة الرجل، تحسست نبضه وتحسست دماءه ثم رسمت بها دائرة قلب على صدره والتفتت مبتسمة صوب الشاشة، كأنها تنظر إلي..

- لقد مات بسرعة أليس كذلك؟

- مثلما سيحدث لك.

- الموت قادم لنا جميعًا يا ريتشر.. السؤال هو متى وكيف؟..

مر رجل من خلفي، حاولت حجب الشاشة بجسدي لكني أعتقد أني فشلت بذلك لأنه نظر إليّ باشمئزاز ورحل.. ربما يكون قد سمع ما قلته فقط على الهاتف.. همست ليلى في أذني: واصل المشاهدة..

ساد الظلام لثانية على الشاشة ثم وجدت نفسي أحدق بمشهد مختلف، غرفة مظلمة أخرى، هناك مقعد عليه مراهق رياضي قوي البنية عاري الجسد ومقيد اليدين ومكمم الفم مثل سائق الأجرة بالضبط..

تذكرت وصف جايكوب مارك لبيتر.. وسألتني ليلى بفضول كطفلة متحمسة: هل تراه؟

- نعم أراه..

بيتر كان ينزف عرقًا ودمًا ويحرك رأسه بنفس طريقة الرجل الآخر.

- أنا لن أشاهد.

قلتها بصوت متحشرج فضحكت ليلى وردت: إذا لم تشاهد، لن تتأكد أبدًا مما حدث له أليس كذلك؟

ظللت صامتًا فأردفت بطريقة مشاغبة: ربما نكون قد أطلقنا سراحه.

تذكرت وجه سوزان مارك.. وليلى تردف: كما أن عليك المشاهدة لأنك ستكون الرجل الثالث في الفيديو القادم، وكما قلت لك... ربما نكون قد أطلقنا سراحه.

تخيلت سوزان مارك تهز رأسها لي كي أكمل المشاهدة لعلهم يكونون قد أطلقوا سراحه..

واصلت المشاهدة..

كانت ليلى هي من قتلته بيدها وتركته يحتضر ببطء وعذاب وألم..

لم يطلقوا سراحه..

الفصل الرابع والستون

أنهيت المكالمة ووضعت الهاتف مع الأسطوانة في جيبي ثم ذهبت لدورة المياه وأفرغت جوفي في المرحاض، ليس بسبب القتل والعنف، لأني قد شاهدت ما هو أسوأ، لكن سبب الغضب المعتمر بداخلي، غسلت وجهي وشربت بعض المياه ثم نظرت لانعكاس وجهي بالمرآة.. قمت بعدها بإفراغ محتويات جيبي في صندوق القمامة، خزانة المعلومات الزائفة وملاحظات تيريسا لي والأسطوانة المدمجة واثنين من الهواتف.. لم أعد بحاجة لخداع بعد الآن...

خرجت من المرحاض وذهبت لسبرينجفيلد الذي قال لي فور جلوسي: وجهك شاحب وممتقع..

- لقد شاهدت رجلين يتم قتلهم بوحشية للتو.

- من هم؟

- سائق أجرة وابن سوزان مارك..

- وليلى هوث كانت في الفيديو؟ هذا بمثابة اعتراف..

- تبًا للقانون وللاعترافات.

- ريتشر، إنهم يسعون لاستفزازك، هذا هو الهدف من إرسال الفيديو، لأنهم لا يستطيعون إيجادك فالحل هو دفعك للقدوم إليهم.

- وهذا ما أنتوي فعله بالضبط..

- خططك المستقبلية هي شأنك أنت لكني أؤكد لك أنك تسير نحو فخ منصوب ببراعة.

- لا يهم.

تنهد سبريجنفيلد ثم قال: بشأن الصفقة، نحن مستعدون لإسقاط التهم مقابل إخبارك لنا بشيء مفيد رأيته على متن القطار.

- لم أرَ شيئًا على متن القطار اللعين، لقد كنتم هناك، كما أني بحاجة لأن تسقط كل التهم في كل الأحوال، أنا بحاجة لحرية التصرف، لا يمكنني مطاردة ليلى هوث والشرطة في أثري..

- سأحاول.. لكن لا توجد ضمانات، لكني سوف أحاول أقصى جهدي..

- وما هي فرص نجاح محاولاتك تلك؟

- شبه معدومة.

- إذن دع سانسوم يحاول.

- سوف أتواصل معه.

- وقل له أن يكف عن الهراء، لقد تخطينا تلك المرحلة، وقل له أن يطلق سراح ثيريسا لي وجايكوب مارك ودوشيرتي، لا صلة لهم بتلك المسألة اللعينة..

- حسنًا.

- ولو وصلت إليكم نسخة من الفيديو لا تجعلوا جايكوب

يراها، اعتنوا به جيدًا، وكذلك مولينا والد بيتر..

- حسنًا.

- هناك شيئان آخران.

- أنت تساوم بعنف بالنسبة لرجل لا يمتلك شيئًا ليقدمه..

- نعم، أريد معلومة من الأمن القومي الذين تعقبوا الرجال من طاجيكستان بشأن الوافدين من هناك.

- تريد تقدير حجم فريق ليلى هوث.

- نعم، والشيء الآخر هو مقابلة سانسوم.

- لماذا؟

- لأنه سيخبرني ما الذي يوجد في خزانة المعلومات.

- لن يفعل هذا.

- إذن لن أساعده في استرجاعها، سأحتفظ بها لنفسي وأتفقد محتواها بنفسي.

- ماذا؟

- أنت سمعتني.

- الخزانة بحوزتك؟

- كلا، لكني أعرف مكانها.

الفصل الخامس والستون

- أين الخزانة يا ريتشر؟

- لا أستطيع الإفصاح أو الكشف عن تلك المعلومات.

- أنت تكذب.

- ليس تلك المرة.

- أنت تؤكد أنك تعرف مكانها.

- بإمكاني التأكيد أني سوف آخذك لمقربة منها نعم.

- لماذا؟ هل هي مدفونة؟ أم في خزانة مصرف؟

- لا شيء مما سبق، اتصل بسانسوم وحدد موعدًا معه.

تنهد سبرينجفيلد ودفع الحساب للنادل، قلت له: احجز لي غرفة هنا باسمك.

- لماذا؟

- سوف يستغرق الأمر وقتًا لسانسوم كي يسقط عني التهم، وأنا بحاجة للنوم..

كاد سبرينجفيلد أن يخبرني أني قد فقدت عقلي لكنه عدل عن هذا في اللحظة الأخيرة.

***

ارتميت مرهقًا فوق الفراش داخل الغرفة بالشيراتون، تذكرت ما قلته لسبرينجفيلد قبل رحيله: هل أستطيع الثقة

بك؟

- نعم.

- أثبت هذا إذن.

- كيف؟

- أعطني سلاحك.

- أنا لست بمسلح.

- إجاباتك تلك لن تساعد في مسألة الثقة.

- لماذا تريده؟

- أنت تعرف السبب، لكن دعني أخبرك به رغم ذلك، لكي أمتلك وسيلة دفاع عن نفسي لو اتضح أنك لست بأهل للثقة.

مرت حيرة بوجهه لوهلة ورأيت أنه يفضل غرز إبرة داخل عينه على أن يعطيني سلاحه، لكنه أجرى حسبة احتمالية في ذهنه، ثم مد يده داخل سترته وأخرج مسدسًا عيار ٩ ملم، أعطاني إياه ببطء وعيناه لا تفارق وجهي، كان سلاحًا جيدًا يحتوي على ثماني عشرة رصاصة، ولم أمانع في فكرة الحصول عليه، أخذته منه وشكرته..

لم يرد ورحل في صمت، استحممت بعد رحيله ثم ارتميت فوق الفراش مرهقًا، واضعًا مسدس سبرينجفيلد أسفل الوسادة.

***

استيقظت بعد أربع ساعات إثر طرق على باب غرفة الفندق، فتحت عيني ببطء وتكرر الطرق، قلت وداعًا لسوزان مارك التي كانت معي في الحلم واعتدلت جالسًا فوق الفراش، تكررت الطرقات فوقفت ولففت منشفة حول خصري والتقطت المسدس ثم ذهبت عاري الجذع ووقفت أمام الباب، لم أرد النظر من العين السحرية، هناك دومًا احتمالية لقاتل محترف يقف خلف الباب حاملًا مسدسًا كاتمًا للصوت ولاصقًا فوهته في العين الزجاجية، بانج.. وداعًا يا ريتشر.. تنهدت ونظرت من على بُعد فلمحت سانسوم وسبرينجفيلد.. قبضت بيدي على مقبض المسدس، كانا وحدهما، وسيظلان وحدهما إلا لو كانوا قد أحضروا تسعة عشر رجلًا معهم، حينئذ كانت ستنفد رصاصاتي الثماني عشرة ويتبقى رجل واحد فقط، أدرت مقبض الباب بيد حاملًا المسدس في الأخرى وفتحت الباب، دخل سانسوم صامتًا وتبعه سبرينجفيلد، أغلقت الباب وجلس الاثنان بمقاعد مجاورة للفراش، التقطت ملابسي وقلت لهم: أعطوني عدة دقائق وخذوا راحتكم..

لم يكترث سانسوم لسخريتي وحافظ على صمته، غيرت ملابسي بدورة المياه ثم عدت إليهم، قال سانسوم فور خروجي: هل تعلم حقًا أين خزانة المعلومات؟

- نعم.

- لماذا تريد معرفة ما الذي يوجد بداخلها؟

- لأني أريد المعرفة دون بحث عميق عن أسباب أخرى.

- أنت لا تريد لي أن أترشح أليس كذلك؟

- أنا غير مهتم بحياتك السياسية.

- إذن لماذا لا تخبرني فحسب أين هي؟

- لأن هناك شيئًا أنا بحاجة لفعله في المقابل ولكي أفعله عليك بإسقاط كل التهم عني وإزاحة ضباط الشرطة عن كاهلي، شيء مقابل شيء.

- وما الذي يضمن لي أنك لا تخدعني.

كنت قد سأمت الأمر كله، سانسوم وألاعيبه السياسية وأسرار الحكومة وكل هذا الهراء، جنون الحرب وويلاتها وضحاياها مثل سوزان مارك وبيتر مولينا وجريجوري هوث وأهل أفغانستان، أردت أن أصيح في سانسوم بكل هذا وربما ألكمه بمنتصف وجهه لكني تنهدت وقلت: عليك المجازفة، لماذا أنت مهتم لتلك الدرجة بكونك في مجلس الشيوخ..

- ما الذي تعنيه؟

- أنت ثري بما يكفي لتعتزل الحياة كلها وتذهب للحياة في بيت فاخر أمام شاطئ خاص.

لم يرد لكنه بدا للحظة كأنه يفكر في تلك الحياة ثم هز رأسه وابتسم..

- ولماذا تسألني عن محتوى الخزانة يا ريتشر طالما أنك تعرف مكانها، لماذا لا تذهب وتأخذها بنفسك لتلقي نظرة.

- عندما تعرف مكانها ستفهم لماذا لم أفعل ذلك..

- هل هي آمنة؟

- نعم.

- هل يمكنني أن أثق بك؟

- لقد فعل الكثيرون هذا من قبلك.

- لقد رأيت سجلك العسكري، كان حافلًا بالمشاكل رغم كونه مبهرًا.

- هذا لأني كنت أستخدم عقلي بدلًا من اتباع الأوامر دون تفكير.

- لماذا استقلت؟

- أصابني الملل، وماذا عنك أنت؟

- كبرت في السن..

- حسنًا يا سانسوم، ما الذي يوجد داخل الخزانة؟

تنهد وتبادل نظرة مع سبرينجفيلد الذي كان يجلس بالقرب من باب الغرفة، مستعدًا ومتأهبًا لأي بادرة غدر، ثم قال سانسوم: هل أنت متأكد من أنك مستعد لمعرفة الإجابة؟

- نعم، أنا أعلم أنك ذهبت للهند وتركيا وبراج وباكستان، أعلم أنك قمت بالمهام الحكومية القذرة وعملت مع المخابرات، لا شيء مما ستقوله سوف يدهشني..

ظل صامتًا.

- أعلم وأنت تعلم أنك قد ذهبت لأفغانستان في مهمة سياسية عندما تعثرت بجريجوري هوث وسرقت البندقية الفال..

تمتم سانسوم وعقله يستعيد ذكريات بعيدة ودموية: لقد كان وقتًا جنونيًا للغاية، ربما أكثر جنونًا من الوقت الحالي رغم أني أعتقد أننا في طريقنا لمرحلة تنافس جنون الماضي.. الحرب الباردة وريجان والسوفيت وكل هذا.. كنا ندعم حركة المجاهدين في هذا الوقت كما تعلم..

- سانسوم.. كف عن المماطلة وأجب سؤالي.

- حسنًا.. لقد ذهبت لأفغانستان للقاء الفتى الذهبي الخاص بالمجاهدين، محملين بالهدايا وكل شيء من الرئيس الأمريكي رونالد ريجان، هذا الفتى الذهبي هو أسامة بن لادن، تلك إحدى المعلومات داخل الخزانة الإلكترونية، صفقات موثقة وصور لي مع بن لادن ونحن ننظر للكاميرا مبتسمين، لكن هذا ليس كل شيء، كان هناك صفقات أخرى مع آخرين كذلك، الكثير من الأعمال غير الشرعية..

الفصل السادس والستون

ساد صمت ثقيل في الغرفة وشعرت بأن الهواء قد تلوث، ثم قال سانسوم إزاء تعبير وجهي: هل ترى؟ لقد تغير كل شيء بعدما عرفت أنت الحقيقة، أصبحت أنا الرجل الذي عقد صفقة مع أسامة بن لادن..

- تاريخك مشرف بالفعل.

احمر وجه سانسوم لثوانٍ دون تعليق، ثم أردف: أتذكر ابتسامة ابن لادن وهو يصافحني، كان حليفًا لنا، ثم فجأة عدونا اللدود..

- هل تناولت الطعام معه؟

- نعم.. لقد كنا ضيوفًا في خيمته.

- جميل جدًّا.. إذن محتوى خزانة المعلومات، الشيء الذي اختطفوا ابن سوزان من أجله وجعلوها تخون بلدها من أجله وتنتحر خوفًا منه هو صور مشبوهة لك وأنت تجري صفقات مشبوهة بمختلف البلدان.

- نعم.. الآن أنت تعرف الحقيقة.

الفصل السابع والستون

كان شحوب وجه سانسوم يتزايد كلما تحدث أكثر، رغم أني متأكد منه قد تدرب على حديثه هذا قبل قدومه للغرفة، ثم ذهب للمرحاض وعاد وهو أكثر تماسكًا يقول: ريجان أراد تلك الصورة.. أراد برهان أننا قد تبعنا أوامره.

وأضاف سبرينجفيلد: سانسوم من جهة وأنا في الناحية الأخرى وفي المنتصف يقف بن لادن مبتسمًا.. تلك صورة ستجدها في الخزانة الإلكترونية، مسألة المجاهدين تلك حقل ألغام حقيقي..

هز سانسوم رأسه وقال بصوت مبحوح: في نظر العامة فإن بن لادن هو من أسقط البرجين في ١١ سبتمبر، وهاجم البنتاجون، هو أسوأ إرهابي في تاريخ أمريكا.. صورتي معه كافية لإنهاء حياتي السياسية تمامًا.

- وليلى هوث تسعى لإذلالك أنت والحكومة الأمريكية؟

- تريد صوتي للموافقة في مجلس الشيوخ على إجراء صفقات شراء سلاح من إحدى شركاتهم الوهمية المسئولة عن غسيل أموال تجار البشر بأوروبا الشرقية.

تذكرت شيئًا فابتسمت قائلًا: لهذا توجد الصورة لك في حملتك وكتاب سيرتك الذاتية مع رامزفيلد والقيادي الشهير السابق الذي أصبح عدوًا لكم.. صديق الأمس بإمكانه أن يكون عدو الغد وكل هذا الهراء، كأنك تمهد للفضيحة القادمة.

لم يعلق، وتحدث سبرينجفيلد مقاطعًا: الفيدراليون متعنتون بشأن إسقاط التهم عنك يا ريتشر، لا يريدون نسيان ما فعلته برجالهم، لكن شرطة نيويورك مستعدون لتناسي مسألة القفز والهرب في الأنفاق، لإراحة أنفسهم من الأعمال الورقية والحرج، لكن بالنسبة للفيدراليين الواقعة تم توثيقها بالفعل والحرج أصبح واقعًا..

- هذا أشبه بالتغاضي عن مخالفات مرورية لتيد باندي أو تشارلز مانسن، لا بد من إسقاط التهم الرئيسية أولًا من قبل الفيدراليين وأنت تعلم هذا.. وماذا عن ثيريسا لي وجايكوب مارك ودوشيرتي؟

- تم إطلاق سراحهم بالفعل وكل منهم قد عاد لوظيفته مع توصية حكومية لمساعدتهم للأمن القومي..

- ولماذا لا تستطيعون فعل نفس الأمر معي؟!

- لم يقم أحدهم بضرب عملاء فيدراليين وإهانة وكالة حكومية بهذا الشكل.

نظرت لسانسوم وقلت: ما الذي ستفعله بخزانة المعلومات عند حصولك عليها؟

- سأتفقد محتواها قبل أن أهشمها لقطع صغيرة متناثرة لا يمكن تجميعها..

- وافترض أني سأطلب منك ألا تفعل هذا.

- لماذا؟

- سأخبرك فيما بعد..

رفعت سماعة الهاتف وطلبت وجبة إفطار أو غداء من خدمة الغرف ثم أضفت قهوة للطلب، طالما سانسوم هو الذي سيدفع فلا مانع لدي من تناول وجبهة شهية، ثم تجاهلت سانسوم لأنه قد باع روحه لعالم السياسة وسألت سبرينجفيلد: ألم ترغب في قتل جيوفريتش؟ هل كان الأمر عاديًّا بالنسبة لك أن تصافح تاجر أعضاء بشرية وسفاح أطفال؟

- بالطبع أردت قتله، الحقيقة كان بإمكاني مد يدي ودق عنقه في أي لحظة.. لكني كنت جنديًّا أتبع الأوامر مؤمنًا بالمصلحة العليا للبلاد وكل تلك الأشياء التي اكتشفت أنها كذب فيما بعد، لو عاد بي الزمن لقتلته في لحظتها، هذا كان لينقذ أرواح مئات الأطفال.

- ولكن قتلك لك كان ليجعل مهمتك انتحارية.

- لا يهم.

صدقت سبرينجفيلد، هو لم يبع روحه بعد مثل سانسوم، هو لا يزال جنديًّا ويتبع الأوامر.. غمغم سانسوم: بإمكانك أن تسلمنا الخزانة وتنسى الأمر، لا يزال أمامك فرصة للهروب من الأمر كله.

- وماذا عن سوزان مارك وابنها؟ هم يستحقون خاتمة عادلة في النهاية..

- لا داعي لكي تتورط أكثر من هذا يا ريتشر.

- أنا أحب التحدي الجيد.

- هناك تحديات أخرى في الحياة.

- أنت لا تفهم، ليلى هوث جعلت الأمور شخصية بالفعل.. أرسلت لي مقاطع فيديو يتم فيها سلخ بيتر مولينا وسائق أجرة بريء.

- هذا مجرد "تكتيك" منهم للحصول على رد فعل منك، نحن لسنا في فيلم رعاة بقر هنا يا جاك.. هذا ليس بالغرب القديم.

- أنت محق، هذا هو الغرب المظلم..

- هل تعلم حتى مكان ليلى هوث؟

- لدي تخمين.

- ووسيلة اتصال فعالة بها؟

- هي لم تتصل منذ آخر مكالمة لها بعد إرسال الأسطوانة المحتوية لمقاطع الفيديو.. لكني أعتقد أنها ستعاود الاتصال.

- لماذا؟

- لأنها ستريد فعل ذلك.

- عليك أن تفهم شيئًا جيدًا.

قالها سانسوم ومال للأمام متابعًا بوجه جاد: لو وقعت أسيرًا في يد ليلى هوث فلسوف تجد نفسك تخبرها بكل شيء، تضمنًا لمكان خزانة المعلومات، أنت لن تتحمل عذابها..

- قل لي يا سانسوم.. كم من مرة سافرت بالطائرة بعد ١١ سبتمبر؟

- مئات المرات.

- وكم من مرة تخيلت وجود مختطفين على متن الطائرة وأردت الانقضاض عليهم وقتلهم أو الموت وأنت تحاول فعل هذا؟

- كل مرة تقريبًا.

- لماذا؟

- لأني أريد حماية الطائرة.

- وتفريغ غضبك كذلك.. غضبك وكراهيتك، الآن تخيل أن تلك الطائرة هي عربة قطار، وأن الرهائن هم سوزان مارك.

- فهمتك.

ثم أضاف بشرود: لكنك لن تستطيع فعل كل هذا وحدك؟

- ما هي الخطة البديلة؟

- دع الأمر للأمن القومي والفيدراليين والقوات الخاصة.

- هل تعتقد أنهم حقًّا سيفعلون شيئًا من أجل مواطنة واحدة وابنها؟

لم يرد، فقلت: أحيانًا من الأفضل لرجل واحد أن يقوم بالمهمة كلها، الآن قل لي، طلبي الآخر.. ما هو عدد الوافدين طبقًا للأمن القومي، عدد أفراد فريق ليلى هوث؟

- تسعة عشر رجلًا.

الفصل الثامن والستون

وصل مسئول خدمة الغرف بوجبة الإفطار والقهوة، شربت زجاجة مياه معدنية باهظة الثمن من ثلاجة الغرفة ثم تناولت الإفطار وشربت القهوة بينما سانسوم وسبرينجفيلد ينظران إليّ بوجوم وصمت.

قلت بعدما انتهيت: هناك أربعة قد سافروا خارج البلاد بالفعل من التسعة عشر، واثنان منهم مصابان بضلوع وفك مكسور، ربما ارتجاج كذلك..

- كسور في الضلوع والفك؟ ارتجاج؟ كيف؟

- لقد كانوا يبحثون عني ووجدوني..

عقد سبرينجفيلد حاجبيه فنظرت إليه متسائلًا عما يدور بخلده.

- هناك بلاغ في مستشفى طوارئ بوجود رجلين في غرفة طوارئ يطابقان تلك المواصفات.

- أعتقد أن هوث قد تخلت عنهم بعد أدائهم السيئ ليكونوا عبرة لباقي الفريق.

تحسست المسدس جواري وغمغمت: ثلاثة عشر متبقون، بالإضافة لآل هوث.. خمسة عشر.

فقال سبرينجفيلد: مهمة انتحارية.

- كلنا سنموت، المسألة هي كيف ومتى ليس أكثر..

- اسمع يا ريتشر نحن لا نستطيع مساعدتك حقًّا.. لو نجحت خطتك ستواجه تهم خمس عشرة جريمة قتل في نيويورك.. لا يمكننا أن نكون جزءًا من هذا.

- بسبب الحياة السياسية؟

- بسبب العديد من الأشياء.

- أنت مخبول.

- هذا ما سيعتقدونه، هل تعلم ما أعتقده يا سانسوم، عليك ترك الحياة السياسية والعمل كسائق حافلة مدارس، تلك مهمة لها معنى أهم بكثير من الترشيح السياسي.

- لقد أخبرتك بكل شيء، كلانا رجلا جيش سابقين، لماذا لا يكون هناك ثقة متبادلة؟ من المفترض أننا إخوة وفقًا للوائح الجيش.

- لكننا لسنا إخوة، أنا كنت أكدح في عملي بينما أنت تسافر للبلدان المختلفة وتعقد صفقات مشبوهة مع جزارين.

- أنا أعلم بشأن شظايا القنبلة التي أصابتك في جدار معدتك إبان خدمتك العسكرية يا ريتشر.

- حسنًا.

- أنت تعلم أن الحرب قد انتهت ولم يكن آل هوث هم المسئولين عن تلك القنبلة.

- هل أنت معالجي النفسي الآن؟

- أنت مفعم بالغضب والرغبة في الانتقام أضف لذلك تأنيب ضميرك لما حدث لسوزان.

- حسنًا، أنت قلق بشأني الآن مثل سبرينجفيلد.

- أنا قلق بشأني أنا وأريد استعادة صورتي.

- سوف تستعيدها لا تقلق..

- أعطني تلميحًا على الأقل عن مكانها.

- أنت تمتلك نفس قدر المعلومات التي أمتلكها، بإمكانك التوصل لنفس الاستنتاج.

- أنت كنت شرطيًا، مهاراتك مختلفة عني.

- إذن ستصل لنفس الاستنتاج بعد وقت أطول.

- ما الذي تقصده؟

- فكر كرجل عادي، ليس كسياسي أو جندي، ربما أنت لا تعرف ما أعرفه لأنك تنظر للأمر من داخله، بينما أراه أنا من الخارج كواحد من الجمهور..

- علامَ ترمي بالضبط؟

- أنت رجل بارع للغاية يا سانسوم ولا بد أنك سياسي جيد، لكن هل بإمكانك أن تقول لي كم عدد المرشحين السياسيين وأعضاء مجلس الشيوخ عبر التاريخ؟ هل هم مهمون حقًّا؟ الإجابة هي لا.. أنت تعتقد أنك مهم وأن الأمر كله يدور حولك، وكم من صفقة فشلت أو نجحت كذلك.. هل تتخيل

منظمة جويرفيتش وهي تولول ذعرًا خوفًا من نجاح جون سانسوم في الانتخابات؟

- كلا، لا أعتقد هذا.

قالها بكبرياء جريحة فأردفت: إذن لما يريدون الصورة؟

- انتصارات صغيرة أفضل من لا شيء.

- كل هذا التخطيط والجهد من أجل انتصارات صغيرة، لا أعتقد.

- سيحرجون الولايات المتحدة الأمريكية دوليًا؟

- ليس بالدرجة التي تتوقعها، العالم ممتلئ بالفضائح السياسية.

- سيضرون بسمعة ريجان.

- ومن الذي سيهتم بسمعة ريجان؟ أغلب الأمريكيين يعتقدون أن ريجان اسم مطار في واشنطن ليس أكثر.

- أعتقد أنك تقلل من أهمية الأمر.

- وأنا أعتقد أنك تبالغ في تقدير أهميته.. لأنك مندمج أكثر من اللازم في التفاصيل..

- لكن وزارة الدفاع مهتمة للغاية بالمسألة؛ ولذا أرسل الفيدراليون أفضل فرقهم.

- أنت تعتقد أن هؤلاء هم أفضل فريق للفيدراليين.

- ألا تعتقد أنت ذلك؟

- أتمنى ألا تكون تلك هي الحقيقة وإلا علينا جميعًا الرحيل لكندا..

- حسنًا سيكون الأمر محرجًا وسيضر بخططنا الإستراتيجية الحالية لكنه لن يكون كارثيًا ولن تكون نهاية العالم بالتأكيد.

- إذن ما الذي يجعل منظمة جويفريتش مهتمة بهذا الأمر لتلك الدرجة؟ لماذا أرسلوا ليلى هوث بنفسها للحصول على الصور؟ ولماذا لم يجعلوا سوزان مارك تنسخ الصور فحسب؟ لماذا أمروها بمسح الملفات الأصلية؟ هذا يزيد من خطورة ضياع الصور للأبد في حالة حدوث مكروه لسوزان..

- همممم!

- هذا يعني أنهم يريدون الصور لكنهم لا يريدون للحكومة أن تحصل عليها.

- أنا لا أفهم ما تحاول قوله.

- فكر جيدًا فيما التقطته الكاميرا حينذاك، لأن أيًا كان الذي يوجد في الصور، فهم لا يريدون له أن يخرج للعلانية.. أنت فهمت الأمر بالمقلوب، تلك المنظمة وليلى لا يريدون للصور أن تخرج لمرأى العالم، هم يريدون إخفاءها، لأن ما يوجد في تلك الصورة قادر على إحداث ضرر أشد لهم من الضرر الذي سيلحق بك وبالحكومة.

الفصل التاسع والستون

انغمس كل من سانسوم وسبرينجفيلد في صمت مطبق وهما يسافران بذاكرتهما للوادي في أفغانستان، مارس عام ١٩٨٣، والسؤال يطفو داخل أذهانهما، ما هو الشيء الآخر الذي التقطته الصورة؟

في النهاية وباستسلام قال سانسوم: لا أعرف.

وأضاف سبرينجفيلد: ربما الأمر يتعلق بوجود ضباط أمريكيين في الصورة..

- كلا، وجودكم سيعطيهم شرعية وقوة.. لا بد أن هناك شيئًا آخر.

مفكرًا بعمق قال سانسوم: لديهم العديد من القوانين هناك، الكثير من المحرمات والخطوط الحمراء، لا أعلم ما الذي يمكن أن يكون بالصورة قد خرج قانون ما مهم لهم، لم تكن هناك غانيات ولا كحول ومخدرات على الأقل.

- لم يكن هناك زوار آخرون؟

- كلا، نحن فقط وأهل المنطقة.

ثم قال سانسوم فجأة: لو نظريتك الصحة وتلك الصورة قادرة على إضرارهم فعلي تسريبها للعلانية، هذا قرار مصيري وسيدمرني لكني لا أريد بيع روحي للشيطان أكثر من هذا..

- أوافقك.

- أين هي إذن؟ لا تريد أن تقول لي؟ حسنًا سأحاول أن أصل لنفس استنتاجك بشأن مكانها.

ثم تبادل نظرة طويلة مع سبرينجفيلد قبل أن ينظر إلي مردفًا: تبًا للحياة السياسية، ربما سوف أبتاع هذا البيت بالشاطئ الخاص بعد كل شيء لو لم يزجوا بي بالسجن، اذهب وافعل ما يتوجب عليك فعله يا ريتشر.. اقض على ليلى هوث ومن معها..

***

لم أذهب في لحظتها، أنا غير مستعد وبدون خطة، بحاجة لمعدات وأسلحة وزي أكثر مرونة من ملابسي الحالية، ومن الأفضل أن يكون معي سيارة مؤجرة..

- أنتم لا تستطيعون تقديم العون لي بشكل رسمي أو مباشر.

- تلك حقيقة.

قلت لسبرينجفيلد: سوف أذهب للمتجر القريب وأبتاع ملابس سوداء وساعة وثقيلة.

- لا يهمني هذا، لا أريد معرفة خططك، سنكون قد رحلنا عند عودتك للغرفة.

ذهبت للمتجر وابتعت ملابسي، كنت أجربها في غرفة القياس عندما سمعت صوت والدتي الراحلة وهي تهمس لي: بسعر كهذا عليك الاعتناء بتلك الملابس جيدًا، ابتسمت لنفسي في المرآة، وعندما عدت للغرفة كان كل من سانسوم

وسبرينجفيلد قد رحلا، وفي الآن ذاته ليلى هوث تتصل بي..

الفصل السبعون

- مرحبًا يا ريتشر.

- مرحبًا يا ليلى.

- لا زلت أنتظر قدوم الشاحنة التي ستنهي حياتي.

- لا تتعجلي قدرك.

- أنت واثق من نفسك للغاية.

- أنا أعلم مكانك.

- رائع هذا يبسط من الأمور.

- وأعلم مكان خزانة المعلومات.

- رائع.. سنبقيك حيًا حتى تخبرنا وبعدها سأجعلك تبتلع أحشاءك.

- أنت فتاة جميلة للغاية يا ليلى، كان عليك اختيار مهنة أخرى والاستمتاع بحياتك، لكنك اخترت الموت، وبالمناسبة سوف أجعل العالم يرى كيف سيحدث هذا.

- ونحن أعددنا غرفة مريحة ومقعدًا وكاميرا لتصوير لحظاتك الأخيرة وأنت تحتضر كالشاة..

- أنت تتحدثين كثيرًا يا ليلى.

لم تجبني وأنهت المكالمة، فجلست على فراش مرتديًا الملابس الجديدة في انتظار قدوم سانسوم أو سبرينجفيلد،

لكن من ظهر على عتبة بابي في النهاية كان ثيريسا لي..

طرقت الباب قبل حلول الثامنة مساء، كانت ترتدي ما رأيتها به في محطة الأنفاق عندما أتت لاستقبالي، وقد عقصت شعرها للخلف، دخلت الغرفة وأغلقت الباب، وضعت حقيبة في يدها أرضًا ثم سألتني: هل أنت بخير؟

- هل أنت؟

أومأت برأسها.

- لقد عدت لوظيفتي وسقطت كل التهم كأن شيئًا لم يحدث.

- ما الذي يوجد داخل الحقيبة؟

- لا أعلم، قام رجل بإيصالها لي في قسم الشرطة وأخبرني أنها من أجلك.

- سبرينجفيلد؟

- كلا، رجل آخر لم أره من قبل، يدعى براونينج.. وقال لي إني لو كنت مهتمة بمنع الجرائم فلا يجب علي أن أسلمك تلك الحقيبة.

- لكنك أحضرتها رغم هذا..

هزت كتفيها بصمت ولم تعلق.

ثم جلست برفق فوق حافة الفراش وأضافت: لقد داهمنا المباني الثلاثة بشارع ٥٨.

- سبرينجفيلد أخبرك بشأنهم.

- لقد قال لي إنه يدعى براوننج وليس سبرينجفيلد، على أي حال لم نجد ليلى هوث هناك.

- أعرف هذا.

- لقد كانوا هناك، آثارهم تقول ذلك، لكنهم رحلوا في عجالة.

- أعرف ذلك أيضًا.

- لأن ليونيد وزميله في غرفة الطوارئ وهما نقلا مكانهما خشية من الوشاية.

- ريتشر.

- نعم.

- أنت لن تستطيع قتلهم جميعًا.

نظر كلانا دون اتفاق مسبق بعدها للحقيبة، ثم تساءلت تيريسا: هل تعرف مكانهم الجديد؟

- سأحاول، هل عاد جايكوب مارك آمنًا لجيرسي؟

- أنت لا تريده أن يأتي معك.

- آه هه، وأنت كذلك.

- لكني أحضرت لك الحقيبة.

- ما الذي يفعله الفيدراليون والأمن القومي الآن؟

- يبحثون باستماتة عن ليلى وعن خزانة المعلومات، لكن

الأولوية للثانية لو وجدوها سينسون أمر ليلى..

- أنا أعرف مكان الخزانة، بين الشارع الثلاثين وميدان الحي التاسع، قرابة شارع ٤٥.

- ها.

- سوف تفهمين مقصدي فيما بعد.

- هل تعرف حقًّا مكانها؟

- نعم.

- إذن اذهب وأحضرها واترك أمر ليلى هوث للحكومة.

- هل تذهبين لصالة الألعاب الرياضية يا ثيريسا؟

- أحيانًا، ليس كثيرًا.. لماذا؟

- أحاول تقدير قوتك البدنية.

- أنا لن أحاول منعك بالقوة، متى تنتوي الرحيل؟

- الآن، سوف يستغرق مني الأمر ساعتين لإيجادهم وساعتين للتخطيط، سأهاجمهم وقت الغسق، ربما الرابعة فجرًا.. هذا هو توقيتي المفضل للهجوم.. لقد تعلمنا هذا من الروس، الهجوم فجرًا هو خير وقت للمباغتة.

- أنت تمزح.

- كلا.

- لن تستطيع إيجادهم في ساعتين فحسب.

- أعتقد أني سوف أفعل هذا.

- أنت عقدت صفقة مع سانسوم أليس كذلك؟ يتركونني وجايكوب ودوشيرتي مقابل الخزانة.

- آه هه، كان من المفترض أن تسقط التهم عني كذلك.

- الشرطة نسيت أمرك على خلاف الفيدراليين، لكني ممتنة لك لما فعلته.

- على الرحب والسعة.

- هل لديك فكرة عن مخطط هوث للخروج من البلد؟

- لا أعتقد أن لديهم مخططًا بعد، هم ينتوون الاختفاء هنا لفترة، الأمر كله بالنسبة إليهم يتعلق بإنهاء المهمة.

انحنت تيريسا واضعة وجهها بين راحيتيها وتنهدت مفكرة.

- من الذي يعرف أنك هنا؟

- دوشيرتي.

- ومتى يتوقع عودتك؟

- في الصباح.

- ما الذي تريد فعله الآن؟

قالتها وهي تلتفت ناحيتي.

- تريدين إجابة صادقة؟

- أرجوك.

- أريد احتضانك.

- هل تقول هذا لكل الشرطيات التي تقابلهن؟

- ليس كلهم.

- الخطر يجعلك رومانسيًّا.

- النساء تجعلني رومانسيًّا.

- كل النساء؟

- كلا ليس كل النساء.

صمتت ثيريسا لفترة ثم قالت: لن تكون تلك فكرة جيدة..

- حسنًا.

- هل سوف تستلم بتلك السهولة؟

قالتها رافعة حاجبها، ثم أردفت: حسنًا لقد غيرت رأيي، إنها فكرة جيدة، الخطر القادم يسلط الضوء على أهمية التقارب والدفء الإنساني.

ثم اقتربت مني وهي تردف: أريد الجلوس جوارك لكي تعرف أنك لست وحيدًا قبيل مواجهة هذا الخطر.

- يمكنك فعل هذا.

حدقت ثيريسا بالندبة الموجودة فوق جدار معدتي مثلما فعلت سوزان مارك، ثم نظرت إليّ وهمست مبتسمة: أنا فتاة تقليدية، عليك أن تقبلني الآن.

احضتنتها برفق وقبلتها، بعدها ارتمت ملابسها جوار ملابسي على الأرض، تحممنا بعدها وقبلتني هي مرة أخرى، ثم أخبرتني أن أتصل بها لو احتجت إلى شيء، راقبتها وهي ترحل ثم نظرت للحقيبة التي تنتظرني بهدوء فوق أرض الغرفة.

الفصل الواحد والسبعون

جلست على مقعد وحملت الحقيبة، لقد فهم سبرينجفيلد التلميح وأرسل لي ما أحتاجه، صور من جوازات سفرهم، تسعة عشر رجلًا وامرأتان، مواطنون من تركمانستان، دخلوا الولايات من طاجيكستان، صورة لليلى وسفيتلانا، صور للرجال، ليونيد والآخر، الأربعة الذين سافروا والثلاثة عشر المتبقون.

وضعت الصور جانبًا وتفقدت باقي محتويات الحقيبة آملا وطامعًا في الأسلحة، لذا قلت لسبرينجفيلد إني سأبتاع ملابس واسعة، وقد فهم الرسالة جيدًا، وجدت مسدس غلوك مزودًا بكاتم للصوت، وهيكلير ذو ساقية دوارة، طويل الفوهة مزودًا برصاصات ماجنم، وقد استقر السلاحان فوق بندقية آلية من طراز م.ب ٥، سلاح أكثر من رائع وفعّال، شعرت بابتسامة سبرينجفيلد كأنه يقول: لقد فهمت مقصدك يا صاح..

كان قد وفر لي العديد من الذخيرة كذلك، مددت يدي داخل الحقيبة بحثًا عن المزيد من الأسلحة والمفاجآت السارة فلم أجد سوى مفاجأة من نوعي المفضل، سكين حرب طويلة ودامية..

وقفت أمام المرآة مرتديًا ملابسي السوداء والواسعة الجديدة، وضعت الأسلحة في حزامي والسكين في جورب قدمي ثم حملت البندقية على ظهري وارتديت من فوقها

السترة، وبعدها ارتديت قفازًا جلديًا أسود..

جواري وقفت سوزان مارك، تذكرتها بدون رأس ودماؤها تنزف، فنظرت إليها طويلًا، ولابنها الذي لقي مصيرًا أسوأ منها هززت لهم رأسي وخرجت من الغرفة، ليبتلعني ظلام المدينة بالخارج..

الفصل الثاني والسبعون

ها أنا ذا مجددًا داخل عربة قطار أنفاق في الثانية صباحًا وهناك ثلاثة ركاب سواي في العربة، سرت كرجل آلي مدجج بالسلاح وجلست جوار النافذة حيث الدهاليز المظلمة للأنفاق والفئران، خطواتي المتثاقلة وأنا محمل بالسلاح كانت العلامة الأولى، تلتها العلامة الثانية وهي التصبب عرقًا، التوتر والأدرينالين يتصارعان بداخلي، العلامة الثالثة كانت طريقة تنفسي، فالمرء يدرك أنه يتنفس بشكل خاطئ عندما ينتبه لطريقة تنفسه، العلامة الرابعة كانت وجوم وجهي وتحديقي بالفراغ، لم أكن أتمتم بعبارات خافتة ولم أحمل حقيبة واضعًا يدي بداخلها، بدلًا من ذلك وضعت يدي داخل جيوبي، شعرت بأني نسخة أخرى من سوزان مارك، متجه لمصيري بخطا مرتجفة، لكني لم أكن أرتجف من الخوف بل من الغضب، تذكرت مقولة بريطانية عسكرية قديمة عن كون الهروب خير وسيلة للهجوم وتمنيت ألا تمتثل ليلى هوث لتلك المقولة، أي خطة للهروب تحمل نواة تدميرها بداخلها، تلك مسألة معروفة لأي مقاتل، فكرة الهروب نفسها تزيد من احتمالية العدو في الإمساك بك، ليلى تعرف هذا، رغم صغر سنها لكني أراهن أنها قد قتلت العشرات، ربما المئات.. فتاة كتلك تحيا من أجل القتل، وبالنسبة إليها، فإن غدًا لن يأتي أبدًا، كنت أعلم جيدًا أن لحظة الحقيقة في خضم المعركة هي ذات اللحظة في مباريات الملاكمة، عندما تدرك أنت والخصم من منكم سوف يسقط، وعندما تحين اللحظة الحاسمة فلن

تجدي خطط العالم نفعًا، إطلاق الرصاص والاشتباك بالأيدي والقتل لهم في النهاية عمليات عشوائية، خرجت من القطار بعدما استعدت الشعور بكل شيء شعرت به سوزان في لحظاتها الأخيرة، أردت تعزيز وتغذية طاقة الغضب بداخلي، تلك حقيقة أخرى من حقائق المعارك، الغضب قوة، كل الجنود يعرفون هذا.

سرت في شارع ٣٤ بجوار مسرح برودواي، الشوارع كلها خالية ومظلمة، ها أنا يا مانهاتن، جاك ريتشر، مخبول آخر يسعى للعنف والانتقام دون مأوى، دون بيت ولا حبيبة، لا أهل ولا عائلة ولا هدف في الحياة بتلك اللحظة سوى إنهاء حياة ليلى هوث ومن معها جميعًا، لماذا أنا متأكد من تخميني بشأن مكانهم بعدما فروا من المبنى المهجور؟ لأنه لا توجد خيارات أمامهم سوى المبيت بالشارع أو الذهاب لنزل رخيص يقبل النزلاء بمال إضافي متغاضيًا عن أوراق الهوية الرسمية، سيحتاجون لخمس غرف لتوزيع عددهم وأنا أمتلك خبرة لا بأس بالفنادق من تلك النوعية، ومن حسن الحظ أنها محدودة العدد بمانهاتن، قضيت ساعة ونصفًا أبحث في الفنادق وأسأل عن فريق أجنبي غنائي قام باستئجار خمس غرف متظاهرًا بلكنة ثقيلة وحماقة تقول للموظف إني عضو متأخر بالفريق، ثم وصلت لميدان الحي السادس، ودلفت للنزل الذي أقمت به من قبل، كانت الساعة الثالثة والربع صباحًا..

شعرت أني أقترب من الهدف..

الفصل الثالث والسبعون

نظر لي نفس الموظف الذي استقبلني من قبل بوجهه اللامبالي ونظراته التي تقول إنه رأى كل شيء في الحياة ولم يعد هناك أي شيء قادر على إدهاشه، حييته برأسي ولاحظت انبعاج البندقية يظهر من السترة، لمحته في انعكاس المرآة، لكني لا أعتقد أنه لاحظه.

قلت له: "هل تتذكرني؟"

كان يلوك قطعة من اللادن دون أن يجيبني في البداية ثم هز كتفه في ملل.

- أنا لست في حاجة لغرفة.

- إذن ما الذي تريده؟

- أريد معرفة الخمس الغرف التي أعطيتها للسيدة العجوز وابنتها الجميلة ومجموعة الرجال معهم قرابة منتصف الليل.

قلتها له وأنا أدس بيده رزمة بدينة من النقود.

- عمن تتحدث؟

- أنت تعرف.

- لم يأتِ أحد هنا في منتصف الليل.

- فتاة جميلة، عينان زرقاوان، لا يمكنك نسيانها بسهولة.

- لم يأتِ أحد.

- أنت متأكد؟

أعاد لي رزمة النقود، وقال بثبات: لن أمانع أخذ نقودك، في الواقع سوف أحب هذا، لكني لم أرَهم، لا يوجد نزلاء هنا بتلك المواصفات.

أخذت النقود ورحلت.. وقد كففت عن الشعور بالتفاؤل والاقتراب من مكانهم، كنت أفضل الذهاب للأنفاق تجنبًا للعملاء الفيدراليين الذين لا يزالون يبحثون عني لكني أردت للهاتف أن يحصل على إشارة، قضيت نصف ساعة أسير ببطء عندما اهتز الهاتف معلنًا عن مكالمة قادمة، جلست على منصة انتظار في قلب الليل وأجبت:

- مرحبًا يا ليلى.

- مرحبًا يا ريتشر.

- أنا لا أستطيع إيجادك.

- هذا واضح.

- لذا سأقدم لك عرضًا.

- همم تريد إجراء صفقة أخيرًا؟

- نعم.

- حسنًا، ما هو عرضك؟

- المال، الكثير منه، كل ما تملكينه من أموال في الحقيقة مقابل خزانة المعلومات.

- أنت تعلم مكانها لكنها ليست بحوزتك أليس كذلك؟ تلك الخزانة التي أرتني إياها في الفندق كانت زائفة.

- أنت ذكية يا ليلى.

- سأعطيك خمسين ألف دولار.

- مائة ألف.

- لا أمتلك مائة ألف دولار.

- أنت محاصرة هنا يا ليلى، لا يمكنك الهرب بواسطة قطار أو باخرة أو طائرة، الكل يبحث عنك، سوف تموتين هنا، هل تريدين الموت دون النجاح في مهمتك؟

- سبعون ألف دولار.

- مائة ألف.

- حسنًا لكني سأعطيك نصف المبلغ الليلة.

- أنا لا أثق بك.

- لا يوجد خيار لديك.

- المبلغ كله الليلة لن أتنازل عن بنس واحد.

- ستون ألفًا.

- موافق.

- أين أنت؟

- سأقابلك في ميدان الاتحاد خلال أربعين دقيقة.

- أين يقع هذا الميدان؟

- قرب برودواي.

- سوف ألقاك هناك.

***

خضت حديثًا في ذهني مع سوزان مارك وأنا أسير عبر ميدان ماديسون، حتى رفعت عجوز متشردة رأسها بتعجب وهي تنظر إليّ محدثًا نفسي كالمخابيل، فهززت رأسي لها وواصلت السير، اعتذرت لسوزان داخل عقلي وحاولت مواساتها بشأن فقدانها لابنها، لم يبدُ أنها تهتم كثيرًا بما أقول لأنها قد فقدت رأسها ولا يمكن للمرء سماعك بسهولة بدون أذنين، في النهاية أخرجت هاتف ليونيد من جيبي واتصلت بثيريسا لي التي أجابتني بعد خمس محاولات للرنين..

- أنا ريتشر، لقد قلت لي أن أتصل بك لو احتجت شيئًا.

- بالتأكيد، قل لي ما الذي تحتاجه؟

- أخبري فرق محاربة الإرهاب أني سأكون في ميدان الاتحاد خلال ثلاثين أو أربعين دقيقة، وهناك سيهاجمني عدد من رجال ليلى هوث، ما أحتاجه منك هو أن يتركني رجال مكافحة الإرهاب وشأني، بإمكانهم فعل ما يريدون برجال ليلى هوث..

- انتظر لحظة، هل توصلت لمكانها؟

- نعم، هي في نزل بميدان ماديسون، وأنا أقمت بهذا النزل

من قبل، لقد أنكر الموظف كل شيء ورفض المال الذي عرضته عليه ثم اتصل بها وبدورها قامت هي بالاتصال بي بعد رحيلي من هذا النزل بدقائق..

- همم إذن أنت تتظاهر أمامها بأنك تجهل مكانها وتسعى لتقليل عدد فريقها باستخدام فرق مكافحة الإرهاب، يبدو لي وكأنكم تلعبون الشطرنج.

- كل منا يقوم بخداع الآخر، هي أخبرتني أنها ستلتزم بالصفقة وتأتي وحدها، وأنا أكدت لها أني سأفعل المثل، لنقل إن عنصر الصدق لم يكن أبدًا من ضمن مواصفات علاقتي بهوث..

بعد خمس وثلاثين دقيقة وصلت لميدان الاتحاد، جلست أراقب الفئران وهي تخرج من مواسير الصرف، متنظرًا وصول العدو..

الفصل الرابع والسبعون

بعد وصولي بسبع دقائق بدأ رجال فرق مكافحة الإرهاب في الوصول، كانوا متخفين بالطبع، بدأت أتلفت حولي محاولًا التعرف عليهم في قلب الليل، أولهم كان شابًا أسمر يقود سيارة أجرة، ومعه راكب في الخلف، فكرة جيدة للتخفي، لكن عنقه الغليظ الممتلئ بالعضلات ومنكبيه العريضين فضحوا أمره بالنسبة لي، تمنيت ألا يفكر رجال هوث مثلي، الراكب الخلفي كان ناحل شعر الرأس وأبيض البشرة، يرتدي قميصًا أسود، جسد رياضي ونحيف، يبدو كبطل ملاكمة، شخص يتريض يوميًا ويقضي ساعة أمام حقيبة الملاكمة، وفي الناحية الأخرى وقف مجموعة من الرجال بدوا كأنهم خارجون من صالة ألعاب رياضية للألعاب القتالية، يحملون حقائب رياضية ويرتدون ملابس التمرين، كانوا سبعة، أضف إليهم سائق الأجرة والراكب والناتج تسعة من رجال مكافحة الإرهاب المتخفين، لمحت بعدها عاشقين متعانقين، لكنهما ليسا روميو وجوليت التقليديين، كلاهما صلب الجسد وممشوق القوام، واصلت العد حتى وصلت لرقم ستة عشر، مما بعث إلي تفاؤلًا شديدًا سرعان ما تلاشي بعد خمس دقائق لأن الفيدراليين قد وصلوا كذلك..

غمغمت: تبًا.

وصلوا في سيارتين سوداوين تحملان أرقامًا حكومية، بزجاج معتم، وظلوا في سياراتهم، نظرت لتمثال غاندي لكنه ظل صامتًا ولم يسدِ إليّ أي نصيحة، أخرجت هاتفي واتصلت

بثيريسا..

- الفيدراليون هنا، هلا فسرت لي كيف حدث هذا؟

- تبًّا.

- هذا ما قلته بالضبط.

- إما أنهم يتنصتون على اللاسلكي الخاص بالشرطة أو أن أحد رجالنا ذو طموح مهني قد أوشى بك.

- تبًّا.

- عليك الرحيل فورًا يا ريتشر، سيفتكون بك.

خرج ثمانية عملاء من السيارتين ووقفوا في الظلال، مرت دقيقة، اثنتان، ثلاث..

رأيت أحدًا ينظر بحرص لنقطة ما خلفي، التفتُّ ببطء ورأيت فريقًا من سبعة رجال يقتربون من ركن مظلم بعيد..

فريق ليلى هوث قد وصل.. والأخيرة خاطرت بإرسال نصف فريقها من أجلي.. جميعهم يرتدون مثلي، نفس اللون ومرونة الثياب التي تتيح لهم حرية الحركة، مدججين بالسلاح، يتحركون ببطء وثقة، ثم توقفوا على بُعد ثلاثين مترًا مني وهم ينظرون إليّ..

ظللت جالسًا مكاني..

نظريًّا فإن الجزء القادم هو الأكثر سهولة، يقترب مني فريق هوث فيقوم رجال مكافحة الإرهاب بمداهمتهم، وأختفي أنا

وسط الظلال متجهًا للنزل حيث تنتظر ليلى، لكن كل شيء قد تعقد بشكل مريع بعد وصول الفيدراليين؛ لأنهم لا يريدون سوى هدف واحد محدد وهو أنا.. الفيدراليون لا يكترثون لفريق ليلى، هم يريدون الرجل الذي يعرف مكان خزانة المعلومات..

افترق فريق هوث بتكتيك مسبق، ظل ثلاثة منهم مكانهم وتحرك أربعة منقسمين لفريق من اثنين وأحاطوا بي..

وقفت وبدأ الاثنان من كل جهة في الاقتراب مني، وهنا تحرك الثلاثة الآخرون بشكل هجومي ومباشر كفريق كرة قدم..

في الآن ذاته تحرك الفيدراليون، ومن على بعد بدأ رجال مكافحة الإرهاب في التأهب للانقضاض..

الموقف يغلي كحمم بركانية بفوهة بركان مخادع..

هل تذكرون كل ما قلته بشأن الهروب؟ لقد كنت مخطئًا، أحيانًا هو أفضل الحلول..

ركضت بكل سرعة دون أن أنظر للخلف وقفزت من فوق منصة انتظار ثم واصلت الجري صوب مدخل محطة الأنفاق، أحدهم يصيح، يستل مسدسه، كلهم يركضون خلفي، رائع.. لقد فشلت الخطة بشكل ذريع، يقتربون مني، من هم بالضبط؟ الفيدراليون أم رجال هوث أم مكافحة الإرهاب.. لا أعلم على وجه الدقة لكنهم يقتربون بشدة.. لو لم أصل لمدخل محطة الأنفاق فلسوف ينتهي كل شيء، صيحة

تهديد أخرى، شعرت أن بوابة الأنفاق تبتعد عني كلما اقتربت منها، سوزان مارك وبيتر مولينا يشجعاني وأنا أجري كي أصل لهدفي، أحد الرجال يمد يده ويلامس كتفي، قفزت للأمام مرة أخرى وزدت من سرعتي لأقصى حد، عدوت فوق السلالم ومررت جوار رجل عجوز يمسح الأرض بمنشفة، أقدامهم جميعًا تدوي من خلفي، قفزت مرة أخرى من فوق القضبان بخبرة واحترافية تلك المرة وتفاديت الكهرباء ثم تسلقت الجهة الأخرى ووقفت لاهثًا ثم التفت للخلف لثوانٍ قبل أن أواصل العدو لأني أعلم أن أحدهم قد يتهور بإطلاق رصاصة رغم أنهم جميعًا يريدونني حيًا للوصول للخزانة..

ما رأيته كان فريق هوث المكون من الرجال السبعة وهم يقفزون من القضبان بدورهم ويقفون خلفي بوجه منتشٍ، ليس فقط لأنهم قد تمكنوا مني بل لأنهم قبلوا التحدي ونجحوا فيه بالقفز من فوق القضبان دون أن تصعقهم الكهرباء، كل الرجال مهما تقدم عمرهم حتى القتلة يحتفظون بالجزء الصبياني الراغب في التحدي، ثم سرعان ما اعتلى الشك وجوههم، وقد شعروا أنهم ينقادون لفخ ما، بإمكانك قراءة الشك كلغة عالمية على أي وجه دون حاجة لكلام، ومن خلفهم وصل رجال مكافحة الإرهاب الذين قفزوا من فوق القضبان كذلك مما أشعرني أن الأمر شديد السهولة وأنني بالغت في تقدير خطورته، أعقب ذلك وصول الفيدراليين وهم شاهرون أسلحتهم.. بدا المشهد كأنه جزء من حرب عصابات، لم يكن هناك أحد بخلافهم عدا رجل نائم فوق منضدة انتظار، ربما أنه سكير أو مدمن يبحث عن راحة ليلية،

لن يجدها الآن بالتأكيد.. لاحظت أن عدد الفيدراليين ناقص، لقد وصل منهم خمسة فحسب فأين الثلاثة الآخرون؟

هنا استل رجال مكافحة الإرهاب أسلحتهم في نفس اللحظة التي فعل بها المثل فريق هوث، صوّب الجميع أسلحتهم نحو الآخر وهم يتبادلون صيحات، رجال هوث بلغة أجنبية ثقيلة لم أفهمها، ورجال مكافحة الإرهاب يأمرونهم بالانبطاح أرضًا وإلقاء أسلحتهم، رفع الرجل النائم رأسه بذهول بعدما استيقظ ونظر لما يحدث، في حين تراجعت أنا للخلف، سوف ينسون أمري لثوانٍ تكفيني بالاختفاء، أنا الوحيد الذي لا يشكل مصدر خطر حقيقي لأني لم أشهر سلاحًا، تراجعت بظهري للممر خلفي وآخر ما رأيته قبل أن أختفي عن الأنظار هو فريق هوث وهم يتبادلون نظرات مع بعضهم البعض قبل أن يلقوا بأسلحتهم ويرفعوا أيديهم فوق رءوسهم، استدرت للخلف وصولًا لبوابة الخروج الثانية من المحطة، عندما وجدت أمامي الرجال الثلاثة الآخرين، العملاء الفيدراليين الذين خمنوا أني سأحاول الهرب من تلك البوابة ولم يشاركوا بالمطاردة بل التفوا للجهة الأخرى وهم ينتظرونني، وعلى وجوههم نظرة "كش ملك"..

لقد انتهت لعبة الأحجية بخسارة ريتشر بعد كل شيء، كذا سيقول أحدهم بسخرية وانتصار غدًا وهو يحكي القصة المثيرة لزملائه في المكتب.. وسيضحك الجميع وهم يرشفون القهوة ويتحدثون عن الأحمق الذي تمكن من خداع رجال مكافحة الإرهاب ولكن ليس الفيدراليين الأكفاء..

سيتم تداول تلك القصة كثيرًا بتباهٍ فيدرالي كبير في الفترة القادمة..

استل أقرب شخص إليّ مسدسه وقال: لا تتحرك حركة واحدة..

الفصل الخامس والسبعون

كرر العميل الفيدرالي جملته: لا تتحرك حركة واحدة..

كنت أحسب موعد وصول القطار الليلي داخل عقلي، هناك مدة تتراوح بين عشر وعشرين دقيقة بين كل قطار وآخر، وقد مر على وجودي بالمحطة أربع دقائق، ظل الممر صامتًا ومظلمًا ولم يأتِ أي قطار..

وعلى خلاف الفريق الفيدرالي السابق فبإمكاني تبين أنهم قد أرسلوا أفضل رجالهم تلك المرة، أضاف العميل: ارفع يديك واجثُ فوق ركبتك خلال العد إلى عشرة وإلا سوف أطلق عليك الرصاص وأرديك قتيلًا..

هذا في الأغلب تهديد ليس أكثر، سيطلق الرصاص في ساقي أو ربما في ركبتي مسببًا لي عرجًا دائمًا كنوع من الانتقام لما فعلته بزملائه، وتلك ستكون حكاية أخرى يتداولونها، كيفما لقنوا الرجل الذي اهان كبرياء المكتب الفيدرالي درسًا لن ينساه أبدًا كلما حاول الوقوف أو السير، لكنهم لن يقتلوني، ليس بأي دوافع إنسانية ولكن لأنهم يريدون الخزانة اللعينة..

ظل النفق مظلمًا وصامتًا.. لم تهتز الأرض ويتناثر الغباء ويسطع ضوء قطار قادم..

اقترب مني العميل وأضاف بصرامة: أين خزانة المعلومات؟

ظللت صامتًا.

- لا تمدح نفسك يا ريتشر، أنت لا تمتلك قدرات استنباطية مبهرة، بإمكاننا تخمين مكانها مثلما فعلت أنت.

- إذن تفضل وافعل ذلك..

رفع مسدسه ولوح به مهددًا، كان مسدسًا من طراز غلوك ١٧، بلاستيكي من النوع الذي لا تكشف أجهزة التفتيش في المطارات، كرر العميل: آخر فرصة.

لمحت الرجل السكير يتسلل مبتعدًا بعيدًا عن كل المعارك وسمعت في الخلفية من على بعد صوت فريق مكافحة الإرهاب وهم يقتادون أسراهم، لا يوجد شهود من حولنا الآن، والنفق لا يزال مظلمًا غير معلن عن جلبة وصول أي قطار..

نظرت للعميل وقلت متظاهرًا بالبراءة: أنا لا أعرف من أنتم.

- عملاء فيدراليون.

- أثبت هذا.

- تبًا لك.

- ربما أنت مع العدو..

زفر الرجل وصوب المسدس لوجهي بيد ووضع الأخرى في جيبه، وأخرج بطاقة هوية، ثم اقترب مني بمقدار خطوتين ليريني إياها، اقتربت خطوتين لأرى جيدًا، وكالة الخدمة السرية، تنهدت وعدت خطوتين للخلف، هؤلاء الرجال يعملون مباشرة في إمرة الرئيس الأمريكي، قلت له بسخرية: وظيفة رائعة.

- هل نتباهى بوظائفنا الآن؟

سبع دقائق مرت، لم يأت القطار بعد..

تغير تعبير وجه العميل، كنت أعرف تلك النظرة، وصوب مسدسه صوب ركبتي ثم قال: ستقضي باقي حياتك في مقعد متحرك..

لا يوجد شهود من حولنا والقطار اللعين لم يأتِ..

حاولت المماطلة..

- لماذا تريدها؟

- ها؟

- الخزانة.

- أمن قومي.

قالها باقتضاب كأن هذا يفسر كل شيء..

- لماذا؟

- لأن تلك المعلومات لو تسربت سوف تفقدنا مصداقيتنا حول العالم.

هم يعرفون إذن، وهذا دليل على أنهم الفريق الأفضل، تلك النوعية الوحيدة من الفرق يصرح لهم بمعرفة سبب قيامهم بالمهمة.

- سوف أعد لثلاثة، لو لم تخبرني سأفجر ركبتك..

- حظ موفق.

- واحد.

اهتزت الأرضية فورًا بعد هذا، وسمعنا جلبة القطار ثم سطع الضوء معلنًا عن قدومه بسرعة هادرة، خمس عشرة عربة تحمل على متنها ركاب المساء، والذين يعتبرون شهودًا.. أعاد العميل مسدسه لغمده وبدأت أبواب العربات في الانفتاح جوارنا، خرج راكبان من القطار، نظرت للعربة والباب المفتوح، وكذلك فعل الفيدراليون، أو رجال الخدمة السرية، سرت باتجاه العربة ففعلوا المثل..

توقفت ففعلوا المثل.. مرت كل الاحتمالات بذهني كالعاصفة، أقفز داخل العربة وكذلك سيفعلون هم، ونقضي الليل كله نرتحل داخل الأنفاق سويًا، أو أظل واقفًا هنا معهم على الرصيف، كل الاحتمالات تتساوى، سرت مسرعًا ودخلت عربة القطار، ودخل ثلاثتهم معي، وقفت لثوانٍ ثم قفزت خارج العربة.. فخرجوا مسرعين وقد بدأت أبواب العربة في الانغلاق.

هنا قفزت للمرة الأخرى، وتعلقت بباب القطار الذي بدأ في التحرك، انغلق الباب على يدي، وأنا احتضنه بقوة بينما جسدي يتأرجح في الهواء، وشعرت بالبندقية تضغط على ظهري، تزايدت سرعة القطار وبدأ الهواء يصفعني على وجهي كسوط حاد، أطلقت صيحة وأنا أحاول فتح الباب، بينما القطار يقترب بسرعة رهيبة صوب الأنفاق، أمامي ثوانٍ معدودة لفتح الباب والدخول وإلا سوف تمزق جدران النفق

جسدي، بدأت في دفع الباب بكل قوتي ورأيت العميل يرفع سلاحه ثم يخفضه، انفتح الباب، الجدار يقترب، قفزت داخل العربة الخالية وسقطت أرضًا لينغلق الباب بقوة خلفي..

ظللت راقدًا فوق الأرض لاهثًا، ثم اعتدلت واقفًا ببطء ونظرت من النافذة، كان القطار قد ابتعد بما فيه الكفاية ولم أرَ أحدًا منهم..

الفصل السادس والسبعون

شعرت كأني في كابوس، صرير عجلات القطار تعوي بعنف، سرعته تتزايد ورأسي يدور معه، الأرض تهتز وترتج من تحتي.. ذراعي يؤلمني بقوة، فردت جسدي وحاولت الاسترخاء ودخل العربة ثلاثة ركاب في المحطة التالية، لا أعتقد أنهم فيدراليون، لن يتسنّى لهم الوقت كي يصلوا بتلك السرعة، لكنهم سوف يصلون لو بقيت بالعربة، لذا خرجت في ميدان هيراليد وبينما تقترب الساعة من الرابعة فجرًا، وقفت في شارع جانبي وقمت بالتلويح بذراعي وفرده عدة مرات ثم تسللت في ليل وعتمة المدينة عائدًا لبرودواي من الأزقة الخلفية ومتجهًا للنزل الذي تقيم به ليلى هوث، آملًا أن يكون حدسي وتخميني صحيحًا..

فور وصولي عند النزل تلفتُّ حولي لأتأكد من أن أحدًا لم يتبعني ثم دلفت للداخل بعدما استللت مسدسي.

***

رفع الرجل خلف مكتب الاستقبال رأسه ونظر ببلادة للمسدس ثم لتعبير وجهي، قلت له: أرقام الغرف.. الآن.

ظل صامتًا لثوانٍ ثم أعطاني الأرقام.. خمس غرف بالطابق الثامن، قمت بتقييد الرجل وتكميم فمه، وأعدت المسدس لغمدي، مبدلًا إياه البندقية، صوبتها للأمام كجندي في معركة وبدأت في صعود الأدراج، وقفت في الطابق الثاني وطلبت المصعد، وبينما أنا بداخله تفقدت البندقية، ثلاثون طلقة،

طراز حديث مطور عن النسخة الألمانية الأصلية، لا حاجة لكاتم للصوت عندما تكون فوهة البندقية الآلية بهذا الحجم، سبرينجفيلد رجل يعرف أسلحته جيدًا، ترجلت من المصعد بالطابق السابع، تذكرت لقائي الأول بليلى هوث، وحكايتها عن الحرب الروسية الأفغانية، صعدت السلالم ببطء وصولًا للطابق الثامن، وأنا أتذكر مقطع فيديو قتل بيتر مولينا وسائق الأجرة..

وقفت قبالة الطابق الثامن وحبست أنفاسي، قبضت على البندقية، ثم انحنيت أرضًا، لامست معدتي الأرض وزحفت حتى أقصى اليسار ثم نظرت من أسفل كفأر متسلل للممر متوقعًا رؤية أربعة أو خمسة رجال يحرسون الغرف، لكن الممر كان شاغرًا، وقفت ببطء وسرت للأمام، الطابق الثامن لم يحمل بجعبته سوى خمس غرف، أخرجت المفاتيح الاحتياطية التي سرقتها من ساعي الغرف وفتحت باب الغرفة الأولى.. اندفعت كالإعصار للداخل رافعًا البندقية ومستعدًّا للقتل، لكن الغرفة كانت خالية، نظرت لباب دورة المياه ثم فتحته ببطء، لا أحد بالداخل..

تراجعت للخلف ووقفت أمام باب الغرفة الثانية، ألصقت أذني بالباب محاولًا التنصت، ثم انحنيت ونظرت من ثقب المفتاح محاولًا استراق النظر، لم أرَ ولم أسمع أحدًا، فتحت الغرفة وفتشتها، لا أحد..

نفس الشيء بالنسبة للغرفة الثالثة والرابعة..

إذن فقد اجتمعوا جميعًا بالغرفة الخامسة، غرفة القتل،

غرفة المجزرة الموشكة على الوقوع..

وقفت أمام بابها، أخذت نفسًا عميقًا، لم أحاول التنصت أو استراق النظر، ركلت الباب بكل قوة مهشمًا إياه واندفعت للداخل بصيحة هادرة، وإصبعي يكاد يعتصر الزناد..

لا أحد بالغرفة، خالية تمامًا..

أطلقت سبة، ليلى هوث لا تزال متفوقة في مباراة الشطرنج..

***

تأوه ساعي الفندق عندما أزلت الكمامة من فوق فمه ونظر لفوهة البندقية قبل أن يرفع عينيه اتجاهي..

- لا تؤذني أرجوك، أنت سألتني عن الغرف التي أقاموا بها ولم تنتظر لتسمع باقي الحكاية..

- متى قاموا بالرحيل؟

- بعد زيارتك الأولى وسؤالك عنهم.

- كم دفعوا لك؟

- ألف دولار.

- همم!

- مقابل الغرفة الواحدة.

هذا جنون، مبلغ كهذا بإمكانهم الذهاب لفندق مثل الفورسيزونز، لكنهم لا يريدون الظهور بأوراق رسمية..

خرجت من النزل بخطا متثاقلة، بعدما أعدت ارتداء البندقية فوق ظهري، أين ذهبوا؟ وكيف رحلوا؟ لن تسع سيارة لنقل خمسة عشر فردًا، هم ثمانية الآن، لكني بحاجة لمعرفة وسيلة تنقلهم..

هل طلبوا سيارات أجرة؟ هذا أمر محتمل، أم أنهم استقلوا قطار الأنفاق..

النزل الوحيد الآخر الذي تنطبق عليه شروط الإقامة غير القانونية يقع غرب الحي الثامن، على بعد خمس عشرة دقيقة كمسافة سير، أنا أرجح احتمالية أنهم استقلوا القطار.. ظللت أستعرض كل الاحتمالات داخل عقلي، ثم ابتسمت..

"أنت تتحدثين كثيرًا يا ليلى".

تذكرت ما كانت تحكيه لي في مقهى الفورسيزونز، وهي تقلب الأمور في حكايتها، لكن في كل كذبة جزء من الحقيقة، هي كانت تتباهى بقوة ودهاء منظمتها الإجرامية بشكل غير مباشر إبان حديثها، تذكرت جيدًا ما قالته..

"أحيانًا يعود المقاتل لمخبأ فر منه كنوع من الخدعة المزدوجة".

كما أني أعلم أن مواردهم محدودة الآن..

رحلت من ميدان هيرالد، استقللت القطار، ثم وصلت للمنطقة ٥٩ بالحي الخامس، وسرت بعدها وصولًا للمبنى المهجور بشارع ٥٨..

الفصل السابع والسبعون

قبع المبنى بالظلام ينتظرني..

إنها الرابعة والنصف فجرًا..

وأنا أقف بمختلف أنواع الأسلحة أمام هذا المبنى الآثم..

لا ضوء في النوافذ.. لا حركة بالداخل..

الشريط الأصفر الخاص بمسرح الجرائم إياه للشرطة لا يزال منصوبًا أمام الباب..

مما يعني أن هناك مدخلًا خلفيًا..

مثل المطاعم والحانات.. هناك دومًا باب خلفي للتخلص من القمامة وفقًا لقوانين الصحة..

لكني لا أعتقد أن قوانين الصحة سوف تنطبق على ما سيحدث داخل هذا المبنى الآن..

درت حول المبنى بمسافة عشرين مترًا حيث كان محاطًا بالشارع الرئيسي، لا يوجد أزقة خلفية أو أشياء كتلك، كنت أحسب الوقت بذهني لتوقع متى ستدرك ليلى أن رجالها لم يتموا المهمة بميدان النقابة..

هدوء الليل السابق للعاصفة هذه، بعد ثلاث دقائق اتصلت بي ليلى هوث.

***

- ما الذي حدث لرجالي يا ريتشر؟

أتاني صوتها هادئًا وبلا عاطفة.

- يمكنك القول إنهم باستضافة الحكومة.

- لا يزال بإمكاننا التفاوض.

- كيف؟ هل ستخاطرين بخسارة باقي فريقك؟

- يمكننا التوصل لاتفاقية ما.

- حسنًا لقد ارتفع سعري لخمسة وسبعين ألفًا.

- وأين أنت الآن؟

- أمام بيتك الجديد أو القديم..

ساد الصمت عبر الهاتف، ورأيت حركة خلف نافذة بالطابق الرابع، حركة خافتة في الظلام وستارة تنزاح إثر يد ما..

أو ربما يكون الأمر من وحي خيالي..

ثم أتاني صوتها وللمرة الأولى لم تبدُ واثقة.

- كلا أنت لست واقفًا أمام بيتي.

لم أعلق.

- أين تريد اللقاء يا ريتشر؟

- وفيم يهم هذا؟ أنت لن تأتي.

- سوف أرسل أحدًا للقائك.

- لن تخاطري بفقدان المزيد من الرجال..

همت بالرد عندما قاطعتها: ميدان "تايمز".. سألقاك هناك..

- حسنًا.

- غدًا في العاشرة صباحًا.

- لماذا؟

- سوف أشعر بالأمان أكثر مع وجود بشر حولي.

- أريد لقاءك الآن.

- غدًا بالعاشرة صباحًا، لا يوجد بدائل لهذا العرض، اقبليه أو ارفضيه.

- انتظر لحظة.

- لماذا؟

- أريد عد أموالي للتأكد من وجود المبلغ كله معي.

أبقيت المكالمة مفتوحة، ووضعت الهاتف في جيبي، ثم أخذت البندقية بين يدي وأعدت الهاتف جوار أذني.. سمعت صوت أنفاسها..

انفتح باب المبنى وخرج منه رجل متشح بالسواد وتلفت حوله، كحارس ليلي.. وضعت الهاتف في جيبي وأحكمت تصويب البندقية اتجاهه وأنا أتراجع لتبتلعني الظلال..

للأسلحة طرق معتادة وخاصة في التحدث مع حامليها، شعرت بالبندقية تهدئ من تدفق الأدرينالين بداخلي وتربت بيدها على ذهني برفق، كنت أعلم أن تلك البندقية حديثة

الصنع لها غايتان، إطلاق رصاص آلي بلا توقف، والعمل كقناصة بطلقة واحدة وهذا تعليل للمنظار المثبت فوقها، كلمة تعليل ذكرتني بأني في محاضرة تدريبية بالمدرسة، تبًّا للتعليل، تلك البندقية تفسر وجود المنظار بكونها قناصة فعالة كخطة بديلة، ظل الحارس الذي يتفقد الأنحاء، هدوء الليل وصموته المعتاد.. عاد الحارس داخل المبنى ومرت سيارة أجرة بالشارع على بُعد خمسين مترًا من الرجل، انحنيت أرضًا، صوبت البندقية، وأطلقت رصاصة اخترقت ظهر الرجل وهو يهم بدخول المبنى فخر صريعًا، لمحت وجه سائق سيارة الأجرة، لقد رأى جندي كوموندا ملثمًا بالسواد يردي حارس مبنى بالرصاص، الأشياء التي يراها المرء في نيويورك بعد غفوة الجميع، حييت رأسي بابتسامة لسائق الأجرة الذي فر مذعورًا، ليته بقي لأشرح له أني أنتقم له ولكل سائقي الأجرة حول العالم، تسللت منبطحًا للبوابة وقمت بسحب جثة الرجل للخارج، هنا توقفت وقد واتتني فكرة سيئة، هل سمعوا الرصاصة؟

رفعت الهاتف لأذني وانتظرت صوتها..

أتاني صوتها الناعم: لقد انتهيت من العد، المبلغ كامل.. لنتقابل الآن.

- كلا.. غدًا.

دخلت المبنى من الباب الذي تركه الحارس مفتوحًا، طارت بعض الخفافيش وجرت الفئران بكل صوب بفزع كأنهم مدركون لحقيقة ما الذي سيحدث، همست لليلى هوث: عليّ

الرحيل الآن، غدًا بالعاشرة صباحًا موعد لقائنا..

أنهيت المكالمة وأعدت الهاتف لجيبي ثم سحبت جثة الرجل للجانب المظلم بهدوء وصمت بعدما أدركت أنها لم تسمع صوت الرصاصة، تلك البنادق حديثة الصنع مزودة بكاتم داخلي، لا يعمل بنفس فاعلية كاتم الصوت الحقيقي بالطبع، لكنه قد أدى الغرض.. حجم الرصاصات سيتعارض مع أي كاتم للصوت في مثل تلك البنادق..

نظرت لجثة الرجل وقلت: لقد حان وقت العرض..

الفصل الثامن والسبعون

تعرفت على وجه القتيل من صور جوازات سفر الوافدين إياها، ترى كم من الوقت سيمر قبل أن يشعروا بالقلق بشأن الرجل المختفي؟ دقائق معدودة لن تعمل لصالحي بالتأكيد، انتظروا سبع دقائق وأرسلوا المزيد من رجالهم، لكن تلك هي لعبة جاك ريتشر الآن، قواعدي أنا للمرة الأولى منذ بدء كل هذا، أنا الضبع المنتظر بالظلام، أتحرك رويدًا وأشعر بهم جميعًا، ولسوف أقتلهم واحدًا تلو الآخر، سار الرجل الأول للأمام ثم نزل الدرج، تعرفت عليه، صاحب الصورة في جواز السفر الثامن، تسللت بحرص أسفل السلالم الخشبية العتيدة، أقدامه تخطو مصدرة صريرًا وهو يسير من فوقها، أخرجت سكين حرب رامبو وغرزتها في ساقيه، شهق الرجل في ألم وعدم تصديق، تلك النظرة الممزوجة بغضب وذعر عندما تنغرز بك سكين حرب، وجثا فوق ركبتيه وقفزت كالفهد ووضعت يدًا على فمه ثم أدرت رأسه بعنف ليسقط أرضًا، في نفس اللحظة التفت الآخر واستوعب الموقف بسرعة هائلة فرفع سلاحه دون أن يقول شيئًا، رميت السكين بكل ما أوتيت من سرعة لتستقر داخل عنقه وتمزق حنجرته، شهق وبصق دمًا، دار حول نفسه، رقصة الموت تلك، إصبعه يكاد يطلق رصاصة احتجاجية قبل موته، تجمدت مكاني ثم قفزت بمسافة لم أعرف أني قادر على القيام بها، قفزة فهد، قفزة ذئب، لا أعلم نوعها بالضبط، كنت شبه واثقٍ من أني لن أصل إليه لكني تمنيت فعل هذا، ووضعت إصبعي أسفل إصبعه

قائلًا بهمس: ششششش، لتمت في صمت..

ارتج جسده وتحشرج صوته، بصق المزيد من الدماء ثم خر صريعًا.

خطة التسلل الصامت تسير بفاعلية، أنا متفائل..

هنا حدثت ثلاثة أشياء..

خرج رجلان آخران من الطابق العلوي، نظر أحدهما للباب المفتوح، ثم لجثة زميله..

كان هذا هو الشيء الأول.

تلاه التفاتهم نحوي بعدما كشفوا مكاني..

رفعوا أسلحتهم، وبينما أتخيل وجه سوزان مارك، رفعت البندقية، آملًا أن يكون سبرينجفيلد قد زودها حقًّا بذخيرة حية، أنا أثق بك يا سبرينجفيلد، "ملابسك تلك لن تناسب هذا المكان"، ربما أنا لا أثق بإليزابيث سانسوم، ولكن ليس أنت يا سبرينجفيلد، لحظة شك لعينة انتابتني، ثانية فلتت مني ووجدت أسلحهم مصوَّبة باتجاهي بالفعل، قفزت جانبًا وأنا أصيح مطلقًا عليهم وابلًا من الرصاص، وظللت أتدحرج حول نفسي مصاولًا إطلاق الرصاص العشوائي في كل صوب، أجسادهم تترنح، تتراقص، الدماء تنفجر من أعماق وجوههم وصدورهم، سقط الاثنان غارقين في دمائهم، تلك كانت لحظة موت غبية للغاية، هذا الشك الأخرق الذي انتابني بشأن سبرينجفيلد دون مبرر جعلني أغفل أني قد استخدمت البندقية الأوتوماتيكية بالفعل على الحارس الليلي، لا بأس،

صفِّ ذهنك، لا مشتتات وفرط تفكير مرة أخرى في لحظة حياة أو موت يا ريتشر..

احتميت خلف جدار صلب وعتيق يحمل ذكريات عدة، وأجريت عملية حسابية بسيطة، سبعة رجال من فريقها تم القبض عليهم، خمسة موتى الآن.. يتبقى ليلى وسفيتلانا ورجل آخر.. عاودت الحركة وفتشت جثث قتلى الحرب الليلة تلك فلم أجد ما يفيدني، بحثت عن موضع قناصة جيد وارتكزت به مصوبًا البندقية نحو الباب، تبًّا لك يا نابليون، لنهاجم، قفزت جانبًا وتحرجت على الأرض، ثم انبطحت وزحفت للأمام حتى وصلت للسلم الخلفي فصعدته ركضًا، هاتفي يهتز بوضع صامت، تجاهلتها واندفعت صوب الممر شاهرًا البندقية، آه لحظة تفكير مفرط أخرى في توقيت أحمق، تراجعت للخلف مذعورًا مستوعبًا أن رصاصاتي قد نفدت، تخلصت من البندقية مسرعًا واستللت البريتيا عيار ٩ ملم، مسدسي الإيطالي المفضل، وأطلقت سبة ثم تمالكت أعصابي وتسللت بحرص تلك المرة للردهة، لا أحد هناك، سرت بحرص فسمعت صوت غبار يتطاير من حولي، بحدس أذن صياد لا يريد أن يكون فريسة، قفزت في الهواء ملتفتًا بشكل دائري مفرغًا عددًا من الرصاصات في عنق وصدر ووجه الرجل الواقف خلفي رافعًا سلاحه، ثم سقطت أرضًا، انفتح باب إحدى الغرف وخرج منه رجل يصرخ بمدفع رشاش صغير وهو يطلق رصاصة بكل صوب، استقرت رصاصة منهم في قدمي وشعرت بالدماء تطفو فوق الحذاء المطاطي السخيف، مددت ذراعي بجزء من ثانية وأطلقت

رصاصة اخترقت رأس الرجل فسقط أرضًا وعيناه تحدقان بي.. أشحت بعينيه عني وأريته قدمي كي يتوقف عن لومي.. بدأ التفكير الداخلي يصرخ مرة أخرى أني قد أخطأت في إحصاء أعداد فريق ليلى هوث لكني أخرسته، لقد وصل آخرون ولم تحظهم جوازات السفر، نقطة أخرى لصالح هوث في مباراة الشطرنج، لكني حظيت بعدة نقاط لا بأس بها، وقفت لاهثًا، أدور حول نفسي، ثم استعدت رباطة جأشي وأخرجت الماجنم في يد، والبيريتا باليد الأخرى، وسرت بردهات وغرف المبنى الذي كان مهجورًا والموشك الآن على التحول لمقبرة جماعية، فقط تمنيت ألا أكون واحدًا منهم...

الفصل التاسع والسبعون

كل الخطط تفشل والعشوائية هي سيدة الموقف عندما تحين لحظة الحقيقة، كنت أزحف لاصقًا ظهري بالجدار وأبحث بينما توجد أمامي عشرات الغرف المغلقة، ترى بأي غرفة توجد ملكة جمال العالم؟.. حاولت التفكير مثلها، سوف تختبئ داخل غرفة، ومعها رجل بسلاح، كلا كلا.. تلك ليست طريقتها، هي الخطر ولا تحتاج لحماية منه، مررت جوار نافذة مهشمة، تبادلت النظرات مع فأر يقف بالشارع، يحدق بي، حييته بيدي وواصلت البحث، غرفة شاغرة أخرى، أقتحم كل واحدة عالمًا أن الموت ينتظرني بالداخل، تسللت للطابق الثاني، جدران عتيقة، شباك عناكب، غبار، غرف مهشمة الأبواب، عبارات بذيئة فوق الحائط لمدمنين وسكان قدامى للمبنى، حقن مخدرات، التقطت واحدة منها ووضعتها بجيبي، واصلت السير، مسدس في كل يد، هناك منضدة جلوس ضخمة في نهاية الرواق، وثلاث غرف على اليسار، المصابيح تتمايل على الحائط محدثة صريرًا ضعيفًا وكئيبًا، سرت للأمام ووصلت للغرفة، أدرت مقبضها، عندما لمحت ظل الرجل المختبئ خلف المنضدة بنهاية الرواق، وقد رآني أنظر لظله، أو ربما ظله نبهه، لا أهتم كثيرًا، قفز الرجل حاملًا بندقية وأطلق رصاصة بدت كقذيفة في المكان، كدت أن أقفز ثم ارتميت للخلف لأرطم رأسي بالأرض، شعرت بشظايا الطلقة تستقر بصدري وكتفي، رفعت ذراعي وأطلقت وابلًا من الرصاص صوب المنضدة العتيقة التي لن تعمل كواقٍ من

الرصاص بعدما احتمى هو خلفها، واصلت إطلاق الرصاص بغضب وأنا أصيح، وعندما انتهيت كان هناك الكثير من الدخان والدماء، ومن خلف المنضدة زحف الرجل وهو يبصق دمًا ثم همدت حركته..

"لا تترك عاطفة الغضب تتحكم بك، ستخسر لو فعلت هذا"..

هذا ما كان يحاول سبرينجفيلد تحذيري منه..

اهتز الهاتف داخل جيبي ولم أرد.. صعدت الطابق الثالث.. الرابع.. تفحصتهم، لا شيء..

وصلت للطابق الخامس.. نوافذه جميعًا كانت محكمة ومغلقة، استلقيت أرضًا بإرهاق وقد بدأت جراحي في استيعاب ما يحدث لهم، طلقة في قدمي لا أعلم أين استقرت بالضبط أم أنها قد خرجت من الناحية الثانية تاركة مكانها جرحًا سطحيًا، شظايا"البندقية" تتسبب بألم حارق كذلك، وقفت معتدلًا بصعوبة ودخلت الطابق الخامس، لم أتفقده جيدًا، فقط ذهبت وفتحت الغرفة الأولى لينقض علي رجل ضخم الجثة ممتلئ العضلات ذو لحية ضخمة وصرخة روسية عاتية، طرت للخلف وسقطت أرضًا بسبب ركلة هائلة، حاولت الوقوف فتلقيت ركلة كادت أن تطيح برأسي كله عن جسدي، بصقت دماء وعددًا من الأسنان على ما أعتقد، كلا، لقد رفضوا التخلي عني، حملني الرجل بين ذراعيه وبدأ يضغط، سيهشم عظامي كلها في ثوانٍ مع قوته تلك، رميت رأسي للأمام ثم للخلف وضربته بمنتصف وجهه فضحك وواصل الضغط، مددت يدي المرتجفة داخل جيبي وأخرجت

الحقنة ثم غرزت السرنجة داخل فخذه فأجفل ونظر للحقنة، فهو لا يعلم أنها فارغة، وكان هذا كافيًا، أخرجت الحقنة من فخذه وضربته مرة أخرى بمؤخرة رأسي وانزلقت من بين يديه، وجه لي لكمة لكني تراجعت للخلف ثم خطوت للأمام وغرزت الحقنة في عينه، زمجر بعنف وواصل انقضاضه علي، ضربته بسيف اليد فوق عنقه وتهشمت حنجرته، وابتلعها في ردة فعل خاطئة ثم سقط أرضًا وهو يختنق في ذهول وعدم تصديق حتى مات..

عدت للغرفة التي فتحتها ودخلت، كانت تلك هي الغرفة التي قتلوا بها بيتر مولينا، لا يزال بإمكاني الشعور به وهو يحتضر ببطء داخل تلك الغرفة.

الفصل الثمانون

ساد هدوء مفاجئ بالمكان وواصلت البحث، لم أجد أحدًا بعد، ثم رأيت رجلًا يتحرك من نهاية الرواق، يرتدي السواد وله شعر أسود داكن، وقف كلانا قبالة الآخر، كل في ناحية من الرواق الطويل، رفع كلٌّ منا مسدسه، لكني كنت الأسرع، حيث استقرت الرصاصة الأولى داخل عنق الرجل لتنبثق منه الدماء، ورصاصة أخرى برأسه أسقطته صامتًا..

اهتز الهاتف مجددًا داخل جيبي، ليس الآن يا ليلى ألا ترين أني مشغول؟

واصلت البحث ودخلت غرفة بها رائحة عطر ليلى هوث، لسبب ما شعرت أنها بالغرفة السفلية، الفتحات في الأرضية ترسل إليّ بتلك الرائحة، أردت إخافتها، بشعور أن هناك شخصًا ما في الطابق العلوي، أخرجت الهاتف وأجبتها.

أردت العبث مع الجزء داخل عقلها إياه، عقل السحلية المسئول عن الحدس والغريزة والأفعال العفوية..

وردت علي هوث لكن ليس من خلال الهاتف بل بعدد من الرصاصات من الطابق السفلي.

لم أسمع صوت انفجار الرصاصة لأنها تمتلك كاتمًا للصوت فيما يبدو، وقد انطلقت الرصاصات بكل أرجاء الغرفة، قفزت فوق أريكة وحاولت القفز على مقعد لكن قدمي المصابة كان لها رأي آخر وسقطت أرضًا على وجهي، اعتدلت بسرعة ووثبت قفزة المسبح خارج الغرفة التي دخلت احتفالية

إطلاق رصاص لا مثيل لها، التفت بعدها وأطلقت الرصاص بكل صوب بدوري نحو أرضية الغرفة الخشبية..

كان هذا عندما أدركت أن كل رصاصاتي قد نفدت، البندقية والمسدسين، والسكين داخل جسد أحدهم، مددت يدي المرتجفة والمحتقنة بالأدرينالين، أخرجت المسدس الساقية ذو الفوهة الطويلة، آخر سلاح معي، ستة رصاصات أخيرة، لقد أخذته من أحد الرجال القتلى أثناء محاولة هروبي من الغرفة العلوية لليلى هوث التي لا تحب جيرانها كثيرًا..

أطلقوا عددًا من الرصاصات من الأسفل فأطلقت رصاصة واحدة فحسب متمنيًا ألا يدركوا معنى هذا، هذا رجل ذو رصاصات محدودة بالطابق العلوي، حاولت إحصاء عدد المتبقين، ليلى ورجل آخر، أم ليلى وسفيتلانا، أم أنها ليلى هوث فحسب.. لا أعلم.. لكني لا أعتقد أنهم أزيد من هذا، سمعت خطوات تعدو فوق السلم، وباغتتني طلقات أخرى من الأسفل، يشتتوني هم بينما أحدهم يصعد تحت غطاء وصوت رصاصاتهم، أمسكت بالمسدس وحدقت بمدخل السلم مصوبًا فوهة الساقية الدوارة، هذا المسدس بحاجة لمدى قريب.. زحفت بكل سرعتي محاولًا الوصول قبله، صوت عدوه على السلالم يتزايد، جمدت مكاني وأحكمت التصويب وأنا أحدق بالسلم، ظهر رأس رجل أمام عيني، انطلقت الرصاصة وانفجرت رأسه..

ساد الصمت لثوانٍ وليلى تستوعب حقيقة ما حدث، لم تسمع صيحة رجلها يقول لها إنه قد انتهى مني..

رن الهاتف في جيبي، ليس هذا وقت مفاوضات وإجراء صفقات يا ليلى..

ترى ما الذي يجول بخاطرهم الآن..

تخيلتها منبطحة أرضًا فوق طابق ما.. ولعل جوارها سفيتلانا، لن تحييني وتهز رأسها مبتسمة تلك المرة، أعتقد أن رجالهم قد نفدوا الآن، أم أنهم يحاولون تشتيتي بالهاتف، فقط ليباغتني رجلهم الأخير..

كل الاحتمالات تتساوى..

ليلى هوث، قائدة منظمة المتاجرة بالسلاح والتي تسعى للنفوذ والتحكم السياسي لتسهيل مدى إجراء صفقاتها، منظمة تعمل في التجارة بالأسلحة والأعضاء البشرية واليورانيوم وكل شيء يباركه الشيطان تقريبًا.. الحس الشعري بداخلي أراد تسميتها ابنة الشيطان، علماء النفس سيحاولون تبرير ولوم بيئتها المحيطة على شرها الحالي، لكن من الذي سوف يتحدث ابن سوزان الذي ابتلع أحشاءه، رن الهاتف بجيبي، ورأيت الرجل الأخير يتسلل بعيدًا ليباغتني فور أن أجيب المكالمة، زاويتي لن تتيح لي أي فرصة للتصويب عليه، معي خمس طلقات فحسب، والشظايا في كتفي والدماء المتدفقة من كتفي ومن ثمّ فإن عنصر التشابك بالأيدي ليس مثاليًا، زحفت عودًا للغرفة محاولًا سماع أي شيء يقولونه وباحثًا عن زاوية أستطيع قتل الرجل منها، لن أتمكن من إهدار أي رصاصات.. رأيته يتحرك بسرعة، دعه يأتي بعجالة، هذا في صالحي، صوبت المسدس نحو حفرة

في الخشب أحدثناها مؤخرًا مع كل الرصاصات وأطلقت رصاصة فتحرك للخلف بسرعة، ها هي ذي رصاصة قد تم إهدارها، يتبقى معي أربع الآن..

حسنًا، بدأت أحسب خطواته، وهو يسير ببطء.. دون عجالة تلك المرة، خطوة.. ثانية.. توقعت مكان الثالثة.

بانج..

أطلقت الرصاصة.. ساد الصمت.. سمعت جسده يسقط أرضًا ولمحت الدماء تمتزج بشعره..

قفزت بعدها متجاهلًا الألم في ساقي واستعددت لقفزة هائلة أهشم بها أرضية الغرفة المهترئة من كل الرصاصات، عندما اندفع ليونيد داخل الغرفة شاهرًا مسدسًا ويطلق رصاصه دون توقف، متى أطلقوا سراحه؟ لماذا عاد؟ تبًّا.. تعثرت أرضًا وتبادلت إطلاق الرصاص معه، بعشوائية، بلا توقف، بانج.. بانج..

لا خطط الآن، مواجهة بائسة بين رجلين يكادان يقتلان بعضهم البعض.. البقاء للأكثر حظًّا.

رصاصة في كتفي، رصاصة في أنفه، سقط ميتًا.. وأصدر مسدسي صوت تكة معدنية، لقد نفدت رصاصاتي، هنا انهارت أرضية الغرفة وسقط لأجد نفسي واقعًا أمام ليلى هوث..

"تذكر دومًا أن تحتفظ برصاصة لتقتل بها نفسك لأنك لا تريد الوقوع حيًّا بين نساء الأفغان أبدًا، إنهن محاربات أكثر وحشية من رجالهن".

الفصل الواحد والثمانون

بإمكانكم تخيل المشهد الآتي، السقف يتهشم وجاك ريتشر يسقط من الأعلى كهدية مغلقة لسانتا كلوز، رقدت أرضًا والغبار وقطع الخشب تغطي وجهي، كانت الغرفة مثلما رأيت باقي الغرف لا شيء مميز بها، دورة مياه مغلقة، بها قاتل محترف غالبًا، الغرفة كانت مستعدة لتقديم وسائل الراحة كأي غرفة أخرى، هناك مقعدان وخلف كل منهم جلست سفيتلانا وليلى أرضًا.. لم أستطع تبين أسلحتهم، تبًّا لمدى جمال ليلى هوث، بشعرها الأسود وعينيها الزرقاوين، صوبت مسدسي الفارغ من الرصاص آملًا ألا تلاحظ هي أن الساقية الدوارة اللعينة فارغة وهتفت: ارموا أسلحتكم..

قلتها وأنا أقف بثقة: إن الأمر كله يتعلق بالطاقة النفسية والخداع الآن..

وقف ثلاثتنا نتبادل النظرات ثم قلت: أنتما لستما أمًّا وابنتها.

- كلا.

- من أنتم إذن؟

- المعلمة وتلميذتها.

كان هذا جيدًا، لم أرد إطلاق النار على أم أمام ابنتها، أو ابنة أمام أمها، هذا لو كان معي طلقات رصاص من الأساس، نظرت إليّ هوث بتمعن بعدما قرأت أفكاري وقالت: لكنك لن

تمانع في قتل تلميذ أمام أستاذه؟

- كلا.

- إذن لمَ لا تفعل هذا؟

راقبت لغة جسدهم، لا انفعالات ولا ترقب، هدوء تام بلا توتر، اهتز الهاتف بجيبي فقالت ليلى بدلال: ربما عليك أن ترد، أخرجت الهاتف بحرص مصوبًا مسدسي إليهم وأنا أتساءل داخل عقلي إن كان سبب عدم توترهم هو معرفتهم بنفاد المسدس من الرصاص.

"ألو".

أتاني صوت تيريسا لي.

- أين كنت؟ لقد اتصلت بك مرارًا وتكرارًا خلال العشرين دقيقة السابقة.

- كنت مشغولًا.

- أين أنت؟

- لماذا كان رقمك محجوبًا؟

- لأني أتصل بك من دائرة القسم، أين أنت؟

- ما الذي يحدث؟

- دفعة أخرى من جوازات السفر، أحدهم من إسطنبول، لقد كنا مخطئين.

في تلك اللحظة انفتح باب دورة المياه وخرج الرجل

الآخر...

الفصل الثاني والثمانون

تذكرت ما قاله آينشتاين عن حقيقة أن الوقت نسبي.. وعندما خرج القاتل الأخير من مخبئه توقف الوقت بالكامل، لقد تحول لجزيئات ثوانٍ متبعثرة من حولي وأنا التفت ببطء كأن الجاذبية قد انعدمت من الغرفة، فم ليلى يتحرك بينما تتفوّه بكلام غليظ وبطيء، كل جزء من الثانية حمل شيئًا مغلفًا كهدية من أجلي، أول جزء كان به رد فعل ليلى عندما أخبرتها أنها فقدت نصف فريقها، كادت أن ترد أنها تمتلك أكثر من نصف الفريق ثم أوقفت نفسها، لم تتحدث كثيرًا تلك المرة، الجزيئات الثانية حملت لي معلومات باغتة ومبعثرة..

الرجل يحمل مسدس غلوك ٧ مزودًا بكاتم للصوت..

يبدو كبطل كونج فو قرر أن يمارس الملاكمة والتايكوندو..

والثانية الأخيرة حملت أهم معلومة بالنسبة لي.. لقد نظر بخبرة للساقية الدوارة وأدرك أنها فارغة من الرصاص..

انتهت اللعبة يا ريتشر، لا يوجد خيار الآن، سيرفع رأسه بجزء من الثانية ولسوف تفهم ليلى أن مسدسي فارغ، هناك نوع رهيب من التخاطر الذهني بالمواقف المشحونة بالأدرينالين تلك، إصبعه يعتصر الزناد بالفعل، سيكون هناك وقت للعتاب فيما بعد عن الرصاصة التي استقرت داخل رأسي، لكن حتمية الموقف الآن توجب قتلي وعدم الاكتراث لمكان الخزانة، سوف تنفجر رأس ريتشر الآن، وداعًا لكل المعلومات بداخلها، سوزان مارك تنظر لي في صمت، سوف

ألحق بها الآن، ثم كانت ابتسامة سفيتلانا هوث المقيتة التي دفعتني للحركة، تلك المرأة العجوز السقيمة التي قضت عمرها في تعذيب ضحاياها، انطلقت رصاصة، ضاربة بعرض الحائط كل قوانين نيوتن للحركة، ما فعلته كان أمرًا أخرق ومثيرًا للسخرية في أي موقف آخر، لقد قفزت بالهواء متكورًا حول نفسي كلاعب أكروبات ثم تركت الجاذبية تدفعني أرضًا وأنا متكور حول نفسي، فور سقوطي أرضًا تقمصت روح الغوريلا في قناة ناشيونال جيوجرافيك وأطلقت صيحة حيوانية وأنا أقفز يمينًا، ورصاصات الرجل تلاحقني، لا وقت للتفكير إن كان أحدهم قد استقر بجسدي أم لا، تلك أشياء تأتي لاحقًا، هذا لو كان وقت لاحق، وصلت للرجل وغرزت فوهة المسدس الساقية الطويلة داخل عينه اليسرى، غرزتها بالكامل ثم دفعت بالمسدس، نزف دمًا وتصلب وجهه ثم سقط أرضًا، مسدسه يسقط معه، يكاد يرتطم بالأرض، ليلى تستوعب ما حدث وترفع مسدسها، يدي تمتد في الهواء وتلتقط مسدس الرجل المزود بكاتم للصوت قبل أن يسقط أرضًا..

صوب كل منا المسدس باتجاه الآخر وهمست ليلى بنعومة ودلال بعدما استعادت هدوءها: أنا أسرع..

- لا أعتقد.

تحركت سفيتلانا كوحش ضرير وقالت بالخلفية: مسدسك فارغ.

- آه إنها تتحدث الإنجليزية بعد كل شيء.

- لقد عددت الرصاصات التي أطلقها قبل أن أفقأ عينه، مسدسه فرغ من الرصاصات ولذا لم يرديك قتيلًا عندما كففت عن المراوغة ووقفت أمامه..

- هراء، لا أحد يعد رصاصات تطلق في خضم معركة نارية.

لكني لم أتأكد من هذا، ربما سفيتلانا العجوز تمتلك خبرة واحترافية لا قِبل لأحد بها، هو لم يطلق الرصاص عندما وقفت أمامه وكففت عن التأرجح بكل الاتجاهات متفاديًا رصاصاته، توقعت أن الدهشة هي التي جعلت إصبعه يجمد أمام الزناد، ثانيتين من الدهشة كانوا كافيين بالنسبة لي كي أضع مسدسي في وجهه، تنهدت.. كل الاحتمالات تتساوى..

ظللنا واقفين، فوهات مسدساتنا ترتكز على الآخر، وبركة من دماء الرجل قد انسابت منه بعدما سقط على وجهه.

قالت سفيتلانا بصوت أجش لا لطف فيه باسمة: ضع سلاحك أرضًا.

وظلت ليلى واقفة مصوبة مسدسها نحو صدري، لا أعلم إن كانت قد تعمدت التصويب لقلبي أم لا، تلك المرأة تعتد بجمالها بحق، لا بد أنها تنتزع قلوب الرجال وتلتهمهم وليس أحشاءهم فحسب..

غمغمت ساخرًا ومرهقًا وقد بدأت راحة الموت المنتشرة بالمكان تعبق بصدري: الكل يريد خزانة المعلومات، كل يسعى إليها، تبدو ككلمات أغنية..

- أنت تعرف مكانها، وفقًا لكلامك يا شيرلوك هولمز فأنت استنبطت مكانها، هل تعتقد أنك الذكي الوحيد هنا؟ بإمكاننا جميعًا الوصول لنفس الاستنباط..

لم أقل شيئًا..

واصلت سفيتلانا حديثها: وفور أن تباهيت بقدراتك الاستنباطية فكرنا نحن واستنتجنا مكانها بدورها، أنت وفرت علينا الكثير لأنك تتحدث كثيرًا يا ريتشر..

أول مرة يتهمني أحد بالثرثرة، لم أقل شيئًا.

همست ليلى برقة: ضع سلاحك جانبًا يا جاك، لا تقف كأبله يلوح بمسدس شاغر..

نوعية المسدسات اللعينة تلك لا تتيح لك قياس وزنها لمعرفة إن كان بها رصاص أم لا، كنت أفتقد المسدس البيريتا بشدة في تلك اللحظة، تنهدت ووضعت المسدس أرضًا.. طقطقت سفيتلانا بلسانها وقالت بحرص: لو حاولت ضربنا به سنقتلك.

رميت المسدس بعيدًا برفق واعتدلت واقفًا، رفعت ليلى مسدسها نحو وجهي وقالت: انزع سترتك.

خلعت سترتي ببطء ورميتها أرضًا جوار المسدس..

- حزامك وحذاؤك وجواربك كذلك..

امتثلت لأوامرهم، فتاة شابة جميلة وسيدة لطيفة وعجوزة..

- والآن تخلص من باقي ملابسك.

- سأفعل هذا لو قمت بالمثل..

أطلقت ليلى رصاصة تحذيرية مرت جوار أذني..

- الرصاصة التالية سوف تستقر ما بين ساقيك..

تخلصت من ملابسي العلوية ووقفت عاري الجذع بسروالي فحسب.

- والآن سروالك.

- أعتقد أن مسدسك فارغ من الرصاص.

- كلا، به أربع رصاصات، اثنتان لساقك واثنتان لذراعيك.

وكررت سفيتلانا بوحشية: سروالك..

رميت السروال جوار باقي الملابس، لم يروا ظهري، تحركت سفيتلانا وأفرغت محتويات جيوبي أمام عيني ليلى التي قالت: أنت رجل فقير إذن.

- على النقيض تمامًا، كل ما أحتاجه هو فرشاة الأسنان تلك وبطاقة الدفع الإلكتروني، الثراء هو ألا تحتاج لشيء آخر.

- الحلم الأمريكي أليس كذلك؟ ستموت ثريًا..

- فرص متساوية للجميع.. عدالة اجتماعية وكل شيء..

ظللنا واقفين بصمت، رجل عارٍ يقف بثيابه الداخلية أمام سيدة عجوز وشابة جذابة، يبدو كمشهد من فيلم غريب سيتم منع عرضه في الأغلب، وبركة دماء الرجل قد تحولت

لبحيرة تطفو بها أقدامنا، لم أحب ملمس الدماء على أصابع قدمي، همست ليلى: ألصق ظهرك بالجدار..

تراجعت للخلف حتى لامست الجدار تاركًا آثار أقدام ملطخة بالدماء على الأرض، تحركت سفيتلانا كأم حنون تعتني بالغرفة وتوضبها، أفسحت مجالًا بوضع ملابسي والمسدس في الركن ثم جرت جثة الرجل بعيدًا، وحملت كرسيًا معدنيًا بقوة فاجأتني ووضعته بمنتصف الغرفة، اختفت قليلًا وعادت حاملة سكين تقطيع ضخمة، نظرت للمقعد والسكين ولجسدي العاري، فقرة التعذيب المفضلة لعائلة هوث..

السكين كان حادًا ومُسَنًا حديثًا، مجهز لبتر المعدن وليس التعذيب فقط..

تحركت المرأتان بدقة وترتيب، ليلى تصوب مسدسها لرأسي، ثم أحنت الفوهة لقلبي وابتسمت غامزة لي، ومن الناحية الأخرى وقفت سفيتلانا، حصار تكتيكي لا بأس به..

انتزعت ليلى خزانة رصاص مسدسها وتركتها تسقط أرضًا، حاملة ثلاث رصاصات، الرابعة معلقة بالماسورة، رمت ليلى المسدس على بُعد عشرين مترًا منها، وقالت: كلعبة البحث عن الكنز، هناك دومًا رصاصة عالقة بالماسورة، لكي تصل للمسدس عليك أن تجتازنا نحن بالطبع.

لم أقل شيئًا.

- وفي حالة نجاحك في الوصول للمسدس فأنا أرشح لك

إطلاق تلك الرصاصة في صدغك مثل سوزان، هذا هو الحل الوحيد الفعّال للهروب منا..

ثم ابتسمت وأخرجت سكينًا مطابقة للأخرى التي مع سفيتلانا، السكين كانت تقبع خلف حزامها طيلة الوقت..

لم أقل شيئًا..

اقتربت كلاهما مني، والسكاكين تلمع على وجوههم.

- سوف نستمتع بتمزيقك إربًا حق الاستمتاع.

لم أقل شيئًا..

لم أفعل شيئًا..

كنت أدرك أن الأمر شخصي بالنسبة إليهم، تلك المقاتلات اللاتي اعتدن وسائل القبائل في القتال، الاصطياد في الغابات، أنا عدو وقد تحديتهم ولذا سوف أستحق التمزيق إربًا بالسكاكين، ثقتهم وعدم احتياجهم للمسدس قادمة من خبرتهم السابقة ومعاركهم مع رجال كانوا في مثل موضعي، النصر المتكرر يحقق للمرء درجة هائلة من الثقة تجعله يقوم بالمهام التي قد يراها الآخرون شاقة بآلية وتكرار روتيني، لم يكن يجب عليها رمي المسدس، أحيانًا الثقة الزائدة تقتل..

اقتربت النساء مني.. ظهري ملتصق بالجدار..

وفي تلك اللحظة تحركت للأمام ومددت ذراعي للخلف لالتقط المدية الملصقة بلاصق بلاستيكي على ظهري..

مدية صغيرة سرقتها من جيب ليونيد في آخر لقاء معي له،

لقد سرقت أشياء عدة من ليونيد بخلاف هاتفه وكرامته..

لوّحت بالمدية في وجوههم وهم يقتربان بسكاكينهم العملاقة..

هناك معركة دموية موشكة على البدء..

الفصل الثالث والثمانون

لوّحت بالمدية وأنا أرجع للخلف محاولًا عدم الانزلاق فوق الدماء الرطبة، زأرت سفيتلانا بوحشية وهي تلوح بسكينها، على وجه ليلى رأيت تعبيرًا من القسوة غيّر من تقاسيم وجهها، لم تعد جميلة الآن، هي مسخ آدمي يلوح بسكين ويريد التهام أحشائي، نظرت للمدية البائسة في يدي وقارنتها بحجم سكاكينهم، ليلى تتحرك برشاقة ومرونة استعدادًا للهجوم، كرقصة ملاكم في الحلبة قبل بدء الجولة الأولى، أو الأخيرة.. لم أكن أحب السكاكين، لست بارعًا في استخدامها لتلك الدرجة، لكني أمتلك غريزة بقاء قوية رغم ذلك، لقد رأيت مشاجرات بالأسلحة البيضاء كثيرًا في حانات أوروبا الشرقية، القاعدة الأولى ألا تتعرض للجروح القطعية، هذا سيجعلك تنزف كثيرًا ولسوف يصيبك بالدوار ويشتت تركيزك ورؤيتك..

سفيتلانا كانت ضخمة البنية وتتحرك بخطوات متثاقلة، هجومها سيكون مباشرًا، ليلى تتحرك بخفة الفهود، ستضرب وتتراجع للخلف، ستكون مصدر خطر حقيقي برقصة الموت الخاصة بها تلك، تعابير وجوههم تستوعب عنصر المفاجأة وتغير الأحداث بسرعة، الميزة الوحيدة التي أمتلكها هي سأقاتل من أجل حياتي، هما يقاتلان من أجل السادية والاستمتاع، للمرح..

أردت الوصول للمطبخ لكن جسد سفيتلانا يقف كعائق بيني وبينه، طوحت هي السكين وكادت تلامس جدار معدتي

فتراجعت للخلف ووجهت لها لكمة خطافية يسرى ارتطمت بأنفها، تراجعت للخلف وجاهدت للحفاظ على توازنها، بدت مندهشة مما حدث، أغلب المقاتلين بالأسلحة البيضاء يتوقعون أن الأمر يتعلق بالمدية أو السكين فقط، الركل واللكم مخالف للقواعد فيما يبدو، لكن ليس بالنسبة لي، هنا اندفعت ليلى بخفة وهي تمسك بمقبض سكينها بالمقلوب وغرزتها بصدري، انسالت الدماء وأنا أقفز للخلف، لأني لو تزحزحت يمينًا أو يسارًا فهذا سيزيد من اتساع القطع، لم يمسني سوى نصل سكينها لكنه أحدث ضررًا هائلًا، انزلقت أرضًا فوق الدماء وشعرت لثوانٍ أني سوف أسقط فوق مديتي لتنغرز في عنقي، لا داعي لكل هذا التفاؤل، اعتدلت واقفًا وقد اصطبغ جسدي بلون الدم الغامق، عندما وجدت سكين ليلى يندفع نحو عنقي، انحرفت يمينًا فقط لأتلقى حافة سكين سفيتلانا في جانبي، انحنيت متفاديًا إياه وتركت أنزلق أرضًا كأني أتزلج فوق الأمواج وضربت ساق سفيتلانا بالمدية ثم تدحرجت لمسافة آمنة وهببت واقفًا، هجومهما الثنائي مشتت للغاية فهما يهجمان سويًا كقطيع من الضباع، بقوة الذئاب..

اقتربا مني مكونين دائرة أخرى، كنت أقف قرابة المطبخ، أحاطا بي، وجهت لكمة لوجه ليلى، ونظرت سفيتلانا لما يحدث بعدما توقفت هي عن الحركة، كانت تثق بمهارة ليلى وتعرف أنها ستتفادى اللكمة، وأنا كنت أعرف أن اللكمة لن تصيبها لأنها مجرد تمويه ليس أكثر، وفي منتصف اللكمة غيرت اتجاهي وغرزت المدية في رأس سفيتلانا، اخترق

المعدن الحاد رأسها، لا سبيل لاسترداد المدية الآن، جحظت عينا العجوز وتصلبت مكانها، خيط من الدماء ينساب من جبينها، نظرت إليّ بكراهية، وشدت من قبضة يدها على السكين، مقاتلة حتى لحظتها الأخيرة، لن أستطيع أخذ سلاحها الآن لمواجهة ليلى مع إحكام يدها المتخشبة فوقه، خرت سفيتلانا صريعة وسقطت جثة هامدة وسط بحيرة الدماء..

لم تصرخ ليلى، لم تغضب، فقط ازداد تعبير القسوة على وجهها وهي تندفع إلي وطوحت السكين أمام عيني، كانت تريد أن تعميني، رميت رأسي للخلف وكاد سكينها أن يصيب أنفي، فقفزت وركلتني في عنقي، طرت من فوق الأرضية الزلقة ثم سقطت أرضًا وارتطم رأسي بالأرض بقوة، لثوانٍ اعتقدت أني سوف أفقد الوعي، هززت رأسي بعنف، ركلة أخرى من ليلى أطاحت بوجهي، كانت ترقص يمينًا ويسارًا وتقفز من على قدم لأخرى، تلك الفتاة تجيد الفنون القتالية بشتى أنواعها، لكن الركل ضربات آمنة بالنسبة، السرعة والخفة والسكين هم مصادر قوتها، هي لن تجازف بالاقتراب مني لأن القوة الجسدية في صالحي وهي تحاول تقليل تلك القوة الجسدية، زحفت بعيدًا محاولًا الوقوف فالتقطت ليلى إناء زجاجيًا ورمته ككرة سريعة ليتهشم فوق رأسي، سقطت أرضًا مرة وأغمضت عيني محاولًا حمايتهما من الزجاج المتناثر، لثوانٍ لم أصدق ما يحدث، ليلى هوث توسعني ضربًا وأنا أكاد أن أخسر لفتاة في العشرينيات من عمرها، لكنها ليست فتاة، يدعونها بابنة الشيطان ولا أعلم من هم بالضبط،

لكنها تستحق هذا اللقب وبجدارة..

أدركت أن قوتها العاتية والحالية ناجمة عن مقتل سفيتلانا، لا بد أن أقف، ركلة أخرى في قصبة ساقي، هي ذكية وبارعة، تهشيم قدمي سيفيدها بالتأكيد، هنا وكأن قدمي الأخرى قد أصابتها الغيرة انساب منها ألم مبرح إثر طلقة الرصاص المبكرة في المبنى، استخدمت كل هذا الألم لأحوله لغضب وتدحرجت يسارًا، لا أعرف لأين بالضبط، لكن الفتاة الفهد انتهزت وغرزت المدية في ساقي، هنا اعتدلت وقبضت على شعرها لأمنعها من الحركة ولكمتها بكل قوتي في وجهها، طارت للخلف وسقطت أرضًا تاركة جزءًا من شعرها في يدي، هبت واقفة والدماء تزين وجهها، رأيت أنفها وقد تهشم تمامًا، بصقت ليلى دمًا ورفعت، نظرت إلي وهي تلهث..

وقفت أمامها محاولًا التحكم بالآلام المختلفة بداخلي، نظرت إليها وأنا ألهث..

رائحة الدماء والموت تعبق بالغرفة..

- واحدة خارج اللعبة الآن.

قلتها وأنا أبصق دمًا بدوار مشيرًا لسفيتلانا.

- وواحدة لا تزال ملكة اللعبة.

- فيما يبدو أن التلميذ قد تفوّق على الأستاذ.

- من الذي قال إني التلميذ؟

كان كلانا ينزف من أنحاء متفرقة بجسده، هناك قطع في

سروالها ودماء تسيل من فخذها وأنفها، وجانبها كذلك، أما عني فحدِّث ولا حرج، طلقة في قدمي، جروح غائرة وقطوع متفرقة من السكين في صدري وساقي، وزجاج في رأسي ووجهي من الإناء المهشم، كنت أتوسل لوعيي ألا يتركني في تلك اللحظة، حاولت ألا أفكر بالدوار، أحيانًا هو ينتابنا بقوة عندما نفكر فيه..

سالت الدماء من أنف ليلى فمحستها بكفها، وبدأ ألم حارق ومراوغ ينتاب رأسي بعدما أدركت أن هناك إناءً تهشّم فوقها..

كلانا نقف على مسافة قريبة من المسدس..

نظرت بطرف عيني للسكين في يد سفيتلانا والمدية برأسها، تلك العجوز معها كل الأسلحة، وفكرة محاولة أخذهم شديدة الفشل، ستنقض عليّ ليلى كالفهد وتتعلق بظهري من الخلف ثم تجز عنقي، سوف تنحرني كالخراف..

قالت لي ليلى: لو سألتني بلطف فلسوف أدعك ترحل.

- أنا لا أريد الرحيل.

- لا يمكنك الفوز.

- واصلي أحلامك تلك.

- أنا مستعدة للقتال حتى الموت، أنت تخاف الموت.

- لقد انتزعتِ أحشاء ضحاياك بيدك.

- هل تقدر على قتل امرأة؟

- لقد فعلت هذا للتو.

- امرأة مثلي؟

- لن أقتل سوى من هم مثلك.

بصقت ليلى دمًا باتجاهي، ثم أخذت نفسًا عميقًا وسعلت، ثم نظرت للجرح في ساقها، ورفعت عينيها الجميلتين صوبي وقالت: أنا مستعدة للموت..

ثم رفعت رأسها، بشمم وكبرياء، كانت تعلم أن ساقها ستعيقها عن الحركة، كما أنها تواجه صعوبة في التنفس بسبب أنفها المهشم، هناك دوار يصحب الأنف المكسور كذلك وألم بالغ، أما عن الجرح في ساقها فقد أعلن عن نفسه بعدما توقفت هي عن الحركة لثوانٍ، لن تستطيع التحرك بسرعة الفهد في اللحظات التالية، لكنها قبضت على سكينها وانقضت علي وهي تصرخ، ألقيت نظرة أخرى على المطبخ وتخليت عن فكرة الذهاب إليه للحصول على سكين ما، لا يوجد وقت لهذا، كنت ضعيفًا ومرهقًا وأكاد أفقد وعيي، رؤيتي تزوغ بالفعل وهناك نسخ عدة لليلى هوث ينقضون عليّ الآن..

وجه سوزان مارك، هيا يا رجل، لحظات أخيرة من التركيز..

انحنيت للأسفل متفاديًا السكين وحملت جسد ليلى لأعلى ثم رميتها بعيدًا لتصطدم بالجدار وتسقط أرضًا، أطلقت صيحة ألم ثم همدت حركتها تمامًا، سرت إليها ببطء، انحنيت وجذبتها من كتفها لتستدير ناحيتي، سكينها انغرز داخل أسفل عنقها واستقر بصدرها، كانت جثة هامدة شاخصة

البصر الآن، جلست جوارها في إعياء، وأغمضت عينيَّ.

ربما سيقولون إني فقدت الوعي، لكني أفضِّل القول ببساطة إني قد خلدت للنوم..

الفصل الرابع والثمانون

استعدت الوعي لأجدني راقدًا فوق فراش مستشفى، الساعة داخل رأسي أخبرتني أننا بعد الظهيرة، ربما الرابعة مساء، والمذاق اللاذع بفمي قال لي إنهم أعطوني الكثير من الأدوية، لا بد أن نبضات القلب قد تغيرت داخل الجهاز بعد إفاقتي لأنه بعد مرور دقيقة دلفت ممرضة للغرفة وتفحصتني، ثم عادت مع طبيبة، بعدها عادوا مع جايكوب مارك وثيريسا لي وسبرينجفيلد وسانسوم.. تفحصت الطبيبة الأجهزة من حولي وقامت بقياس الضغط والنبض، وقالت شيئًا للمرضة قبل أن يرحلوا دون أن يوجهوا لي كلمة واحدة، لا بد أن لدي سمعة سيئة بعدما فعلته، نظرت لثيريسا وغمغمت بصوت مبحوح: ما الذي حدث لي؟

- أنت لا تتذكر.

قالتها بقلق فأجبت: بالطبع أتذكر كل شيء، لكن ها هي القصة الرسمية لما حدث.

- التقرير سيدلي بأنه تم العثور عليك بزقاق جانبي شرق نيويورك، ولا يوجد تفسير واحد للطعنات والطلق الناري في قدمك ولا الزجاج في رأسك، وأوعزت الشرطة الأمر لحادث تهجم وسرقة، أنت ضحية عاثرة الحظ ليس أكثر، بالمناسبة لقد خرجت الطلقة من الجهة الأخرى بقدمك في لحظتها، أنت محظوظ للغاية، لو ظلت هناك لاضطروا لبتر قدمك..

تخيلت حياتي للحظة وأنا أسير بدون قدم، كيف؟ يمكن

تخيل ساق مبتورة، لكن قدم.. هززت رأسي نافضًا الفكرة عني، تابعت ثيريسا: لقد وجدناك أنا وسبرينجفيلد بالمبنى وأحضرناك هنا مباشرة، تلك هي النسخة غير الرسمية من الأحداث وتنحنح سبرينجفيلد مضيقًا: لقد خمنت أنها قد عادت للمبنى القديم، بعض مقاتلي الجيش الأحمر اعتادوا فعل هذا فيما سبق.

- وماذا عن جثثهم بالمبنى؟

- مداهمة رسمية لفريق مكافحة الإرهاب، سيحظون بالتقدير الدائم وبعض الأوسمة لمهمتهم تلك..

- بصماتي ودمائي في مسرح الجريمة و...

- لا تقلق بهذا الصدد يا ريتشر، لقد تكفلنا بالأمر.

قالها سبرينجفيلد بثقة.. ثم أضاف: والمستشفى حرقوا ملابسك.

- ها، لقد كانت ملابس جديدة.

- وملطخة بالدماء، لا أحد يخاطر مع عدوى الدم الآن..

- ولكن المبنى..

قاطعني سبرينجفيلد مرة أخرى: قديم وآيل للسقوط وعليه فقد قررت الحكومة هدمه وإقامة مول تجاري مكانه..

- والفيدراليون؟

- يحظون بنفس التقدير مع مكافحة الإرهاب بشأن الهجوم

على المبنى، من الأفضل لهم عدم الاعتراف بوجودك رسميًّا الآن؛ لأن هذا سيتضارب مع كونهم أبطال تلك القضية، سيتركونك لحالك..

هنا تحدث سانسوم وقال: أين خزانة المعلومات؟

تجاهلته ونظرت لجايكوب مارك ثم قلت: هل أنت بخير؟

- ليس حقًّا.

رفعت نفسي لأعلى الفراش ولم يؤلمني شيء لأني تحت تأثير كميات هائلة من مسكنات الألم، أردفت لجايكوب: أنا آسف بشأن كل ما حدث..

هز رأسه بمعنى أنه لا يوجد شيء كي يقال..

كرر سانسوم: خزانة المعلومات يا ريتشر.

نظرت له في صمت..

- أنت كنت تخدعنا طيلة الوقت ولا تعرف مكانها أليس كذلك؟

تنهدت ونظرت للوجوه الماثلة أمامي، فضّلت النظر لثيريسا لي وقلت في النهاية: لقد خططت ليلى للعملية لمدة ثلاثة أشهر، الأسبوع الأخير من تلك المدة كان للتنفيذ، الاتصال بسوزان، تهديدها ببيتر، لماذا تخلت سوزان عن سيارتها واستقلت القطار؟ بسبب التكدس المروري الذي تسبب في تأخيرها، هل تريدون معرفة مكان الخزانة؟ تعقبوا السيارة واذهبوا لأكثر شارع به ازدحام مروري.

- ما الذي تتحدث عنه يا رجل؟

- سوزان رمت خزانة المعلومات من نافذة سيارتها قبل أن تترجل منها.

- ها؟ وكيف يتسنى لك معرفة هذا؟

- لأنها قد وصلت الأنفاق بدون هاتف خلوي.

نظر سانسوم لثيريسا التي أكدت كلامي بعدم امتلاك سوزان لهاتف خلوي، فقال الأول: وما دلالة هذا؟ بعضهم لا يقتني هواتف خلوية على الإطلاق..

- حقيقي وأنا أحد هؤلاء لكن سوزان لم تكن منهم.

وأضاف جايكوب: لقد كانت تمتلك واحدًا.

- إذن؟

قالها سانسوم بنفاد صبر..

- إليكم ما حدث يا سادة، موعد سوزان لتسليم خزانة المعلومات لليلى كان عند منتصف الليل، الزحام المروري جعلها تتأخر بساعات عن الموعد، سوزان تمتلك هاتفًا ذكيًا أليس كذلك؟ حسنًا، ليلى هوث تلتزم بتهديداتها، وعندما لم تظهر سوزان في الموعد أرسلت لها ليلى مقطع فيديو، ربما بثًا مباشرًا لمقتل بيتر..

تحاشيت نظرات جايكوب وأردفت: لما فعلوه به، وتلك النقطة كانت نهاية كل شيء بالنسبة لسوزان التي رمت الهاتف من النافذة ومعه مصدر كل متاعبها، خزانة المعلومات،

ثم هامت في الأرض وهي في حالة صدمة وذهول، وأنتم تعرفون باقي ما حدث عندما قابلتني في القطار التي استقلته متعجلة الوصول إلى ليلى كي تقتلها بمسدسها، ربما، لا أعلم حقًا أي أفكار سوداء وحزينة دارت داخل عقل سوزان في لحظاتها الأخيرة، ستجدون خزانة المعلومات ملقاة على جانب طريق ما أو في صندوق قمامة مع هاتف سوزان لو لم يقم أحد بسرقته..

- لكن من الجنون أن تفعل ليلى هذا؟ تضحي بالرهينة، لا بد أنها كانت تعرف أن سوزان ستذهب للشرطة فور إرسال فيديو بيتر لها.

- ليلى كانت مجنونة بالفعل، الالتزام بالتهديد مسألة شرف بالنسبة لها..

ساد صمت ثقيل قبل أن يقطعه سانسوم.

- إذن أين كانت سوزان عند منتصف الليل؟ ما هو المكان الذي رمت فيه خزانة المعلومات؟

- اكتشف أنت هذا بنفسك، قدّر المسافة وسرعة السيارة وقرب محطة الأنفاق ونقاط التكدس المروري وابحث في الخريطة بورقة وقلم..

خرج جايكوب من الغرفة بعدما هز رأسه لي، وتنهد سانسوم ثم خرج بوجه مستغرق بالتفكير، التفت سبرينجفيلد قبل أن يرحل وقال: لقد كادت فتاة وامرأة عجوزًا من هزيمتك، أنت في حالة يزرى لها..

نظرت له رافعًا حاجبي فأضاف مبتسمًا: لقد تمكنت منك العاطفة وفقدت سيطرتك، حاولت تحذيرك من هذا.

ثم رحل.. نظرت إلي ثيريسا لي ثم همست: لقد أحضرت لك شيئًا.

وخرجت ثم عادت حاملة حقيبة بها ملابس وأرتني إياهم، حذاء وسروال وسترة جديدة وقميص صيفي قطني غريب الشكل، شعرت أني سأبدو كمزارع أو كعامل في منجم من الأربعينيات عندما أرتديه، قبلتني، فأحببت القميص وقلت لها: شكرًا..

- هل تعلمين لماذا ارتدت سوزان تلك السترة الشتوية؟

- لماذا؟

تنهدت وقلت: لأنها كانت تشعر بالوحدة، في البدء لم تستوعب ما يحدث، اختطاف وتهديد، لم تتخيل للحظة أنها سترى أشلاء ابنها وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، كانت تعتقد أن الأمر كله مجرد تهديد، سوف تسلمهم خزانة المعلومات وينتهي كل شيء، ثم قتلوه وأرسلوا لها الفيديو، حينئذ انتهت حياة سوزان بالفعل، أعتقد أنها وجدت السترة السوداء ملقاة في المقعد الخلفي لسيارتها ربما منذ الشتاء السابق، وقد ارتدتها لأنها سوداء وثقيلة وقادرة على تدفئتها، لم يكن هناك صديق أو شخص يساعدها سوى تلك السترة.. هي كانت في طريقها لقتل ليلى، عندما قاطعتها أنا وجعلتها تفجر رأسها، ربما اعتقدت أني واحد منهم أو عميل للبنتاجون، لا زلت

أتمنى لو أني تمكنت من إيقافها، لو أنها حكت لي كل شيء.

- أنت لا تستطيع إنقاذ الجميع.

- أنا لم أنقذ أحدًا، لقد قتلت الكثيرين فحسب.

- لا تقل شيئًا كهذا لشرطية من فضلك.

قالتها ثيريسا بابتسامة هادئة وهي تمسح بيدها على وجهي..

قالت إزاء تعبير وجهي: بم تفكر؟

- كانت سوزان ستفشل في قتل ليلى، لكنها ستموت متشفية على الأقل..

- هل تعتقد أنهم سيجدون الخزانة؟

- بالتأكيد، سيوظفون الجميع من أجل مهمة إيجادها، شرطة الولاية والخيالة والمطافئ وربما الإسعاف وعمال النظافة، سيجدونها، وسيقولون في تقريرهم الرسمي إنها قد تلفت، تلك كذبة سياسية بالطبع..

هزت ثيريسا لي ولم تعلق.. ثم انحنت وقبلتني مرة أخرى.

***

ودعت ثيريسا بعد تماثلي للشفاء ورحلت تاركًا نيويورك بعد أيام..

قضيت شهورًا وأنا أعاني من كوابيس بشأن كل ما حدث، زارتني ليلى هوث عدة مرات في أحلامي، أعتقد أن قتل

فتاة وسيدة عجوز أمر لا يتوافق مع طبيعتي رغم حقيقة ما فعلوه، فكرت كثيرًا في الأسرار الموجودة داخل خزانة المعلومات، لماذا أرادتها منظمة ليلى هوث لتلك الدرجة؟ هل هناك شيء آخر بخلاف صورة سانسوم مع بن لادن؟ كنت أعلم جيدًا أن المؤامرات حقيقية فالأسرار موجودة منذ بدء التاريخ، وبعد مرور عدة أشهر جديدة كففت عن الحلم بليلى هوث وسوزان مارك..

ولكن ليس بشكل دائم..

***

النهاية

الهوامش

(1) ماتا هاري عميلة مزدوجة وجاسوسة.

(2) فندق Hyatt هو ضمن سلسلة من الفنادق العالمية.

(3) (هامش: بما أن ليلى هوث ليست أمريكية المنشأ فقد ارتكبت الخطأ الشائع في نطق اسم البلد، لوس أنجلوس هو الاسم الصحيح، نسبة للاسم الأصلي وهو مدينة الملائكة).

(4) رونالد ريجان، رئيس أمريكي بحقبة الثمانينيات.

(5) إبان حرب فيتنام ظهر تعبير «ذوي البيجامات» كإشارة للفيتناميين الذين صمدوا أمام أمريكا.